AYAAT ILM ACADEMY
أكاديمية آيات للعلوم الإسلامية

المستوى الأساسي

منهج

السيرة والتاريخ

الفصل الدراسي الثالث

سير ٢٥١

إعداد

د. عماد حسين

دكتوراه التاريخ الحديث والمعاصر

الطبعة الأولى
١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م

مقرر السيرة والتاريخ- الفصل الدراسي الثالث

مقرر قصص الأنبياء

شعيب

كان أهل مدين عربًا يسكنون أرض معان، من أطراف الشام، وكانوا يكفرون بالله ويشركون به، إذ عبدوا الأيكة[١] من دونه، وصاروا يبخسون الناس أشياءهم، وإذا اكتالوا[٢] على الناس يستوفون، وإذا كالوهم[٣] أو وزنوهم يخسرون.

بعث الله فيهم شعيبًا رسولاً، وآزره بالمعجزات وأيده بالبينات فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وأمرهم بالعدل وحذرهم عاقبة الظلم، وذكرهم نعمة الله عليهم إذ كثرهم بعد قلة، فاستهزءوا بقوله، وسخروا منه وتهكوا به، وقالوا: يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نعبد غير ما كان يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون، وتنهاك أن نعامل الناس كما نحب ونشتهي، فندع ما درجنا عليه، ونشأنا فيه، وكثرت أموالنا من طريقه!

كيف تنهانا عن دين ألفناه، وشرع ورثناه، وأنت الراجح عقلاً السديد رأيًا الواسع حلمًا!

ولكن شعيبًا لم تبد منه جفوة أو قسوة، بل تلطف في جدالهم، وآثر استمالتهم باللين، واجتذابهم بالرفق، وذكرهم بما بينه وبينهم من صلة، فذلك أدعى لقبول النصح، والانصياع إلى الرأي، وأدل على الرغبة في الخير والحب للنفع.

ولما أنس منهم ميلاً إليه، وظن أن آذانهم تفتحت لسماع قوله، بين لهم أن ظهور البينة له وكثرة نعم الله عليه تحولان بينه وبين الانسياق إلى طريقهم، والاندفاع في غيهم، وتمنعاته عن التفريط في وحي الله والتهاون في تكاليفه، ثم أعلن إليهم أنه قد أوحي إليه بالهدى، وأرسل بالحق، وأوتي من الله الرحمة وأشد إلى ما لم يهتدوا إليه، وأنه لن يني عن العمل بهذه الدعوة التي اختير لها وألقي إليه وحيها، على أنه لم يكرههم على اتباع دعوته ولا يأمرهم بشيء إلا رضيه لنفسه، وهو الذي اشتهر بينهم بالحلم وعرف فيهم بالرشد، ثم هو لا يطلب منهم أجرًا على هديهم ولا جزاء على إرشادهم، بل يريد إصلاح أمرهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

من كان هذا شأنه فهو أحق أن يتبعوه، وأولى أن يقنعوه، وليس له غرض خاص من دعوته، ولا مأرب من وراء طلبته.

ولكن أحس نفورهم من نصيحته، ورأى منهم ميلاً إلى مخالفته ومع أنه لم يبق لهم شبهة، ولم يترك لهم حجة، فظن أنهم إنما يأنفون من متابعته، ويميلون عن دعوه، بغيًا وحسدًا، وبغضًا وكبرًا، فنهاهم أن يحملهم ذلك على الانصراف عنه، أو تدفع بهم الرغبة في مجانبته إلى النأي عما يدعوهم إليه، وخوفهم بأس الله وعذابه، وبين لهم أن اقتراف المعصية، وارتكاب الإثم لا يمنعهم أن يؤمنوا بالله، ويتوبوا إليه لينجوا من العذاب ويتخطاهم العقاب.

---

[١] الأيكة: غيضة تنبت الشجر.

[٢] اكتالوا: إذا كان لهم حق بالكيل أو الوزن.

[٣] كالوهم: إذا كان للناس حق عندهم في مكيل أو موزون.

ولما أظهر لهم فساد اعتقادهم، وبين لهم عاقبة ظلمهم، وأيد قوله بالحجة البالغة والآيات البينة، لجئوا إلى المراوغة في القول ومدافعة الحجة بالشتم، فقالوا له: إننا لم نفقه[١] كثيرًا من قولك؛ لأنه ليس لكلامك سبيل إلى قلوبنا أو منفذ إلى عقولنا، فلتكف عن إثارة من هم في عزة ومنعة، وأنت المستضعف الذليل، الذي لا يمنعنا عن أذاك إلا مكان عشيرتك وحرمة قبيلتك.

ولكن شعيبًا لم يطأطئ رأسه أمام عزتهم، ولم يضعف أمام قوتهم، بل هب يدفع باطلهم بحقه، ويمحق زورهم ببينته، وتملكته العزة بنصرة الله، وتاه فخرًا بمؤازرته، وأبان لهم أن رهطه[٢] ليسوا أرفع قدرًا، ولا أشد قوة، ولا أمنع جانبًا من الله الذي منحهم هذه القوة، وأفاض عليهم تلك العزة وقال: هلا تركتموني رعاية لحق الله، وحفظتموني إطاعة له! إن ذلك أولى من حفظي لمكان قومي وعزة رهطي.

لم يضعف تهديدهم قوته، ولم يفل وعيدهم من عزمه، بل دعا لهم أن يبذلوا ما يملكون من قوة لإيصال الشر إليه، وأعلن إليهم أنه لم يألوا جهدًا في سبيل دعوته ولن يدخر وسعًا في الوصول إلى غايته، فثقته بنصر الله أكيدة، وعاقبته عنده حميدة، وهو أعلم بما يعملون، خبير بما يصنعون.

دأب شعيب على الدعوة إلى الله، فوجد من بعض القوم آذانًا صاغية وقلوبًا واعية، وآمن به نفر قليل، فهلعت نفوس القوم خيفة أن يعظم أمره، ويشتد ساعده، وينتشر دينه، وتكثر جماعته، فتوعدوه ومن آمن معه أن يخرجوهم من قريتهم، وإن لم يبرءوا من دينهم، ويعودوا إلى ملتهم، ولكن شعيبًا أنبأهم أن هؤلاء الذين اتبعوه قد استرق الإيمان قلوبهم، وملك عليهم مشاعرهم، وخالط نفوسهم، فلن يعودوا إلى حمأة[٣] الرذيلة إلا كارهين، ولن يرجعوا عن عبادة الله طائعين، فقد أصبحت نفوسهم تعاف ارتكاب المعاصي، بعد أن نجاهم الله منها، وتأبى أن تتردى[٤] في مهاوي الضلالة بعد أن أخرجهم الله من مباءتها[٥].

ولما يئس من هدايتهم إلى الحق، وتبين إصرارهم على الكفر، استنصر ربه عليهم ودعاه أن يجزيهم على كفرهم وجحودهم، وتضرع إليه أن يعجل لهم ما يستحقون من عذاب، ولكن القوم عن الحق لاهون، وعلى الدنيا مقبلون، وعما خبأ لهم القدر منصرفون، فرجعوا إلى القوم المؤمنين، وأعادوا الكرة على من ظنوهم مستضعفين، وخوفوهم الخسران إن تركوا الظلم، وعاملوا الناس بالقسط، وهددوهم بالخراب إن لم يطففوا[٦] الكيل والميزان، وحذروهم العدم إن لم يبخسوا الناس أشياءهم ويعيثوا في الأرض مفسدين.

ثم كروا على شعيب بالتكذيب ونسبوا إليه الشعوذة والسحر، وتحدوه أن يسقط عليهم كسفًا[٧] من من السماء وأن ينزل عليهم العذاب إن كان من الصادقين.

---

[١] الفقه: الفهم.

[٢] رهط الرجل: قومه وقبيلته.

[٣] الحمأة: الطين.

[٤] تسقط.

[٥] المكان الموبوء.

[٦] التطفيف: نقص المكيال.

[٧] كسفًا: قطعًا علوية مهلكة.

استجاب الله دعاءه، وآزره بنصره! وابتلاهم بالحر الشديد فكان لا يروي ظمأهم ماء، ولا تمنعهم ظلال، ولا تقيهم الأسراب والمنازل ففروا هاربين، وخرجوا من ديارهم مسرعين، ولكنهم فروا من قضاء الله وقدره إلى قضاء الله وقدره، فقد شاموا سحابة ظنوها لهم من وهج الشمس واقية وحسبوها للحر دافعة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، ويستروحوا فيئها، حتى إذا تكامل عددجهم، وتألف جمعهم، رمتهم بشرر وشهب، وجاءتهم صيحة من السماء، وأحسوا الأرض تتزلزل تحت أقدامهم ففزعوا لهول ما رأوا، ولم يكادوا يحسونما حل بهم حتى أزهقت أروحهم، وهلكت نفوسهم.

رأى شعيب ما حل بقومه فأعرض عنهم يثقله الحزن على ما أصابهم ولكنه ذكر كفرهم بالله، وتسفيههم لرأيه، واستهزاءهم بمن آمنوا معه، ومخالفتهم نصيحكته فخفف ذلك من وجده، وتولى عنهم (وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسي على قوم كافرين).

يونس عليه السلام

يونس -عليه السلام-من سلالة النبي يعقوب فهو من أنبياء بني إسرائيل إلّا أنّ الله تعالى لم يُرسله إلى بني إسرائيل بل أرسله إلى الآشوريين، أصحاب الحضارة التاريخية الشهيرة، وكانوا يسكنون حول نهر دجلة وروافده، وكانت نينوى وآشور من أهم مدنهم، وهذه المدن تقع مقابل الموصل حاليًا، وقد نشأ الآشوريون في البادية ولكنّهم تغلّبوا على أهل المدينة وبنوا دولة وأسسوا حضارة، وكانوا يأخذون الجزية من الأقوام المجاورة لهم ويبسطون سيطرتهم على شعوب مختلفة، حيث قامت حضارتهم على القسوة والحرب.[1] وكانوا يعبدون الأصنام ويُلقون عليها أسماء مدنهم وكان الصنم آشور هو الإله الأكبر بالنسبة لهم، وهذا الاسم يُطلق أيضًا على ملكهم، وكانوا يعبدون هذا الملك أيضًا ويتوجّهون إليه بالقُرُبات والهدايا، ويعملون وفقًا لأمره ونهيه، وقد بدأ النبي يونس بدعوتهم من عاصمتهم نينوى، وكانت دعوته تضمّن الإيمان بالله وحده وترك الطباع والعادات السيّئة كالظلم والعدوان، وقد أيّده الله تعالى بالمعجزة وأرسل إليه وحيًا يُعلّمه ما هي الأمور التي يجب أن يُبلّغها قومه. جحود واستكبار قوم يونس عليه السلام هل استجاب الآشوريون لدعوة النبي يونس؟ لم يستجب الآشوريون لدعوة النبي يونس، واستمروا في ضلالتهم وأعمالهم الفاسدة، ولم يدخل الإيمان إلى قلوبهم، وجحدوا واستكبروا وتمسّكوا بعبادة الأوثان والملوك، وطال الأمد وهم على هذه الحالة، والنبي يونس -عليه السلام- مستمر في دعوتهم وتذكيرهم. غضب يونس عليه السلام من قومه ، ولكن لم ينتظر نبي الله يونس أمر الله حتّى يخرج، غضب النبي يونس -عليه السلام- من عناد القوم وامتناعهم عن الإيمان، فأنذرهم بوقوع عذاب الله تعالى عليهم، بعد ثلاثة أيّام من خروجه، وخرج من بينهم ولمّا تأكدوا من نزول العذاب بهم، تابوا إلى الله تعالى وأنابوا، وأظهروا ندمهم على ما فعلوه بنبيّهم وكفرهم وضلالهم، فلبسوا ملابس رديئة إظهارًا للضعف والانكسار، وبكوا جميعًا رجالًا ونساءً وتضرّعوا ولجأوا إليه سبحانه ليكشف عنهم ما سيقع بهم، ويقول المؤرخون أنّه حتّى البهائم والدواب اسغاثت وجأرت طلبًا للرحمة.[2] فرحمهم الله تعالى وطالتهم رأفته وعنايته، فكشف عنهم العذاب بقوّته وحوله، وقد قال تعالى حاكيًا عن قوم يونس عليه السلام: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ}(يونس:٩٨)،أي أنّه لا يوجد في التاريخ قرية آمنت بكاملها بهذه الهيئة إلّا قوم يونس، وقد اختلف المفسّرون في كون إيمانهم هذا سينفعهم في الآخرة كما نفعهم في الدنيا،

---

[1] أحمد أحمد غلوش، كتاب دعوة الرسل عليهم السلام، صفحة ٢٥٤-٢٥٥.
[2] ابن كثير، كتاب قصص الأنبياء، صفحة ٣٨٧-٣٨٨.

فقال البعض لا ينفعهم، ولكنّ ابن كثير -رحمه الله- قال إنّ الذي يدلّ عليه السياق أنّه سينفعهم، لأنّ قوله تعالى: "إلى حين"، لا يعني امتناع رفع عذاب الآخرة.[1] ولا بدّ من التعريج على خروج النبي يونس من القرية حيث تذكر الآيات القرآنية أنّه خرج مغاضبًا، وذلك لأنّه قام بأمر الدعوة وتحمّل المشاق والصعوبات المرافقة له، ولكنّ استمرار قومه بالتكذيب جعل صبره ينفد فخرج من بينهم وتوعّدهم بالعذاب، وقد عاتبه الله تعالى على نفاد صبره وتعجّله بتركهم، فكان عليه أن ينتظر الأمر الإلهي بالخروج حتّى يخرج، ولذلك فإنّ الله تعالى يأمر النبي محمد -صلّى الله عليه وسلّم-ألّا يكون كأخيه يونس في الغضب والضجر من قومه.

ترك النبي يونس قومه وقصد البحر باغيًا ركوب سفينة والابتعاد عنهم ما أمكن ذلك، فوجد سفينة بها الكثير من الركّاب فصعد معهم وسارت بهم، وولجت في البحر، ولكنّ مجيء الموج أثّر على حركتها وجعلها تثقل بركّابها حتّى توقّفت في عرض البحر. اتفق ركّاب السفينة أن يرموا أحدهم في البحر ليخفّ حمل السفينة واقترحوا أن يعملوا قرعة ومن يخرج اسمه في القرعة يكون هو من سيُلقى، فخرج اسم النبي يونس فأعادوها لأنّهم لا يُريدون إلقاؤه في البحر بسبب صلاحه وأخلاقه، ولكنّها ظلّت تقع عليه في كلّ مرّة تُعاد، فأُلقي في الماء لأنّه لا مناص من فعل ذلك.

بعث الله تعالى حوتًا عظيمًا فالتقم النبي يونس عندما أُلقي في البحر وأمر الحوت ألا يكسر له عظم ولا يهشم له لحم، فبقي سالمًا وعندما تيقّن ذلك سجد لله شاكرًا وتاب وأناب، وقد سمع صوت تسبيح مخلوقات البحار والحصى والرمال في قاع البحر، وكان يونس -عليه السلام-في ظلماتٍ ثلاث، وهي ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل، وقد اختلف المفسّرون في مدّة مكوثه في بطن الحوت فقيل يوم واحد وقيل ثلاثة وقيل سبعة وقيل أربعين.[2]

دعا النبي يونس ربّه بدعوة مليئة بالانكسار والخضوع، وقد خُلّدت هذه الدعوة في كتاب الله، حيث قال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}(الأنبياء:٨٧)،استجاب الله تعالى لدعاء يونس -عليه السلام-فأمر الحوت أن يلفظه وألقاه على الشاطئ، ولكنّه كان ضعيفًا ومحتاجًا للستر والطعام والشراب، فتداركته نعمة ربّه، وأنبت الله عنده شجرة يقطين فتغذّى منها، وكان يشرب لبن إحدى الدواب الجبلية التي هيأها الله تعالى له، وظلّ على هذه الحال حتّى قوي جسده وعاد سليمًا كما كان.

أتمّ الله تعالى نعمته على نبيّه يونس وكلّفه بالدعوة مرّة أخرى، وأرسله إلى قومٍ آمنوا به، وقد اختلف المفسّرون هل هؤلاء هم قومه الأوائل أم قومٌ آخرون، ومن الممكن أن يكون عاد إلى قومه يُذكّرهم ودعا غيرهم معهم فاستجابوا لدعوته، وقد كان ما حصل معه من قبل هو التمحيص الإلهي والتربية الربّانية وإتمام النعمة والفضل، ولا ينبغي لأحد أن يتصوّر فيه النقص، وقد نهى رسول الله أن يقول أحدٌ من الناس أنّ النبي محمّد أفضل من النبي يونس، وخصّه بالذكر لئلّا يتوهّم من يسمع قصّته النقص فيه، فبالغ في ذكر فضله سدًّا لهذه الذريعة.[3]

---

[1] نفسه

[2] ابن كثير، كتاب قصص الأنبياء، صفحة ٣٨٩-٣٩١.

[3] أحمد أحمد غلوش، كتاب دعوة الرسل عليهم السلام، صفحة ٢٦٢.

أيوب عليه السلام

هو أيوب بن موص بن زراح بن إسحاق، من ذرية إبراهيم عليه السلام، قال الله تعالى: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ} (الأنعام:٨٤)، نبي أوحيَ إليه، ومن كبار الأنبياء، قال الله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ} (النساء:١٦٣)، كان متزوجًا من ابنة عمِّه رحمة بنت يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

بُعث أيوب -عليه السلام- إلى حرَّان، ولم يتعرض القرآن الكريم لحياته الدعوية وإنما اكتفى بذكر بعض صفاته، روى الحافظ ابن كثير أنَّه كانت لأيوب -عليه السلام- نواح من دمشق يمتلكها، وذلك من نِعم الله تعالى عليه، لكن تلك النواح سُلبت منه شيئًا فشيئًا، وهو صابر محتسب، استمر يدع الناس سبعين عامًا، كان فيها عظيم التقوى، ينفع الناس ويحسن إليهم، يكفل اليتيم ويكرم الضيف، لا يقبل أن ينام شبعانًا وفي الأنحاء من هو جائع، ولا أن يكون بخير وغيره في الأنحاء يعاني من ضائقة مادية، فكان الله تعالى منعم على أيوب -عليه السلام- بالخير الوفير، وكان أيوب -عليه السلام- مؤديًا لحق الله تعالى شاكرًا له.[١]

وردَ في القرآن الكريم أنَّ نبيَّ الله أيوب -عليه السلام- تعرَّض للابتلاء بالمحن، ومدحه الله تعالى في قوله: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}(ص:٤٤)، فبعدَ أن امتحنه الله تعالى بالنِعم وأدَّى شكرها ونجحَ في ذلك الابتلاء، بدأ امتحانه بمحنٍ ثلاث من الله تعالى في أولاده وصحته وماله، ففقدَ في البداية ماله ثمَّ فقدَ أولاده، وأخيرًا ابتلي بصحته، وقد اختلفَ العلماء في البلاء الذي أصيب به جسده، وعاش في هذه المحن مدة طويلة، اختلف العلماء في تحديد مدَّتها ما بين ثلاث سنوات إلى ثماني عشرة سنة حسب بعض الأقوال.

انصرف الناس جميعهم عن نبي الله أيوب -عليه السلام-بعد أن ابتلاه الله تعالى، فبقي وحيدًا، ولم يبق معه أحدٌ إلا زوجته، وكانت لشدة حرصها على شفائه تلتمس له الدواء قدر ما تستطيع.

كانت زوجة أيوب -عليه السلام-نعمَ الزوجة، فقد قامت على خدمته ومساعدته، بكل صبر واحتساب، وروي أنها كانت تعمل عند الناس حتى تستطيع أن تدبر أمرها هي وزوجها وحتى تستطيع علاج زوجها، حتى وصل الأمر في الابتلاء أنَّ الناس رفضوا العمل معها، خوفًا من أن تكون سببًا في نقل العدوى لهم.

صبر أيوب -عليه السلام-لما أصابه من بلاء، فلما طلبت زوجته منه بأن يدعو ربه ليكشف البلاء، أخبرها بأنَّ الله أُنعم عليهم مدة طويلة من الزمن، فكيف لا يصبر على ما أصيبوا به من محن، وعن الصحابي الجليل ابن عباس قال: "قالت امرأة أيوب لأيوب: إنك رجل مجاب الدعوة، فادع الله أن يشفيك، فقال: كنا في النعماء سبعين سنة، فدعينا نكون في البلاء سبعين سنة، قال: فمكث في ذلك البلاء سبع سنين"[٢]، فما كان منها إلا الصبر والمواساة لزوجها، والقيام بوفير جهدها لمساعدة زوجها، والإنفاق على بيتها، دون أن تنحرف عن طريق الحق. بعدما انقطعت فرص العمل لدى زوجة أيوب عليه السلام، ورفض الناس معاملتها، قامت بقصِّ ضفيرتها، وبيعها لإحدى بنات الأشراف، مقابل حصة وفيرة من الطعام، ثم عمدت للضفيرة

---

[١] ن منظور، مختصر تاريخ دمشق، صفحة ١٠٧.
[٢] أحمد غلوش، دعوة الرسل، صفحة ٢٤١-٢٤٤.

الثانية وقامت ببيعها، للإنفاق على زوجها أيوب عليه السلام. حين علم أيوب -عليه السلام- أنَّ زوجته باعت ضفيرتي شعرها لمساعدته والإنفاق عليه، تألم كثيرًا وحزن، ورقَّ للحال الذي وصلت إليه زوجته، عند ذلك آثر أن يدعو الله تعالى ليكشف عنهم البلاء الذي جعل زوجته تعمل أيَّ شيء ممَّا أحلَّه الله تعالى لمساعدة زوجها وحتى يتجاوز هذا الامتحان بكامل الصبر والاحتساب.[1]

بعد أن تمَّ الأجل المقدَّر من الله تعالى لابتلاء أيوب بالمحن، وبتيسير وتقدير الله دعا أيوب ربَّه أن يكشف عنه البلاء الذي أصاب جسده وماله وأولاده، إذ قال تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} (الأنبياء:٨٣)، وقال تعالى في موضع آخر: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}(ص:٤١)، حيثُ يظهر فيه أدب أيوب -عليه السلام- في دعائه لربه تعالى، في نسبة الضرر إلى الشيطان.

استجاب الله تعالى لدعاء نبيه أيوب عليه السلام، فانفرجت عنه وعن زوجته الكرب ورفع الله البلاء عنهما، قال تعالى: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}(ص:٤٢)، فأمره تعالى بأن يضرب رجله بالأرض، لينبع نبع من الماء فيغتسل منه ويتعافى من أي بلاء كان قد أصاب جسده، وضرب برجله في موضع آخر فنبع ماء، فأمره تعالى بأن يشرب منه، وبهذا تكاملت العافية فيه عليه السلام، وكوفئ على صبره بفقد الولد بأن أعاد الله له أهله ومثلهم معهم، حيثُ قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ}(ص:٤٣)، واختلف العلماء بطريقة إعادة أهله على أقوال: أنهم أُحيوا بأعيانهم، ورزقه الله مثلهم في الحياة الدنيا، وهو قول ابن عباس وابن مسعود ومجاهد. أنه عليه السلام، خُيِّر ما بين إحضار أولاده بذواتهم، أو تركهم في الجنة، على أن يؤتى له بأمثالهم، فاختار أن يبقوا في الجنة، وان يؤتى بمثلهم في الحياة الدنيا. أنَّ الله أعطاه أجر فقد أولاده في الحياة الآخرة، ورزقه الله تعالى بأمثالهم في الحياة الدنيا.[2] ومع اختلاف الآراء، كان الاتفاق على أنه كوفئ بالمضاعفة من نعم الله تعالى المادية والمعنوية، على ما قدَّمه من صبر واحتساب في المدة التي ابتلاه الله بها.[3]

ذو الكفل عليه السلام

تكرر اسم ذي الكفل في القرآن الكريم مرتين: الأولى: في قوله سبحانه: {وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين} (الأنبياء:٨٥). والثانية: في قوله تعالى: {واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار} (ص:٤٨).

ولم يأت ذِكْرٌ لذي الكفل في غير هذين الموضعين من القرآن الكريم.

والذي عليه أكثر المفسرين أن ذا الكفل نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أجمعين، قال الرازي: "والأكثرون أنه من الأنبياء عليهم السلام". وقال ابن كثير: "وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قُرن مع الأنبياء إلا وهو نبي. وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم، ويقضي بينهم بالعدل ففعل فسُمّي ذا الكفل.

وقد رُوي عن ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد، أن سيدنا ذا الكفل لما كبر في العمر، خرج على قومه وقال لهم إنه يرغب في أن يستخلف رجلاً على بني قومه، فيعمل عليهم قبل موته حتى يدري ما سوف يفعل بهم.

---

[1] نفسه

[2] محمد منصور، رحمة للعالمين، صفحة ٥٣٧.

[3] القصة مستفادة من لينا عميرة بموقع سطور.

سيدنا الكفل جمع بني قومه آنذاك سألهم عمن يستطيع أن يسير بسيرته التي إلتزم بها في حياته، وذلك أن يتقبل منه أن يستخلفه في ثلاثة أمور هي؛ أن يصوم النهار، ويقوم الليل، وألا يغضب، وهنا نهض رجل فقال له أنا أفعل، فسأله سيدنا ذا الكفل أأنت تصوم النهار، وتقوم الليل، ولا تغضب؟، الرجل أجابه ببلى، ولكن رده سيدنا ذا الكفل، وفي اليوم التالي تكرر ما حدث ونهض نفس الرجل وقال أنا، وبسؤاله أكد ما نوى، ولكن رده مرة ثانية، إلى أن نهض ثالثًا، فقال أنا، فاستخلفه على بني قومه.[1]

موسى[*]

ولادة موسى وتربيته

تمادى فرعون في غيه، وعلا في الأرض، وأنزل الخسف بطائفة من رعاياه، هم بنو إسرائيل إذ عاشوا في ظلاله عيشة البلاء، واصطبروا على الضراء، وبينمات هم يضطربون ويرزحون في نكد من العيش وسوء الحال، إذ تقدم الكاهن من فرعون وقال له: يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده، فثارت ثورته وسدر[٢] في بهتانه، وأمعن في غيه، فذبح أبناءهم، واستبقى نساءهم، ولكن قدرة الله تعالى تسامت أن يقف أمامها تدبير خائب، فقدر في قديم أزله لهؤلاء المستضعفين أن يرثوا ملك هذا الطاغية الجبار على يد طفل يربى في بيته، ولكنه الورد ينبت من ثنايا الشوك، وكالفجر يدرج من مهد الظلام.

مكن الله لبني إسرائيل وأرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون.

جلست يوكابد[٣]، في كن[١] من منزلها وقد جاءها المخاض فدعت قابلة لتهيئلها مثل ما يكون في هذه الحال، فعالجتها فلما وقع موسى على الأرض اضطربت نفسها، ولكن حبه تغلغل في قلبها

---

[1] ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص٢٥٩

[*] القصص ٣ -٤، طه ٩*١٠١، والشعراء ١-٦٨، الأعراف ١٠٠ – ١٥٦، ١٦٠، يونس ٧٥ – ٩٢، النمل ١٤/٧، النازعات ٢٦/١٥ هود ٩٦-١٠١، إبراهيم ٨/٥ المؤمنون ٤٨/٤٥، الإسراء ١٠١-١٠٤.

[٢] سدر: تحير.

[٣] يوكابد: أم موسى.

فحرصت على حياته، وجهدت في البقيا عليه، فلم يتسرب خبره إلى فرعون عدو الأطفال، واستمر ثلاثة من الشهور كذلك، حتى إذا نشر الملك عيونه في المدينة يتفحصون الأطفال ألهم الله أم موسى أن تهيئ له صندوقًا تضعه فيه، ثم تلقي به في النيل، وترسل على الشاطئ أخته تقص أثره، وتلم بخبره، بعد أن ثبت فؤادها، وهدأ روعها بقول كريم.

***

سارت أخت موسى تقص أثره، وما كان أشد هلعها حينما حمل الصندوق الى فرعون، ولكن رحمة الله قريبة منه، فلم تكد تنظره امرأة فرعون حتى ألقى الله محبته في قلبها؛ فطلبت الى زوجها أن يكون ابنا لها وله، وقد اصبح قلبُ يوكابد فارغا من الهم والاشفاق على وليدها، لانها استودعته الله، وهي رابطة الجأش، ثابتة الايمان .

وسبقت اليه المراضع، لعله يقبل على واحدة منهن، فيروي غلته، ويشبع جوعته، ولكنه عاف المراضع، فانبرى هامان، وقال : إن هذه الفتاة تعرفه، فخذوها حتى تخبر بحاله، ولما سئلت الفتاة قالت : إنما أردت أن أكون للملك من الناصحين، فأمرها فرعون أن تأتي بمن يكفله، وأقبل يحمل الطفل باكيا وهو يعلله حتى أقبلت امرأة، فاستأنس بها الوليد، والتقم ثديها من دون النساء.

فدهش فرعون وقال لها : من أنت ؟ فقد أبى كل ثدي إلا ثديك ؟! فقالت أم موسى : اني امرأة طيبة الريح، طيبة اللبن، لا أوتي بصبي إلا قبلني، فدفعه اليها وأجرى عليها رزقا، فرجعت الى بيتها وهكذا كافأها الله فقرت عينها به لتعلم أن وعد الله حق

خروج سيدنا موسى من مصر

أتمت يوكابد رضاع ابنها موسى، ثم اسلمته الى القصر الفرعوني ليكون لهم عدوا وحزنا .

ولما بلغ أشده واستوى، أوحي الله اليه بالنبوة، وآتاه العلم والحكمة .

اتجهت أنظار المستضعفين المغلوبين الى موسى، ليحميهم مما اثقل كاهلهم من االظلم والآلام، وهؤلاء قومه، وهو ذو النفس الكريمة التي أشربت عزة الله، واستنارت بنور الله.

عاهد موسى نفسه على ان يكون لهؤلاء المظلومين نصيرا، وفيما هو يتجه نحو العاصمة الفرعونية، اذ وجد رجلين يقتتلان أحدهما عبري من مشايعيه، والآخر فرعوني من أصحاب القوة والسلطان، فسأله مظاهره أن يحول بينه وبين اعتداء الفرعوني، فهم موسى بضرب الفرعوني فكانت القاضية، ثم ندم على فعلته، وعدها من عمل الشيطان واستغفر ربه على ما فرط منه، فغفر له ربه انه غفور رحيم .

ولقد كان الغفران نعمة على موسى، وحافزا لرحمته، وداعيا لسلامه، فاستعاذ بالله أن يكون ظهيرا للمجرمين[٢]، ولكن موسى تغلبت عليه بشريته وانتصرت على حواسه طبيعة الانسان، فلم يعلق إرادته بارادة مدبر الأمر ومصرف الكائنات، ولم يستثن مشيئة الله، فوقع فيما عزم على النجاة من غوائله، إذ أصبح في المدينة خائفا يترقب، فاذا الذي استنصره بالامس يستصرخه فرماه موسى بالغواية والضلال ولكنه اندفع إلى مظاهراته، فظن أن موسى يقصد قتله فتقدم اليه مسترحما قائلا : (يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن

---

[١] الكن: الجانب من المنزل.

[٢] مساعدًا.

تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين)، فلم يكد يسمع الفرعوني هذا الاتهام الصريح - وقد كان قومه في حيرة من أمر قتيل الأمس، لا يعرفون قاتله - حتى وافاهم وأخبرهم بخبر موسى فتألب القوم يبحثون عن موسى ليمزقوه شر ممزق، ولكن رحمة الله قريب، اذ جاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال: يا موسى أن الملاء يأتمرون بك ليقتلوك، ثم نصحه بالخروج من المدينة الى حيث يشاء رب العالمين .

سيدنا موسى ينزل أرض مدين

خرج موسى من المدينة خائفا يترقب، متجها الى أن يصرف عنه كيد الظالمين سار ثماني ليال قاصدًا بلاد مدين[١] ولا معين له الى عناية الله رب السموات والأرض ولا رفيق يؤنسه إلا نور الله، ولا زاد يحمله إلا زاد التقوى، مشى حافيا حتى تساقطت جلود قدميه جائعا تتراءى خضرة البقل من بطنه هزالا وضعفًا.

ولم يكن له عن كل ذلك إلا عزاء واحد هو غنيمته بالبعد عن فرعون وقومه ونجاته بعيدا عن الرقباء والكائدين.

توجه الى مدين، فوجد حشدا من الناس قد تزاحموا على مورد[٢] ماء. كل منهم يعتمد على قدرته في التقدم والمسابقة الى البئر، ورأى من دونهم امرأتين تفصلان أغنامهم حتى لا تختلط بأغنام غيرهما في ضعف وذلة، إلى أن ينكشف هذا الحشد وينصرف الجمع فتتقدما للسقيا.

ثارت في نفس نبي الله ثورة النصفة, وحماية المستضعفين، فتقدم وسالهما: ما خطبكما؟

قالتا: لا نسقى حتى ينصرف الرعاة[٣] حذرا من مزاحمة الرجال ، وقد جئنا نسقي اضطرارا ، لأن أبانا شيخ كبير لا ينهض، فما تأخر موسى عن نجد الضعيفتين بل سقى أغنامهما، وتولى إلى الظل ثم انطلق لسانه يسترحم رب السموات ويستدر العطف ,,, لانه فقير محتاج

بكرت الفتاتان بالرجعى إلى أبيهما الشيخ على غير عادة، فسألهما الخبر، فأخبرتاه وقد استجاب الله استرحام موسى ، فحنا عليه، اذ ألهم الشيخ أن يرسل في طلبه إحدى ابنتيه، فجاءته الفتاة مستحية متخفرة فقالت : (إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا).

تبع موسى الفتاة الى بيت أبيها استجابة للدعوة فنزل صدرًا رحبًا، وآنس حرمًا آمنًا، ثم قص عليه قصصه، وأفضى إليه بمكون سره، فطمأنه الشيخ، وقال: (لا تخف نجوت من القوم الظالمين).

موسى يصاهر الشيخ[٤] ثم يعود إلى وطنه

هدأت نفس موسى في منزل الشيخ الكبير، وسكنت الى صحبته، ولا بدع[١] فنور الايمان يتلألأ من كلا القلبين ، وفيض الإخلاص يتفجر من كلا الرجلين وشبيه الشيء منجذب اليه .

---

[١] بين الشام والحجاز

[٢] المورد: موضع ورد الماء.

[٣] الرعاء: الرعاة.

[٤] يرى الحسن البصري ومالك بن أنس أن الشيخ هو شعيب عليه السلام، ويرى آخرون أنه شعيب آخر وليس بالنبي.

ولقد كان موسى كريما فتيا أثار في نفس الشيخ وبنتيه عوامل الإكبار والإعجاب ، لما زانه الله به من طبع قويم وخلق كريم ، فتحرك في نفس الفتاة حب الاستظهار بموسى وقوته والإبقاء عليه لطهارته وأمانته فقالت :(يا أبت استأجره إن خير من استئجرت القوي الأمين).

أو ليس هو الذي أقل الغطاء عن البئر منفردا مع صعوبة حمله على ما كان به من تعب وهزال! أو ليس هو العف الطاهر الذيل الذي أطرق برأسه حينما بلغته رسالة أبيها واستدعته إليه، فسار أمامها وسارت خلفه، وفاء لحقوق الطهارة وذمام[٢] المكرمات وحتى لا تمتد عينه إليها فيكون من الخائنين.

مر حديث الفتاة إلى أذن أبيها، فلم ينبه غافلا، ولم يحرك ساكنًا بل كان صدى يرجع ما كان يجيش في صدر الشيخ من أمل ورجاء اما وقد مزق التماسُ الفتاة حجاب السكوت فقد استقر أبوها في مجلسه ثم انبرى يقول: يا موسى، إني لراغب في أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين على أن تكونا عونًا لي وظهيرًا أجيرًا ترعى الغنم وتقوم بنصرتي ومساعدتي ثماني حجج[٣] وإن زدتها اثنين فتلك منةُ جليلة أرجوها منك ولا أحتمها عليك، وسأكون لك إن شاء الله من الأوفياء المخلصين

ولقد كان موسى شريدا في بلاد مدين ووحيدا طريدًا نائبًا عن الأهل قصيا عن الأخلاء مستوحشه نفسه، فلم يكد يسمع دعوة الشيخ حتى سرى أمل الحياة في نفسه مسرى الماء في العود وانطلق لسانه يقول للشيخ : إني لسعيد بصحبتك أيها السيد الكريم قوي بمناصرتك عزيز بمؤازرتك.

طاب مقام موسى واخضر في حياته عود الأمل : فأتم أقصى الأجلين يكلأ أمور الشيخ ويدبر شؤونه برعاية الأمين الناصح الحكيم وتم الزواج بإحدى الفتاتين.

ثم وهب له صهره الكريم أغناما له خالصة سائغة وبعد ذلك تحركت في صدره نشوة الحنين إلى الوطن ونزعت نفسه إليه ولج به الشوق والهيام.

بلاد ألفناهـــــا على كل حالـــة وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن

وتستعذب الأرض التي لا هوى بها ولا ماؤها عـــــذب ولكنهـا وطـن

جمع موسى أشتات متاعه، وهيأ رحله، واستعد ليذهب مع زوجه إلى مصر فودعا الشيخ وداعا حسنا، ودعا لهما بالتوفيق والسداد ثم سارا نحو الجنوب حتى طور سيناء وهناك ضل موسى الطريق فحار في أمره والتوى عليه قصده ولكن عناية الله لاحظته ، فلم يخب ضياؤه ولم ينطفيء رجاؤه ..

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

---

[١] لا بدع: لا غرابة.

[٢] الذمام: الحرمة.

[٣] حجج: سنين.

سار موسى غير بعيد، فأبصر من الجهة التي تلي الطور نارا، فحط رحاله وأسرع وحده إلى النار بعد أن قال لأهله : (امكثوا إني آنست[١] نارا لعلي آتيكم بخبر أو جذوة[٢] من النار لعلكم تصطلون[٣]).

في شاطئ الوادي الأيمن، في البقعة المباركة من الشجرة، في تلك الليلة المسفرة الضاحكة بسم الزمان لنبي الله الكريم، فنودي (أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين) فكانت بدء نبوته إذ خصه الله بكرامته، وبعثه برسالته، وهناك سمع نداء ربه الله الكريم (وما تلك بيمينك يا موسى) فعجزت قدرته البشرية أن تسمو إلى سر الإبداع في السؤال الكريم، فأجاب كما يجيب غيره من الناس (هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى) ظنا منه أن المقصود أن يذكر خصائص العصا ومنافع العصا تسامت قدرة الله وتعالي سبحانه علوا كبيرا فلم يكن السؤال إلا تمهيدا لتبيان ومقدمة لإعلانه!

سأل الله عن حقيقة العصا، حتى إذا رأى موسى بعد ذلك فيها خوارق، واستبان عندها معجزات، علم أن في ذلك آيات بينات، وحججا صادقات، خصه بها رب السموات، تمييزا لرسالته وتقوية لدعوته.

فكم طابت به للحق نفس بحبل الله تعتصم اعتصاما

أمر موسى أن يلقي عصاه فألقاها، فإذا هي حية تسعى نمت وعظمت حتى غدت في جلادة الثعبان، وضخامة الجان[٤] لمحها موسى فخاف وهرب، فسمع نداء العلي العظيم يقول له: (لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون) حقت، نبوة موسى واطمأنت نفسه لنداء الله الكريم وقرت عينه بنور الحق الواضح، فتوجه ربه بمعجزة أخرى إذ أمره فأدخل يده في جيبه، فإذا هي بيضاء من غير سوء.

كانت هاتان المعجزتان لموسى نبي الله الكريم أمرا له ما بعده جعلها الله تثبيتا لقلبه وتمكينا لرسالته بين فرعون وقومه وتهيئة للمناداة بالحق فرفع صوته عاليا وشهر سيفه قاطعا ، ليمزق به حجب الزيغ والضلال[٥].

موسى الرســـــــول

عاش فرعون وأعوانه في بلاد النيل، يحكمون القبط وبني اسرائيل، ويفسدون في الأرض ظلمًا واستكبارًا، ويتخذون من نفوسهم أربابًا، مصورين من طبيعتهم البشرية الناقصة آلهة يفرضون على السوقة عبادتها من دون الله ثم هم بعد قد أنزلوا الخسف ببني اسرائيل، وساموهم سوء العذاب، وأتعبوهم في العمل، وأطفئوا أمامهم سرج الأمل فكانوا معهم من سقط المتاع .

---

[١] آنست: أبصرت.

[٢] الجذوة: الجمرة الملتهبة.

[٣] تصطلون: تستدفئون.

[٤] الجان: نوع من الحيات.

[٥] اختار الله موسى ليكون معلمًا يعلم الناس الإيمان وحتى يقبل الناس من موسى دعوته ينبغي أن يكون إيمانه يقنيًا ولذلك أراه الله تلك الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته.

وأوغلوا في شهواتهم، وانصرفوا عن نور الايمان، وانحسرت نواظرهم عن سبل الهداية فحادوا عن الطريق المستقيم.

وقوم في الضلالة قد تهاووا أليسوا بالرسالة يرحمونا!

إذن فلتفض رحمة الله ولتتفجر ينابيع عدله وكرمه وليكن ارحم بهؤلاء القساة الجفاة من أنفسهم، فيهيء لهم مدارج النور، ويفسح أمامهم طريق الهداية، وينير مفاوز[1] الظلمات .

نادى الله موسى: أن لديك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه، ويعزز الله بهما كلمتك، ويعلي حجتك، فاذهب إلى هؤلاء حتى تخرجهم من الظلمات الى النور، وترفع علما يخفق في بلاد النيل، فينبلج نور الرشاد ويتوارى غلس الضلال.

سمع موسى دعوة الله وتهيأ لتلبية النداء الكريم وهو وإن يكن ربط الله بالايمان قلبه ووثق بالبراهين دعوته. فأراه حجتين بهما يتقوى ويشتد ويساجل ويناضل ويعزز كلمة الله أمام فرعون وقومه - إن يكن له كل ذلك فإن لدى موسى ثأرا قديما لفرعون فهم يطلبونه منذ أمد. وهو قد أمعن في الهرب وفارق الأهل والوطن، لفرعون إنجاء لنفسه . وطلبا للسلامة من أقرب الأبواب وهو كذلك وان جاشت في نفسه نزعة الحنين الى الوطن واختلجت في فؤاده عوامل الشوق والشجن[2] لا يزال يجد أمام الأمل سدة[3] فيغض الطرف عن هذا المطلب البعيد المنال أما وقد دعاه الله وهيأه لرسالته، فقد آن له أن يتقدم حيث أحجم وأن تنبعث آماله حرة طليقة بعد أن حبسها وحال دونها الخوف والحرمان.

فاضت الضراعة من قلب موسى الى ربه فقال: (رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلونِ) قال قولته ليطمئن وليشرف قدرُه، ويعظم جاهه ، فينفحه ربه بقول كريم ينير في قلبه مصابيح الرجاء ويفسح أمامه أمامه مسالك الأمل ويثلج خاطره ويهديء روعه ويؤمن نفسه.

أُمر موسى أن يذهب الى فرعون، فتهيب الموقف، واستعظم الأمر وهو الذي لا يكاد يبين هن آيات الهدى، ودلائل الحق، لانها فياضة زاخرة، تمتليء بها مشاعره، وتجيش بها خواطره، وتملك عليه عقله وقلبه، وهو لا يملك أن يكون قوي التعبير. رصيص الحجة .مفوه المنطق. سري البيان. لانه شأنه خطير، وأمره أمر كبير فدعا ربه فقال: (رب اشرح لي صدري) حتى ينفسح لتحمل أعباء هذا الامر العظيم، (ويسر لي أمري) برفع الموانع والصعاب، (واحلل عقدة من لساني) أكن ناصع البيان، سديد البرهان، حتى ينفذ بلاغي الى نفوسهم، ويتسرب الى قلوبهم، واجعل لي شريكا ووزيرًا من أهلي، هو هارون أخي، أشدد به أزري، وأشركه في أمري.

أجاب الله نبيه الكريم تدعيما للدعو وتكريما لرسوله، وتنبيها لشأن الحق، فألهم هارون - وقد كان بمصر - أن يذهب الى حيث يقيم موسى أخوه، ليشركه في أمره، ويحمل معه أعباء هذا الامر الخطير، فلبى هارون داعي الحق، وسار فقابل أخاه بجانب الطور الأيمن.

إذن فقد اطمأن موسى وتقوى ظهره وآتاه الله سُؤله أوحى الله الى موسى وأخيه: أن اذهبا الى فرعون، فقولا له قولا لينا أرفق بنفسه، وآلف لقلبه، عسى أن تلين قسوته، وتخضع سطوته، فلا

---

[1] المفازة: الموضع المهلك.

[2] الوليد: الصبي المولود.

[3] دفع وأبطل.

تحمله حماقته على أن يسطو عليكما، ولتسدا أمامه منافذ التمحل والاعتذار، وعسى أن تكون دعوتكما لينة رقيقة، فلا تفجعه في سلطته ولا تصدمه في عزته

ومن أولى من رب السماء والأرض بأن يعلم الأدب، ورقة العبارة وسمو الحس وحسن المعاملة! ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا!

اليست لفرعون على موسى حقوق التربية فمن حقه عليه ملاينة في القول ورقة الأسلوب.

قال الله: يا موسى إذهب أنت وأخوك بآياتي الى فرعون وقومه، وتدرجا معه في الدعوة، فقولا : إنا رسولا ربك، وادعواه ليخلص بني اسرائيل مما هم فيه من ظلم وإيلام

ذهب موسى وأخوه الى مصر فأتيا فرعون، فاستهان بهما، واستنكر خطبهما، فقال: حتى انت يا موسى، (ألم نربك فينا وليدًا ولبثت فينا من عمرك سنين) فقال موسى: أتّمُنُّ بتربيتي لديك وليدا فتحسبها نعمة اليس منشؤها ظلمك واستعبادك لبني اسرائيل ؟

فانطلق فرعون قائلاً: وكذلك فعلت فعلتك التي فعلت وانت من الجاحدين بنعمتنا ودحض موسى حجته، ورد دعوته، فقال بل فعلتُها إذًا وانا من الضالين. ولما خفت بطشكم فررت منكم، فأصابتني نعمة الله ورحمته، فوهب لي علما وحكمة، وجعلني من المرسلين

حينئذ استغلق باب النقاش أمام فرعون، فعمد[1] إلى طريق آخر، واهمًا أن به نصفته وفيه سلامته، فقال : وما رب العالمين؟

فقال موسى: إن أيقنت حقيقة الأشياء وأدركت وجودها وآثارها، فإلهي ربها، رب السماوات والأرض وما بينهما، فتميز فرعون غيظًا، وراح يُثير سخيمة من حوله، ويبعث دهشتهم وعجبهم واستنكارهم، فقال أيها القوم، ألا تسمعون! أسأله عن حقيقة ربه فيذكر لي أفعاله !!

فقال موسى: ربي ربكم ورب آبائكم الأولين (رَبُّ المشرِق والمَغرِبِ وما بَينهُما إن كُنتُم تَعقلون).

فثار فرعون واضطربت نفسه ولج في غضبه، وزاد غيظه، وعجزت حجتُه فلجأ الى حيلة المحنق الموتور، وعمد الى قوته، وقال: (لئن اتخذت إلهًا غيري لأجعلك من المسجونين)

لم يبال موسى، واطمأن لدعوته، وانبعث لسانه بدفء الأمل فقال: (أولو جئتك بشيء مبين)! حجة دامغةَ، ومعجزة[2] قاطعة تُزيل عنك الريب والشكوك! فقال فرعون: إذن فأت بها إن كنت من الصادقين.

معـــــجزات موسى

كان موسى قوي الظهر مسدد الخطى يستمد العون والتوفيق من الله العلي الكبير، وكان السحر فنا ذاع في بني مصر أمره واشتهر شأنه ، فظهر منهم الساحر الذي يخلب العقول . ويسترق

---

[1] عمد إلى الشيء، قصد له.

[2] المعجزة: أمر خاق للعادة يظهره الله على يد مدعي النبوة تأييدًا له وتكون مصحوبة بتحد أن يفعلها إنسان آخر.

الفؤاد، ويلعب بالألباب لعب النكباء[١] بالعود، برعوا في هذا الفن واتقنوه فليس يباريهم سابق ولا يبلغ شأوهم لاحق.

ومن هذه الناحية وحدها شاءت إرادة الله ان يُعْجزَ القوم وأن يقفهم دهشين ذاهلين، إذ تصوب سهامهم الى نحورهم، فلا يستطيعون ردها، ولا هم ينظرون.

تلك حكمة أرادها الله، فأجرى المعجزة على يد نبيه موسى[٢]، تحاكي ذلك النوع الذي برع فيه القوم، حتى يفرغوا كل كنائنهم ويستنفدوا كل جهودهم فإذا عجزوا في محط سبقهم، وغاية براعتهم فهم عن غيره من الاعمال أعجز ، وحينئذ فكلمة الله هي العليا وكلمتهم هي السفلى والله لا يهدي كيد الخائنين.

ألقى موسى عصاه التى أودعها الله القوة الخارقة فإذا هي ثعبان مبين شده فرعون، وتملكه مزيج من الكبرياء والحيرة ، ثم قال : هل من غيرها؟ ظانا بأن ذلك نهاية الشوط وأن موسى لا بد عاجز، ولكن الرسول أدخل يده في جيبه ثم نزعها فإذا شعاع ينبعث منها يكاد سنا[٣] برقه يأخذ بالأبصار، ويذيع وينتشر حتى ليكاد يسد الأفق.

بعد ذلك ضاقت مسالك القوم أمام فرعون وغشيه هم واكتئاب ولج به حرصه على ملكه وجبروته وبهره سلطان المعجزة فأنزله من عليائه وصغر شأنه في عين نفسه فنسى أنه ربُّهم الأعلى وأنه ما عَلِم لهم من إله غيره ثم عَمَد الى التمسح في أذيال قومه ومداهنتهم فأشركهم في الأمر وتبادل معهم المشورة والرأي وتقدم لمؤامرتهم وتنفيرهم من موسى مُلبسًا الباطل ثوب الحق والخديعة والتدليس ثوب الصراحة والحقيقة، فقال: يا قوم هذان ساحران يريدان ان يخرجاكم من أرضكم بسحرهما فما ترون؟ فقال أنصاره وحواشيه: احبسهما وابعث رجالك في المدائن[٤] يأتوك بكل ساحر عليم .

صادف هذا الرأي هوى في نفس فرعون وهو الذي يتعلق بخيوط واهية ويستمسك بالأمل الكاذب ويستند على اوهن أساس لعل فيه الخلاص والنجاة.

فجد في جمع السحرة من كل مكان كل ذلك والهواجس والوساوس تتنازع نفسه، خوفًا على صولته وفرقا[٥] على دولته إذ قال لموسى في نكران ودهش: (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى) ما بال فرعون اضطرب وجزع! وتقطعت نفسه وهلع! اليس هو الإله المتجبر! او ليست له قدرة وكرامة! إنه أمام تلك القوة الخارقة التي أجراها رب الأرباب على يد بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق!

قال فرعون لموسى: (أجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت).

قال موسى: موعدكم يوم العيد، يوم اجتماع الناس وزينتهم، حتى يشيع الحق، وينبلج النهار، جدَ فرعون واجتهد وجمع السحرة وأتى بهم في ذلك الزمان وهذا المكان، تتمشى في نفسه بقية من

---

[١] النكباء: الريح.

[٢] شده: تحير.

[٣] سنا: ضوء.

[٤] المدائن: جمع مدينة، كالمدن.

[٥] فرقًا: خوفًا.

الأمل، ورغبة شديدة مُلحة من الحرص والسطلة، يدفعانه دفعا الى مساجلة موسى والقضاء على دعواه، ولكن هيهات أن يدنس الشمس غبار ثائر أو يحط من قدر العدالة سلطان جائر:

كناطحٍ صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوْهَى قرنَه الوعلُ

تلفت موسى فوجد حشدًا هائلاً من السحرة، فقال لهم: الويل لكم ان افتريتم الكذب على الله، فدعوتم معجزاته سحرا، ولم تصارحوا فرعون بالنور الساطع، والحق القاطع فتظهروا له ما بين سحركم وإعجازي، وتفرقوا بين باطلكم وحقي، من احتال منكم ليبطل حقا، أو يحق باطلا فقد خاب، وباء بالخسران المبين.

كان كلام موسى نداء الحق رن في آذان الساحرين، فأقاقهم من غشية الضلال، وأزال عن أفئدتهم حلك المحال[١] وفتق أغشية قلوبهم لتصيخ لدعوة الحق ولتستبين طريق الرشاد.

ائتمر السحرة بأمر فرعون، لم يتخلف واحد منهم فإذا بهم آلاف، مع كل واحد منهم حبل عصا، مقبلين إقبال رجل واحد، ومشمرين عن سواعدهم، ليكون ذلك أدعى الى تسرب الخوف الى موسى وأخيه .. وبث المهابة في نفوس الرائين.

نادى فرعون في قومه حاثًا لهم على الاسراع والبدار[٢] ليشهدوا ذلك الحفل العظيم ساعة الضحى من يوم الزينة يوم يتبارى القرنان[٣] ويتساجل الخصمان .

جاء الناس مدفوعين بالرجاء في نصرة الساحرين لما رسخ في نفوسهم من الضلالة، وران[٤] على قلوبهم من الجهالة، فسلبهم سلامة التقدير، وصحة التصوير.

أقبل السحرة مدلين بعلمهم مزهوين بغرورهم، وكيفلا يُدلون ويعجبون وهم فوارس الميدان، وجياد الرهان ومناط الامل ومحط الرجاء!

قالوا لفرعون: ألنا أجر إن غلبنا؟ فقال: لكم أجر وقربى! تنعمون في حماي، وتسعدون بجواري، وتتنزلون موارد الرفاهة[٥] والترف والنعيم، لأنكم تشدون أزري، وتقوون ظهري، فاطمأن السحرة لهذا، ودارت برؤوسهم كؤوس الأمل، فأقبلوا مدفوعين، ثم قالوا: يا موسى، إما أن تلقي، وإما أن نكون أول الملقين.

فلم يبال موسى بسحرهم، واستخف بخطبهم، وأذن لهم بأن يلقوا حبالهم وعصيهم، حتى يستنفدوا أقصى وسعهم، ويفرغوا غاية جهدهم، ثم يظهر الله سلطانه، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه[٦].

تقدم السحرة وألقوا ما في أيديهم، فخيل لموسى أنها حيات على الأرض تسعى، ولكنه وهم تسلل الى خلجات نفسه حذرا وخوفا أن يؤخذ الناس بهذا الظاهر المموه، الباطل المشوه، فينصرفوا

---

[١] المحال: الكيد والمكر.

[٢] بدر إلى الشيء: أسرع.

[٣] القرنان: الخصمان.

[٤] ران على قلوبهم: غلب.

[٥] الرفاهة: السعة والرغد.

[٦] يدمغه: يمحومه.

عن دعوته مدبرين ولكن حماة الله ورعاه، فقال : لا تخف إنك أنت الأعلى، ولا تحفل[١] بكثرة هذه الأجرام وعظمها، فإن العويدة التي في يدك أخطر شأنًا وأعظم أثرا، فألقاها فإنها بقدرة الله تبتلع ما افتعلوا وزوروا، وموهوا وضللوا، فما كل ذاك إلا كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى[٢].

هدأت حصاة موسى وألقى عصاه، فإذا هي تلقف[٣] ما يأفكون، وإذا السحرة يلمسون الحقيقة الرائعة، ويتبينون الرشد من الضلال، والحق من المحال، فإذا هم يخرون ساجدين، توبة عما صنعوا، وخشوعا لهيبة الحق وإكبار لذلك الخطير .

غلت مراجل الحقد والحفيظة في صدر فرعون، واحتدم غيظه لتلك المفاجأة الغريبة التي فجأته، مستطيرة الشرر شديدة الضرر على حين كان يرجو من ورائها تقوية لسلطانه، وتدعيما لبهتانه، فإذا هي عاصفة هوجاء تفوق ذلك العرش الذي اسس على الزور والبهتان.

لم يجد فرعون في كنانته إلا أن يشبع نهم غيظه، ويستر مرارة خجله، فقال: أتؤمنون له، وتخضعون لحكمه قبل أن آذن لكم! اليس في ذلك اتفاق مقرر ورأي مدبر؟

حقا إنه لأستاذكم، وكبيركم الذي علمكم السحر، فاتفقتم معه على فعلكم، أما وقد أقدمتم على ذلك، وخرجتم على حدود طاعتي، ونقضتم حبال عهدي فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنكم في جذوع النخل، عقابا لكم، وتمثيلاً بكم لأنكم كفرتم بنعمتي ونقضتم ميثاقي، ولتعرفنكم أيام الزمن قوة بأسي، وشدة عذابي

ولكن قوة الايمان وفيض النبوة ربطا على قلوب هؤلاء المؤمنين، فأزال الله عن قلوبهم غشية الباطل وغمرة البهتان، ودرجوا قدما نحو الصراط المستقيم، فقالوا لفرعون: ليس في سبيلك خير ولا رضاك أجر فلن نختارك على ما جاءنا من نور ساطع وحق قاطع، فأوغل في وعيدك وأكثر من تهديدك، فما أنت إلا غوي مضل مبين، (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما اكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى) [٤].

عنــاد فـــــرعون

شُدِه فرعون لما رأى من سحر موسى كما يسميه وانطلق تتنازعه عاطفتان جامحتان: أقواهما الإبقاء على ملكه، ومجاهدة موسى حتى تنجلي غاشية ظلامه، وتنكشف سحابة غمته، فيستتب لفرعون المصير، وكيف يناضل عُتل[٥] جبار في سبيل هذه العزة الشامخة والثروة العريضة! إنه لمضطر تحت نزعات هذه النفس الكافرة أن يُدافع ويجالد حتى يدحر[٦] ذلك الخارج على سلطانه، أصر فرعون على عناده، وظاهره الملأ من قومه فقالوا

---

[١] حفل بكذا، بالي به.

[٢] السحر قراءات مخصوصة لها تأير على أرواح الآخرين، ويوهم الساحر المشاهد أن الشيء قد تغير ولكنه كما هو.

[٣] لقف الشيء وتلقفه: تناوله بسرعة.

[٤] السحرة هم الخبراء الذين سيبنون بأمر موسى فكانوا من عرفوا الحقيقة وأعلنوها على الناس.

[٥] عتل: شديد الخصومة كثير العناد.

[٦] يدحر: يغلب.

(أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك)! فتغالى في بطشه وعنفوانه، واستطار شروره وبهتانه، فقال: إنا سنقتل أبنائهم ونستحي[1] نساءهم، ثم راح ينزل بهم صنوف الظلم وألوان الأذى، فضجوا لاجئين إلى موسى، ليحيمهم من أذى الكافر الجبار،

وقالوا : يا موسى لقد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا. فسكن الرسول ثورتهم، وهدأ روعهم، ومناهم الخير والنجاة قائلا لهم: (استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين).

قال موسى هذا واستمر في دعوته يمهد لقومه سبيل النجاة، ويتجه الى ربه بقلب ثابت، وإيمان موثق، واطمئنان موفور.

أما فرعون فقد خلص الى ملأ من قومه يأتمرون بموسى ليقتلوه، فذلك أقرب طريق أمامهم، وأدنى السبل لبقاء ملكهم، بعد أن أعيتهم الحيل، وسُدت أمامهم منافذ الخلاص، وبينما هم في أخذ ورد، يقبلون أوجه الرأي، ويجيلون الفكر في الإقدام على جريمة القتل، إذا دفعت المروءة والشجاعة رجلا أنار الله بصيرته، وكشف له سبيل الرشد والإيمان، فدافع عن موسى أشد الدفاع، وناضل عنه وجادل، وبين لهم سوء أمرهم، وعاقبة تدبيرهم، وفند حُججَهم، وزيف ضلالهم، وطفق يضرب المثل، ويتقوى بالحجج.

فقال يا قوم: (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب).

ثم طفق مؤمن آل فرعون يذكرهم ببأس الله وبطشه فقال: (يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ[2] (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ[3] (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ).

ولكن القوم – على الرغم من قوة عارضته – قاوموه وكذبوه ليلجئوه إلى صفهم ورأيهم فقال:

(وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ[4] أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ).

ضاق القوم ذرعًا بهذا الرجل الذي فاجأهم برأيه، وسفه أحلامهم بهديه، فناوأوه وسفهوه وهموا به ليقتلوه، فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق فرعون سوء العذاب.

---

[1] نستحيي: نتركهم أحياء.

[2] الأحزاب: الأمم السابقة.

[3] التناد: القيامة.

[4] لا جرام: حقًا.

استمر موسى في دعوته، لا يثنيه وعيد، ولا يخيفه تهديد، يدعو فرعون إلى الإيمان بربه، والرجعى إلى خالق الأرض والسماوات، وأن يطلق معه بني إسرائيل، ولكن هذا كان شديدا كل الشدة على ذلك الطاغية الجبار، فاشتط في غوايته، وظل في جهالته، وجمع فرعون أشتات الزائغين من قومه الذين ألفوا الذلة، وارتضوا عيش الهوان والاستعباد، - جمعهم يريد أن يبهرهم بالقوة، ويثبتهم على الكفر والمذلة، ونادى في قومه، قال: (يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ).

وهؤلاء هم أذناب شره، وعُمدُ زيغه وظلمه، قد أطاعوه، إنهم كانوا قوما فاسقين .

لم يبق في قوص الصبر منزع، ولا لحجة المبين موقع، بعد أن عتا فرعون عتوا كبيرا، وسد مسالك القول ببهتانه، وأنكر الشمس في وَضَح النهار، بل إنه قد استمر يذيق بني اسرائيل أنواع المذلة وصنوف الهوان، فأمر الله تعالى موسى أن يُعلن فرعون وقومه بأن الله لابد مذيقهم جزاء كفرهم وحبسهم بني اسرائيل.

فأخذهم الله بنقص في الأموال والأنفس والثمرات، فنضب معينُ النيل، وغاض ماؤه، وقل غناؤه، وقَصَّر عن إرواء أرضهم، فنقصت ثمراتهم، وذوي عود خيرهم، ثم أغرقهم الطوفان[١] من مطر السماء، فأضر بالزرع والضرع، ثم زحف عليهم جراد أكل الثمار والأزهار، واستولى عليهم القمل، فأقض مضاجعهم، وأقلق رقادهم، وابتلوا بالضفادع، فنغضت عيشهم، واحتشد جمعها في طعامهم وشرابهم وبين ملابسهم، وسلط عليهم الدم الرعاف من آنافهم، ثم محق الله أموالهم وأهلكها جزاء خطيئاتهم وكفرهم (وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ[٢] قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ).

كشف الله عنهم هذا البلاء، ليمهد لهم سبيل الخلاص من حمأتهم وليقوي بحكمته الحجة والدليل عليهم، ولكنهم نكثوا عهد الله فكانوا من الخائنين.

خروج بني اسرائيل من مصر

أفصح النهارُ لذي عينين، فتبين بنو إسرائيل الغي من الرشاد، وانحازوا لرسول الله الكريم، يلتمسون لديه الرحمة والهداية، وهم الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وسيموا سوء العذاب، فعاشوا عيشة البلاء واصطبروا على اللأواء.

وكيف لا تتفتح بصائرهم ولا تنفجر ينابيع إيمانهم، وقد لمسوا آية الحق ناصعة مشرقة، فقرت بها عيونهم، واطمأنت إلى مهادها جنوبهم، فلم يحفلوا بوعيد فرعون، ولم يأبهوا لزمجرته وتهديده، والتمسوا الفرار من أرض القبط، طلبا للسلامة، وبُعدا عن القوم الظالمين!

سار بهم موسى أول الليل إلى الأرض المقدسة، وقد سهل الله إليها طريقهم فساروا حثيثا، يدفعهم الخوف، ويعصمهم الإيمان، حتى قطعوا رقعة اليابسة المصرية، وإذا بهم أمام بحر لجى يقف سدا منيعا دون غايتهم، وحائلا دون أمنيتهم، فساورهم القلق، واستولى عليهم الجزع، وتوزع نفوسهم الروع والفَزَع، أليسوا هم المطلوبون لفرعون وجنوده؟ وهو الذي يجد في السير ويمعن

---

[١] كانت بيوت بني إسرائيل مشتبكة ببيوت القبط فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم وكان ذلك لمدة سبعة أيام.

[٢] الرجز: العذاب.

في الطلب حتى ليوشك أن يقترب منهم، لأنهم - على زعمه - عبيد آبقون وأتباع مارقون، وكان قد جَيش جيشه وحشد خيله ورجله[١]وسار وراء موسى ومن تبعه حتى صار منهم قاب[٢] قوسين أو أدنى.

هاج بنو إسرائيل وتقطعت نفوسهم همًا وحسرة.. أليس الموت قد كاد يُدركهم، وحبائل فرعون قد اقتربت لتقنصهم! هنا سُمع صوت يجأر كما تنبعث الهَيْعَة[٣] الصاخبة وسط المفازة المترامية، فيه عتب وفيه لوم وفيه استنجاد ، وفيه يأس، وكان صاحب الصوت يوشع بن نون، من قوم موسى.

قال : يا كليم الله أين تدبيرُك؟ ها قد دهمتنا غوائل القدر، فالبحر أمامنا والعدو وراءنا، وليس لنا من الموت محيص ولا مفر، فقال موسى: لقد أمرت بالبحر، ولعلي أُومر الآن بما اصنع، فسرت في نفوس القوم سارية من الأمل، ولكنه لا يلبث أن يمد شعاعه، حتى تطفئه عواصف اليأس والقنوط، ويُشيع في نفوسهم ثورة يحبسها ما تبقى في قلوبهم من رجاء، وما يعللهم به نبيهم من فرج ورخاء، إذن فليستسلموا لقضاء الله، والله لا بد راحمهم وعاصمهم من فتك الظالمين .

أوحى الله إلى موسى: أن اضرب بعصاك البحر[٤]؛فانجابت دياجير الظلام وانحسرت طاغيات اليأس، وإذا اثنا عشر طريقا لأثنى عشر سِبْطا[٥]، لكل سبط طريق، وإذا الشمس والريح يهيئهما الله، فتجف هذه الارض، وتمهد تلك السبل، وإذا القوم يسيرون آمنين في رعاية الله الكبير المتعال، وإذا ربهم يؤمن رسولهم، إذ يقول: (فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى).

انساب الأسباط يُهرعون إلى بر الأمان والسلام، وقد قام الماء على جانبي كل طريق كالطود[٦] العظيم حتى عبروا سالمين

استشرف القوم بعيونهم، فأبصروا فرعون وجنوده يتأهبون ليسلكوا في البحر مسالك بني اسرائيل التي عبروا منها، حتى يلحقوا بهم، فينزلوا بهم أشد العذاب، فغشيهم من اليم ما غشيهم، وعاد القلق والاضطراب، بعد أن ظللتهم سحابة من الأمن، وتملكهم الخوف والإشفاق، خشية أن يمتد إليهم عدوان فرعون، بعد أن يجوز البحر من حيث جاوزه.

اتجهت القلوب، وتطلعت الأنظار نحو موسى حتى يكشف ربه عنهم هذا البلاء المحدق، الذي يكاد يدهمهم من حيث لا يشعرون، حينئذ هم موسى ليدعو البحر فيرجع الى حاله، حتى يحول بينهم وبين فرعون، وليكون حاجزا يحجز عنهم ذلك البطش الذي يلاحقهم في كل مكان.

---

[١] الرجل: المشاة.

[٢] قاب: قدر.

[٣] الهيعة: صوت مفزع.

[٤] انحسر الماء عن أرض السويس واجتمع سحتلا كالجبال من الماء المتجمد كل فريق يرى إخوانه خلال الماء الشفاف المتجمد حتى وصلوا سيناء.

[٥] السبط: الفريق من اليهود.

[٦] الطود: الجبل.

لم يكد عزم موسى يختلج في فؤاده حتى أوحى الله إليه: أن اترك البحر ساكنا على حاله، فلا تضربه بعصاك لئلا يتغير منه شيء؛ لأن الله يريد أن يجعل البحر حائلاً بينك وبينهم، فيرجعوا إلى ديارهم سالمين، بل سبقت كلمة الله في هؤلاء أنهم جندج مغرغقون.

تلفت فرعون وجنوده، فإذا سبُل البحر ممهدة أمامهم فيها يسيرون ومنها إلى بني اسرائيل يصلون فانتفخت أوداجهم وأعماهم غرورهم، وتاهوا في ضلال الصلف[١] والإعجاب،

فقال فرعون لجنوده: انظروا الى البحر كيف انفلق طوعا لأمري وانصياعا لإرادتي، حتى أدرك هؤلاء الخارجين.

وكأنها كانت معجزة لفرعون في نظر أصحابه الضالين فتقووا بقوته واطمأنوا لنصرته، ثم اندفعوا الى مسالك البحر، وقد لجت بهم العجلة طلبا لبني اسرائيل، ولم يكادوا يصلون الى عرضه[٢] حتى انطبق عليهم فأغرقهم أجمعين، فصاروا مثلا للآخرين.

نسى فرعون علياءه ومجده وأدرك الحقيقة التي طالما خفيت عليه، وأبصر فإذا هو عبد كليل الرأي، حقير الشأن، لا حول ولا قوة فانجابت عنه تلك السحابة القاتمة المظلمة، وتسرب إلى قلبه شعاع من الحق المبين.

وقد بهرت فما تخفى على أحد إلا على أحد لا يعرف القمرا

وفي هذا الوقت العصيب آمن فرعون فقال: (آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ).

لم يقبل الله محال[٣] هذا الطاغية الجبار الذي أهلك الحرث والنسل، بل جازاه على شر أعماله وبئس المصير.

انطبق البحر، فُسمع صوت انطباقه صاخبا شديدا، فسأل بنو اسرائيل موسى: ما هذه الضوضاء؟ فقال لهم: إن الله قد أهلك فرعون ومن معه مغرقين فعاودتهم غريزة تأصلت في نفوسهم، وباطل تمكن من قلوبهم، ووَهمٌ تسلط على عقولهم فقالوا لموسى: إن فرعون لا يموت ألم ترى كيف كان يلبث كذا من الأيام وكذا من الشهور لايحتاج إلى شيء مما يحتاج إليه بنو الإنسان!

قالوا هذا، ويغشى على أفئدتهم وهم باطل، ولكن فليختلقوا القدرة والحول والإمكان والطول لفرعون وليُمعنوا في دعاويهم الزائفة الكاسدة فهذه قدرة الله وذلك حول الله، أمر الله فألقى البحر جثة فرعون على ساحله حتى لا يكون فر مواراة البحر إياها سبيل من سبل التقول لفرعون، فربما قالوا : أنه يعيش في عالم آخر . وربما افتروا وربما كذبوا، إذن فليخرس الله ألسنتهم وليكتم أنفاسهم، ولينبذ البحر هذا الجسد المحطم وذلك السلطان المهدم.

****

---

[١] الصلف: التكبر.

[٢] عرض البحر: وسطه ومعظه.

[٣] محال: كيد ومكر.

نظر بنو اسرائيل دهشين ذاهلين مصرع هؤلاء الجبابرة العاتين، إذ أغرق الله فرعون وجنوده ، ونجى فرعون ببدنه ، ليكون آية لمن خلفه آية ناطقة على تلك القدرة المعجزة ، وذلك الإنعام الذي تفضل به رب العالمين.

مواعـــــــدة موســـــــى(*)

استقرت عصا التسيار(١) بموسى ومن معه، فأقاموا حيث واتاه المقام، ومن ثم احتاجوا إلى منهاج يسيرون عليه، وشرع يركنون إليه، فسأل موسى ربه كتابا به يهتدون، وإلى حكمه يرجعون فيه من الأمر ما يأتون، ومن النهي ما يذرون، حت لا تتردى بهم أيام الزمان، ولا يخطبوا في أمور المعاش والمعاد خبط عشواء .

أمر الله موسى أن يتطهر، وأن يصوم ثلاثين يومًا، ثم يأتي الى طور سيناء حتى يكلمه ربه ، فيتلقى أمره في كتاب يكون لهم المرجع والمآب .

اختار موسى من قومه سبعين رجلاً ثم ذهب لميقات(٢) ربه ولكنه تعجل فسبقهم الى الطور، فوصل بعد ثلاثين ليلة، وقد تأخر عنه المختارون من قومه، حينئذ سُئل عن الأمر الذي بعثه على الإسراع والعجلة، فقال: هم أولاء على أثري، وعجلت اليك رب لترضى . فأمِرَ أن يتم ميقات ربه أربعين ليلة.

وكان موسى قد ترك قومه واستخلف عليهم أخاه هارون وزيرًا، يقوم على شؤونهم، ويصلح أمورهم، ويرعى أحوالهم، حتى يعود إليهم يحمل الأمانة الغالية، ويسعد بذلك الشرف الموعود.

سار موسى إلى طور سيناء فكلمه ربُّه وناجاه، وقربه وأدناه، حتى سرت في نفسه روعة وهزة ، أججت في فؤاده نار الشوق ، والهبت أوار(٣) الهيام واللهفة، فقال : رب أرني أنظر إليك ، ولم لا يختلج في فؤاد موسى خاطر يدفعه إلى أن يطلب رؤية ربه ، وقد نعم بتلقي رسالته ، وسعد بالقرب من رعايته ، ونال ما لم ينله قبله أحد من العالمين ، أليس المأرب شريفا ، والقصد كريما!

وموسى نفسه هو الرسول الذي طالبه قومه، فقالوا : أرنا الله جهرة، فلماذا لا يسأل ربه ذلك ليرى بنفسه أمر الله في ذلك المطلب المرغوب، وليكون حكم الله حجة قاطعة لهؤلاء الراجين الملحفين(٤).

قال ربه: لن تراني ولكن انظر الى الجبل، فإن استقر مكانه فسوف تراني، تلفت موسى فإذا الجبل قد دُك، وغار في الأرض وساخ، فارتاع لهول ذلك الخطب الجلل والأمر العظيم، فخر صعيقا فلطف الله به وشمله برحمته، فأفاق من صعقته، وقام يسبح الله الكبير المتعال.

أخذ موسى الألواح، وفيها ما يحتاج إليه بنو إسرائيل، موعظة وتفصيلا لكل شيء،

(*) انظر حديث الصون في سنن النسائي.

(١) التسيار: المبالغة في السير.

(٢) الميقات: الوقت المضروب للفعل، والميقات أيضًا: الموضع.

(٣) الأوار: الحرقة.

(٤) الملحفين: المتشككين.

فقال: يا رب لقد أكرمتني بكرامة لم تكرم بها أحداً قبلي، فقال يا موسى: إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين.

وانتظر بنو إسرائيل أن يوافيهم موسى بعد ثلاثين يوما من بدء غيبته، ولكنه - على غير علم منه - طال غيابُه حتى صار أربعين يومًا ، فأجالوا الرأي بينهم وقالوا: إن موسى أخلفنا وعده، وتركنا في جهل مقيم وليل بهيم[1]، وما أجدرنا بمن ينير لنا المسالك، ويرشدنا الى سواء السبيل!

عندئذ تحركت في نفس السامري نزوة الشر والفساد، فاغتنمها فُرصة، وقال لهم: عليكم أن تتخذوا لكم إلهًا، فليس موسى براجع إليكم؛ لأنه خرج ينشد إلهكم فضل الطريق، فأبطأ عليكم وأخلف الميعاد.

قال الشطيان قوله هذا بعد أن استشف ما في نفوس القوم من خور وانحلال؛ أليسوا هم الذين مالت نفوسهم إلى الكفر، وقد مروا على قوم يعكفون على اصنام لهم، فقالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة.

اغتنم السامري هذه الجهالة الجهلاء، وتلك الضلالة العمياء، وأخذ حُلِيًا ثم احتفر حفرة ، وقذفها فيها، ثم أوقد نارًا، وصنع منها عجلاً جسدًا له خوار، فأصبح فتنة بين القوم، ميزت فيها الغث من السمين[2].

فُتن بنو إسرائيل بهذا العجل وعبدوه فتقطعت نفس هارون أسى وحزنا وقال لهم: (يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى).

فأقام هارون مع البقية الثابتين على وفائهم، المتمسكين بإيمانهم، وخشي أن يحارب الضالين الخارجين، حذرا من التحزب، وخوفا من الفتنة والثورة.

استشعر موسى من ربه هذا الأمر، إذ قال له: يا موسى إنا فتنا قومك مع بعدك وأضلهم السامري. فلما أتم ميقات ربه، وسار نحو قومه وسمع على بُعد لغطًا وضجيجا ، أدرك سر الأمر ، وحقيقة الحال ، حيث هم حول العجل يرقصون ويربطون، فتملكه نوبة من الغيظ والثورة، فألقى ما بيده من الألواح ثم دلف نحو هارون، وأخذ برأسه يجره إليه قائلاً:

ما منعك إذ رايتهم ضلوا ألا تتبع طريقي فيهم، فترد شاردهم وتحارب مفسدهم، حتى تنطفئ هذه النار المتأججة بالبغي والكفران.

فتساقطت نفس هارون همًا وحسرة وأقبل على أخيه يستلينه ويسترحمه، ويهدئ حدة نفسه وثورة غضبه، وقال: (ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) لقد خشيت أيها الأخ الكريم إن حاربتهم أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي!

بعد ذلك سكت عن موسى الغضب وأخذ يعالج حالهم بحسن الرأي والحزم، فالتفت إلى منبع الفتنة، ورأس البدعة، وداعية الضلالة، وقال: (ما خطبك ايها السامري)؟ فقال السامري: (بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي).

---

[1] بهيم: شديد الظلام.

[2] الغث: الهزول.

ثم أقبل موسى على قومه، فقال: (يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا[١] وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ) فصورها لنا السامري، وأخرج لنا عجلا جسدا له خوار ، فأضلنا عن الطريق المستقيم.

ثم ندموا على سقطتهم، واستغفروا ربهم، فقالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين فقال لهم موسى: إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل، قالوا : فاي شيء نصنع؟

فقال لهم: توبوا الى بارئكم ، فسألوه أن يبين لكم طريق التوبة وسبيل المغفرة.

فقال موسى: عليكم بقتل أنفسكم، اكسروا حدتها، واكبتوا شهوتها، وطهورها من الشر والإثم، وجردوها من كل مشتهي مرغوب، وأقصرها عن كل مرجو مطلوب، حتى يصغر شأن النفس الآثمة، ويهون خطبها، ويحقر أمرها فروضوا أرواحهم وهذبوا نفوسهم، وأقبلوا على نبيهم فتاب الله عليهم إنه هو التواب الرحيم.

أما السامري الذي أشاع تلك الضلالة المنكرة، فإن الله عاقبه في دنياه بأن أمر بني أسرائيل إلا يخالطوه ولا يقربوه فصار وحشيًا، لا يألفُ ولا يُؤلفُ، ولا يدنوا من الناس، ولا يمس أحدا منهم، وان له موعدا لن لن يخلفه يوم القيامة، يوم يساق إلى النار آثمًا، ليعذب لما جنته يداه وبئس مصير الظالمين.

وأما عجله فقد أحرقه موسى وألقاه في اليمَّ، وبذلك انجطابت غيابة هذه الجريمة الشنعاء.

التيه

يكن على عهد بني اسرائيل قومٌ حباهم الله الخير، وأفاض عليهم النعمة، وآثرهم بالبركات مثل هؤلاء الأقوام، فقد نجاهم الله من آل فرعون بعد أن ساموهم العذاب دهرا! ثم عاد فأهلك فرعون على أيديهم، وبين أسماعهم وأبصارهم، ثم جعلهم بعد ذلك أحراراً، بعد أن كانوا عبيداً أذلاء، وجعل فيهم من الأنبياء يرشدونهم وقد كانوا ضلالاً جهلاء ، وفجر لهم الصخر وأنزل عليهم المن والسلوى، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين.

وإتمامًا لنعمة الله عليهم، ورغبة منه - سبحانه - في الإحسان إليهم، أوحى موسى أن يقودهم إلى الأرض المقدسة من بلاد الشام، وهي الأرض التي وعد الله إبراهيم الخليل أن يجعلها ملكا للصالحين من ذريته والقائمين على شريعته.

ولكن بني إسرائيل كانوا بما تعاور[٢] عليهم من ظلم القبط، وترادف عليهم من جور الحكام قد جدعت أنوفهم، وذلت أخادعهم، وأمكنوا من أيديهم على خنوع وأعطوا المقادة على خضوع ، حتى هان عليهم الهوان، وحُبَب إليهم الضعف والاستسلام.

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجُرح بميت إيـــلام

فلم يكادوا يسمعون كلمة الغزو، أو يكلفون دخول "أريحاء" ليخرجوا منها الحيثيين والكنعانيين، ويتخذوها وطنا كثير الخيرات، وافر البركات، حتى قالوا لموسى: جبناً وضعفاً ، واستخذاء

---

[١] ملكنا: اختيارنا.

[٢] تعاور: تتابع.

واستسلاماً -: (إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ).

وكأنهم طمعوا أن يخرج القوم منها بما ألفوا من المعجزات، وخوارق العادات، ثم يدخلوا موفورين لم يكلم أحد منهم في سبيل الله بكلم [1]، ولم يُصَب بجرح، شأن الضعيف العاجز والخائر الجبان!

ولكن رجلين كانا ممن طبعهم الله على الإيمان، وفطر نفوسهم على الطاعة والإذعان، لم يَحطِبا في حبل أقوامهم[2]، ولم يجريا في الحديث على غرارهم، فتوجها إلى قومهم ناصحين ، وقاما فيهم مرشدين: (ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).

ولكنهم عادوا الى حديث جُبنهم، وإعلان خوفهم، وزادوا على ذلك القحة والتمرد، والغباء والتبلد وقالوا لموسى قولاً يذهب صبر الحليم ويثير وجيع الجرح الأليم قالوا: (يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ).

وعند ذلك تلفت موسى فلم يجد مَنْ يثق بمعونته، ويعتمد على نصرته، إلا أخاه هارون وهما شخصان وحيدان، في أضعف جند، وأنكد أتباع، وأمامهما عدوٌ قوي المراس، كثير الجنود فتوجه إلى الله قائلاً: (رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ).

فأوحى الله إليهك أن دعهم يتيهون في هذه البيداء، يضربون في مجاهلها، ويخبطون في نواحيها أربعين عامًا، حتى يفنى كبراؤهم، ويهلك رؤساؤهم، ويظهر بعدهم جيلٌ عزيز الجطانب منيع الساحة، وحينئذ يعودون إلى الغزو، ويركبون متن القتال.

البقرة[*]

تقدم بالشيخ تتابع الأيام وأحس بدنو الأجل، وكان عبدًا صالحًا لا تفتنه زخارف الحياة عن الثقة والرجاء في الله ولم يُلهه التكاثر في المال والبنين، بل كان لا يملك سوى بقرة يأتي بها الغيضة، ثم يتوجه إلى بارئه بقلب خالص ونفس ثابتة، فيقول: اللهم إني استودعتكها لابني حتى يكبر، وما زال الرجل يترقرق في صدره هذا الأمل القوي بنور الله حتى مات، وبقيت البقرة لليتيم، وهي عرض من العروض لا تغني شيئًا، إلا أن رحمة الله أبقى وأعز.

واستمر اليتيم يرعى البقرة، يحدوه شعاع من الأمل ورثه من الصالحات الباقيات لأبيه.

وكان من وجوه بني إسرائيل شيخ موسر مد الله في أسباب دنياه، وبسط له نعمة الغنى، ورزقه ابنًا وحيدًا تنحدر إليه بعد موت أبيه كل هذه الثروة الواسعة، ولكن بني عمومته نفسوا[3] عليه هذا المال، إذ كانوا لا يجدون من قليل ولا كثير، فتألبوا عليه فقتلوه، ثم طالبوا قومًا آخرين بدمه، فهبت عاصمة هوجاء، وثارت ريح نكباء، فلم يجد القوم ملجأ أمامهم إلا باب موسى عليه السلام يتحاكمون إليه، ويلتمسون عنده إيضاح الخفاء.

---

[1] الكلم: الجرح.

[2] لم يشتركا في رأيهم.

[*] سورة البقرة ٧٧ – ٨٣.

[3] نفس عليه: حسده.

سأل موسى ربه فأمرهم أن يذبحوا بقرة، ويضربوه بلسانها فيحيا، فيخبر بقاتله، فضلت أحكلامهم وعزبت عن عقولهم قوة الله وقدرته وظنوا أن موسى يهزأ بهم، ويسفه أحلامهم فراجعوه، فقال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين.

ولو أنهم ذبحوا أبي بقرة من يوم أن أمرهم رسولهم لكانت كافية، ولكنهم تمادوا في إلحافهم ولجاجهم، فشدد الله عليهم وجعل البقرة مسومة بعلامات خفي عليهما أمرها، فتاهوا في بيدا اللجاج.

ولقد كان هذا أمرًا خارقًا، وحقيقة تقصر عن صدقها عقولهم، فسألوا ضالين: ما هذه البقرة؟ أكما عهدنا هذا الجنس من الحيوان، أم هي خلق آخر تفرد بمزية، واختص بإعجاز؟ فأوضح الله سبيلهم، وبين أنها بقرة لا مسنة ولا فتية، بل هي عوان[١] بين ذلك، فليفعلوا ما يؤمرون.

ولكنهم – وهم من البشر – قالوا: ادعُ لنا ربك يبين لنا ما لونها؟ قال: إنه

يقول: إنها بقرة صفراء فاقعٌ لونها تسر الناظرين، فازدادت حيرتهم، وضلت عقولهم فلم تستطع أن تسمو إلى هذا الإلهام الإلهي العجيب، وكأنهم لم يعوا شيئًا، فكرروا سؤالهم الأول معتذرين بأن البقر تشابه عليهم، وهم يرجون بمشيئة الله الهُدى والرشاد، فأجيبوا بأنها بقر غير معدة لسقي ولا لحرث، لسلمت من العيثوب، لاشية فيها[٢].

فاهتدوا إليها بعد لأي[٣] عند ذلك اليتيم الذي بارك الله في بقرته، فاشتروها منه بمال وافر، فذبحوها بعد حيرة طويلة، وتردد كثير.

موسى والخضر[*]

وقف موسى عليه السلام خطيبًا في بني إسرائيل، ومذكرا لهم بأيام الله بعبارات تثير الأسى وتبعث الشئون[٤]، ففاضت العيون ورقت القلوب.

ولما انتهى من قوله تعالق بأهدابه رجل، وقال: أي رسول الله، هل في الأرض من هو أعلم منك؟ قال: لا، أليس هو كبير أنبياء بني إسرائيل وقاهر فرعون! أو ليس هو صاحب اليد والعصا، وبعصاه انفلق البحر! أليس الله قد شرفه بالتوراة، وكلمه جهرة وعيانًا، فأي غاية أبعد من هذه الغاية، وأي شرف أسمى من هذا الشرف!

ولكن الله أوحى إليه أن العلم أعظم من أن يحويه رجل، أو ينفرد به رسول، وأن في الأرض من خصه الله بعلم أوفر من علمه، ونصيب من الإلهام أوفر من نصيبه، قال: يا رب، أين مكانه لعلي ألقاه، فأصيب قبسًا من علمه أو فيضًا من إلهامه ويقينه؟ قال: تلقاه بمجمع البحرين قال: اجعل لي علمًا[٥]؛ يدلني عليه، وآية ترشدني إليه، قال: آية ذلك أن تأخذ حوتًا في مكتل[١]، فحيث فقدت الحوت فقد وجدت الرجل.

---

[١] عوان: وبسط.

[٢] لاشية فيها: خالصة الصفرة.

[٣] لأي: مشقة.

[*] سورة الكهف ٦٠ – ٨٢.

[٤] الشئون: الدموع.

[٥] علمًا: علامة.

فأخذ موسى للأمر عُدته، واصطحب فتاه، وحمل المكتل، ووضع الحوت فيه كما أوحى إليه ربه، وظل سائرًا وقبلته الرجل، وأخذ على نفسه عهدًا أنه سيظل مجدًّا في السير ممعنًا في الطلب، حتى يبلغ هذا المكان، ولو مضت عليه الأيام، أو تعاقبت السنون، ثم آذن الفتى بأن يخبره إذا فقد الحوت.

ولما بلغا مجمع البحرين، في المكان الذي أراد الله أن يلتقي فيه نبي بني إسرائيل بعبده الصالح، أخذت موسى سنه فنام وفى أثناء نومه هضبت السماء (٢) فأبتل الحوت و انتفض وسرت إليه الحياة ثم قفز إلى الماء واستيقظ موسى – عليه السلام - ونادى فتاه هيا نواصل السير والسرى(٣) وأنسى الشيطان الفتى ما كان من أمر الحوت وتابعا المسير إلى أن أدركاهما الأين(٤) وأحسا بالجوع فقال لفتاه آتنا غدائنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا

ولما هم ان يأخذ الغذاء من المكتل تذكر ما كان من أمر الحوت وذهابه فى الماء فقال أرأيت إذا أوينا إلى الصخرة وحين غشاك النعاس فإن الحوت قد اتخذ سبيله إلى الماء ونسيت أن أذكرك به وما أنساني إلا الشيطان .

ولما وصلا الى حيث فقد الحوت وجدا رجلا نحيل الجسم غائر العينين عليه دلائل النبوة وفى وجهه فيض من السماحة والتقوى قد سجى بثوبه وجعل طرفه تحت رجليه وطرفه الآخر تحت رأسه فسلم عليه موسى مكشف عن وجهه وقال هل بأرضي من سلام من أنت قال أنا موسى نبى بنى إسرائيل قال نعم ومن أعلمك بهذا؟ قال الذى بعثك إلى فعلم موسى أنه ضالته التي ينشدها وبغيته التي جهد في سبيلها فتلطف في القول وتجمل بأحسن ما وهبه الله من أدب الحديث، وفضل التواقع، وقال هل تأذن لى أيها العبد الصالح لرجل جاهد فى سبيل لقاءك، ولقي العناء حتى أصاب موضعك أن تفيض عليه من علمك وان تقبسه شيء من هديك، على أن أتبعك وأسير في ظلك، وألتزم أمرك ونهيك!

قال له الخضر: إنك لن تستطيع معي صبرا ولو انك صحبتني فانك سترى ظواهر عجيبة وأمورا غريبه وسترى أمورا منكره فى ظاهرها وان كانت حقا فى باطنها لكنك بما ركب الله في البشر من إلف القيل والقال والجنوح إلى البحث والجدال، سوف لا تسكت عن الاعتراض ولا تتورع عن الامتعاض، وكيف تصبر على ما يخرج من مألفوك ويتجاوز معروفك فقال له موسى وكان حريصًا على ما يخرج من مألفوك، ويتجاوز معروفك، فقال له موسى (ستجدني إن شاء الله صابراً لا أعصى لك أمراً) (٥).

قال الخضر إن صحبتني آخذ عليك عهداً وشرطًا، أن تأخذ عدتك من الصبر ومن الحزم ونصيبك من الجلد وضبط النفس فلا تبتدرني بسؤالك ولا تثر أمامي أى اعتراض حتى ينقضي الشرط وتنتهي الرحلة واني بعدها آتى على ما بنفسك و أشفى ما بصدرك.

---

(١) مكتل: ما يعرف بـ (المقطف).

(٢) هضبت السماء: أمطرت.

(٣) السري: السير ليلاً.

(٤) الأين: التعب.

(٥) قال الخضر لموسى أما يكفيك أن التوراة بين يديك إن لي علمًا لا ينبغي لك أن تعلمه وأن لك علمًا لا ينبغي أن أعلمه، ثم نظر إلى طائر أخذ من ماء البحر فقال والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ الطائر بمنقاره من البحر.

فقبل موسى الشرط وقيد نفسه بذلك العهد، وساروا على الساحل حتى لمحا سفينة فى البحر فطلبا من أهلها حملهما إلى حيث يذهبون ولما قرءوا السماحة فى وجهيهما ورأوا بريق النبوة يلمع فى عيونهما حملوهم من غير نول(١)، وبالغوا في إكرامهما والحكفاوة بهما.

وبينما هم فى السفينة وعلى حين غفلة من أهلها أخذ الخضر لوحين من خشب السفينة فخلعهما فهال موسى – وهو الرسول الكريم الذي أرسل لهداية الناس ورد عادية الظلم عنهم – أن يقابل صنيعهم بالإساءة، وجميلهم بالنكران وخشي أن يصيبهم غرق أو هلاك فنسي عهده وشرطه وصاح: أتعمد إلى قوم أكرموا وفادتنا وأحسنوا لقائنا فتخرق سفينتهم وتحاول إغراقهم (لقد جئت شيئا إمرا) (٢) فالتفت الخضر إليه وما زاد على ان ذكره بشرطه وقال (الم أقل لك انك لن تسطِعَ معي صبرا) وحينئذ أدرك موسى ما وقع فيه من خطأ وما تورط فيه من نسيان، فاعتذر إليه واستغفره من نسيانه، وقال: لا تؤاخذني بما نسيت و لا تحرمني شرف الصحبة وغادرا السفينة وفضل المرافقة وسأكون بعد الآن كما شرطت.

وغادر السفينة، وتاعبا السير فوجدا غلامًا وضيئًا يبلعب مع لداته(٣)، وأقرانه، فأخذه الخضر بعيدا ضم أضجعه وقتله ففزغ موسى من هذا القتل وكبر عنده ذلك الإثم، إذ رأى غلامًا يافعًا، قد يكون وحيد أهله ورجاء والديه، يقتل في غير قود(٤)، ويسفك دمه من غير إثم، على يد رباني كريم، وإمام من أئمة الدين! فتحلل من عهده، وأطلق نفسه من ميثاقه، وقال: ما هذا المنكر الذي تأتيه والإثم الذي ترتكبه! (أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئًا نُكرا(٥))

فالت إليه الخضر، ولم يرد على أن ذكره بعهده، وما كان من شرطه، وما قدره مما سيكون من سؤاله عما لا يعرف، وامتعاضه مما لا يألف، قائلاً: (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا).

وهنا استحيا موسى، وأدرك أنه قد اثقل على هذا العبد الصالح، وكمان خليقًا به أن يدرع بالصبر، ويمسك لسانه عن الجدل، حتى يُفصح له بعدُ عمات خفي من أمره وما تشابه عليه من علمه، وخشي إن تمادى أن يقع منه على موجدة أو كراهية، فاتخذ لنفسه شرطًا ألا يعجل بسؤال بعد الآن، وإلا فإن رفيقه في حل من مفارقته، وقطع صحبته، وقال: (إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرًا).

وانطلقا على هذا الشرط حكتى أدركهما الطوى، ونال منهما النصبُ والكلال، وصادفا قرية في طريقهما، فدخلا طمعًا في زاد يعينهما على السير، ويُمسكهما على الجوع، ولكن أهلها – بما كانوا عليه من لؤم النحيزة[٦] وكزازة النفس – أبوا أن يضيفوهما، وردوهما ردًا غير جميل، فلم فلم يجدا عندهم مأوى ولا طعامًا وخرجا جائعين ساخطين.

---

[١] نوله: أجرة.

[٢] شيئًا إمرا: عظيمًا.

[٣] اللد والقرين: بمعنى واحد.

[٤] قود: ثأر.

[٥] النكر: المنكر.

[٦] النحيزة: الأصل.

وقبل أن يجاوز القرية وجدا جدارًا يتداعى للسقوط، فأقامه الخضر، وأصلح من شأنه فقال موسى: عجبًا، أتجازي هؤلاء القوم اللؤماء الذين أساءوا اللقاء، بهذا الإحسان! لو شئت لاتخذت على عملك هذا أجرًا نسدُّ به حاجتنا ونحفظ به على الحياة أنفسنا!

قال الخضر – وقد آمن بأن موسى سوف لا يستطيع بعد الآن صبرًا: (هذا فراق بيني وبين سأنبئك بِتَأويل ما لم تَستطِع عَليه صبرًا).

أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر، فيصيبون منها رزقًا، يعينهم على الكسب، ويقطعون به مفازة الحياة، ولكن مَلِكًا ظالمًا كان يتبع كل سفينة صالحة، يأخذها من أهلها عنوة، ويستولي عليها غصبًا، فأردتُ أن أعيبَها، رفقًا بهم ورحمة لهم، حتى إذا شهدها ملكهم تركها لعيبها، فهذا عمل إن كان ظاهره الفسادُ ففي باطنه الرحمة، وإن كنت قد حسبته نكرًا، فإنمات هو حفظ للمساكين وإبقاء على حياة هؤلاء البائسين.

وأما الغلام فكان وقاحا مبغضا من الناس، وكان أبواه مؤمنين، وبما فكر الله الآباء على حب الأبناء، والدفاع عنهم بالحق وبالباطل، خشيت أن يحملهما هذا على التعصب له والميل إلى طريقته، فينتهيا إلى الطغيان والكفر، فقتلته حفظا لدينهما، ورجاء من الله أن يرزقهما خيرأ منه زكاة وأقرب رحمًا.

وأما الجدار فقد علمتُ من الله أن تحته كنزا ليتيمين صغيرين، تحدرا من رجل صالح كريم، فأردت أن أحمي هذا الجدار، حتى يشتد أزرهما، ويقوي على الحياة أمرهما، فيستخرجا كنزهما مالا حلالا طيبا لهما[1].

قارون[*]

كان من قوم موسى وعشريته الأقربين، يمت إليه بسبب[2]، وتصل بينهم رحم، وقد آتاه الله بسطة في العيش، وسعة في الرزق، وكثرة في الأموال، فاجتمعت له اسباب السعادة، وفاز من الدنيا بنصيب لا يظفر به إلا قليل.

وكان قارون ذا حظ عظيم، فقد فاضت خزانته بالأموال، واكتظت صناديقه بها، ضاق الحفظة درعا بمفاتيحها، وأثقلهم حملها، وناء العصبة أولو القوة بها.

وكان يعيش بين قومه عيشة البذخ والترف، فكان يلبسُ الملابس الفاخرة، ولا يخرج على قومه إلا في زينته، ويسكن القصور، ويصطفى لنفسه الخدم، ويستكثر من العبيد والحشم، ويستمتع من الحياة بما يشبع نهمه، ويروي ظمأه ويريد أن يصل إلى الغاية في النعيم، إن كانت للنعيم غاية.

والمال منذ الأزل زينة الدنيا وبهجتها، وأساسُ الحياة وقوامها، ومن استحوذ عليه طغى وتكبر، واغتر وتجبر، وظن أن أحدًا لن يقدر عليه، وخيل إليه أن الناس جميعًا من طينة غير طينته، أو أنهم ما خلقوا إلا مسخرين له، فإذا تكلم طأطئوا رؤوسهم عند سماع صوته، وإذا أشار كانوا عند إشارته، وإذا نادى استبقوا لتلبية ندائه، وكانوا خلصاء له، أو يجب أن يكونوا كذلك، وإلا فالويل لمن تحدثه نفسه بالعصيان، والحرمان لمن يعقد عن نصرته أو يتوانى عن تحقيق أمانيه.

---

[1] تسطع: تستطع.

[*] القصص ٧٦ – ٨٣.

[2] سبب: قرابة.

ولن يكون قارون بدعًا في الحياة وإنما هو كغيره من الناس يسير سيرتهم ويترسم طريقهم، فبغى على قومه وفرض سلطانه عليهم، وسامهم بطشه وجبروته.

وليست هؤلاء الأغنياء يخففون من غلوائهم، ويعرفون الحياة على وجهها الصحيح، ويتبينون منها الطريق الواضح، إذًا لعرفوا أن المال وحده لا يخضع الرقاب ولا يستذل العباد، وإنما الناس عبيد الإحسان، يستطيعون أن يجعلوهم طوع بنانهم، إذا أفاضوا عليهم من خيرهم، وأطعموهم شيئًا من طعامهم.

لعلهم بذلك يستميلون القلوب، ويدفعون كثيرًا من الشر، ويجلبون لأنفسهم الخير، ويجمعون الناس على محبتهم، والالتفات حولهم، ولعلهم بذلك أيضًا يدركون رضا الله، فيكافئهم بثوابه، ويجزيهم بجنته، فينالوا الحسنين: حسن الأحدوثة[1] في الدنيا، وحسن الجزاء في الآخرة.

ولكنها القلوب يُعْميها المال والبصائر يذهبُ بها الزهوُ والغرور فلا ترى إلا جماعات المرائين، ولا تسمعُ إلا كلمات المنافقين، ولا تحس نقمة المحروم، ولا لوعة المظلوم.

ورأى القوم أن قارون سادر[2] في طغيانه وبغيه، لا لهمله إلا أن يستكثر من المال وإن تضور غيره جوعًا، وأن يكتسي من اللباس ما يزين به، وإن رأى العُري فاشيًا. هذا مع غرور واستئثار، وبطر واستكبار، لما رأوا منه ذلك نقموا عليه طريقه، وحاولوا أن يثيروا فيه روح الخير، وأن ينبهوه على ما غاب عنه، ونصحوه ألا يغويه المال أو يضله، أو يحول بينه وبين الإحسان إلى قومه، وإقالة عثرة المحتاجين، ومسح دموع البائسين، فبذلك يكسبُ الحمدَ في الدنيا، وينالُ الثوابَ في الآخرة، وهذا خير من المال وأبقى.

وقالوا: إنا لا نريد أن تنفض يدك من الدنيا وزينتها، وتتجافى عن مباهجها، وتنأى بنفسك عن الاستمتاع بها، فذلك ما لا نريده ونأباه، وإنما نرى لك رأيًا فيه خير لنا ولك، هو أن تقصد إلى الطيب من الرزق، والحلال من المتاع، فارشف من منهله، وخذ فيه كما تشاء.

على ألا يشغلك ذلك عن الفقراء، ولا ينسيك المحتاجين، فأحسن إليهم كما أحسن الله إليك، ليحفظ عليك نعمتك، ويزيد في مالك، ويُضفي عليك خيره وبركته.

على أن المال ظل زائل ووديعة مستردة، فلا تفرح بما أوتيت ولا تغتر به واتخذه وسيلة لقضاء مآربك في الدنيا، وسبيلاً إلى سعادتك في الآخرة وما حملنا على إسداء النصح إليك إلا حبنا لك، ورغبتنا أن يبقى الله فضله سابغًا عليك وخوفنا أن يسلب الله مالك أو يحرمك جنته.

وأنى[3] للطاغية أن تتفتح آذانه للنصيحة تُلْقى إليه! ومن للمستكبر ينال النصح من نفسه ويمس شغاف قلبه!

إن قارون قد اشرب قلبه حب المال، وزاده الغنى عُلوًا واستكبارًا، فليس لمثل هذا لاكلام سبيل إلى نفسه: فمن هؤلاء الذين يشيرون عليه فيأتمر، وتتطاولُ أعناقهم إلى نصحه فينتصح! إنهم لا شك قد استباحوا حماه، ووضعوا أصابعهم فيما لا يعنيهم من أمره، بل أن هذا من أموره الخاصة!

---

[1] الأحدوثة: السيرة.

[2] سادر: متمادي.

[3] أنى: أي كيف.

لذلك كان جافيًا في رده إذ قال: لستُ بحاجة إلى نصحكم، فأنا أرجحكم عقلاً، وأسدكم رأيًا، وما أوتيتُ هذا المال، إلا لأني به أجدر وأحق، فاحتفظوا بهذه النصيحة لأنفسكم، وقوموا بها أموركم، أما أنا فخيرٌ منكم مقامًا وأكثر عرفانًا.

وأراد أن يزيد في إيلامهم، فخرج على قومه في زينته، يدل بما أعطاه الله من خير وفير، ومال كثير.

ورآه المستضعفون من قومه برفيل[١] في الثياب الجميلة، ويركب المراكب المطهمة، وحوله الخدم يحفون به، فأحدقت به العيونُ، واستشرف الناس لرؤيته، وحز في نفوسهم أن يروه في هذا النعيم، وهم في ضنك وبؤس مقيم، وتحدث بعضهم إلى بعض يقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون أنه لذو حظ عظيم!

ولما كانت النصيحة مع مثله لا تجدي، والنسب لا يكفي عنده سببًا لعطف القلوب، ومنظر البؤس لا يستميل النفوس، والفقر لا يستجيب إلى دعائه مجيب، فليسل سيف القانون لينفذ إلى تلك الحجب الكثيفة، فيهتك ظلماتها، ويزيل ما تراكم عليها، فتنبعث للخير، وتميل للإحسان.

ليعلن إليه موسى في شدة وإصرار أن يؤدي زكاة ماله، وأن يحسن إلى الفقراء، ففي ماله حق معلوم للسائل والمحروم.

ولكن قارون قد طبع الله على قلبه، وران عليه شحه، فلم يُصغ إلى دعوة موسى، بل هزئ به وسخر ورماه بالبهتان، ورد حديثه في عنف وسخرية، فقال: قد احتملنا منك ما احتملنا، فقد جئتنا بدين جديد، فجاريناك فيه، وأمرتنا بكذا وكذا فاستمعنا لأمرك، فأطمعك فينا وجزأك علينا، فلم يبق إلا المال تسلبه، والثروة تريد أن تستحوذ عليها! لقد أسلمنا لك القلوب، وأخضعنا لك الرقاب، ولكن هيهات أن نُسلم لك من القلب سويداءه، ومن الطرف سواده! إنك بهذا قد دللت على كذبك، وكشفت ما حاولت ستره من أمرك، إنك لساحر كذاب!

وحاول قارون وجادل، وأصر موسى وقاوم، فهذا أمرُ الله لا يحتمل الجدل ولا المساومة، وخضع قارون بعد لأي[٢] وعلي مضض!

ورجع إلى بيته يحسب ما ينال الفقراء من ماله، فهالهُ ما وجد، وأفزعه ما رأى، فرجع إليه داؤه وتملكه شحه، وأراد أ، يمسك المال حتى لا يرى نفوسًا بائسة يدخل إليها النعيم والسرور! واحتال للأمر فأذاع ذائعة السوء، فقال: إن موسى إنما يلبس ثوب الرياء، ليكون له من ذلك عرض الدنيا وزينة الحياة، ولو فتشنا عن مكنون سره، وما يختلج في ضميره لوجدناه أبعد الناس من الدين وأقصاهم عن الله.

وحاول بالمال أن يفتن الناس[٣] ويصرفهم عن موسى، يزلزل عقيدتهم، ولكن الله كشف ما أضمر وأظهر ما أخفى وخرج موسى من هذه التجربة، أصفى نفسًا وأعلى مقامًا، ولما يئس موسى من صلاحه دعا الله أن ينزل به عذابه، ويخلص الناس من فتنته وإغوائه.

---

[١] يرفل: يتبختر كبرًا.

[٢] لأي: مشقة والمراد أن أبطأ واحتبس.

[٣] تذكر كتب التاريخ والتفسير أنه أغرى امرأة لتنسب إلى موسى الفاحشة، وفعلت ولكنها اعترفت أخيرًا أمام حفل جامع بأن قارون هو الذي دفعها إلى ذلك وأنه برئ مما رمته به.

فاستجاب الله لدعائه وخسف به وبداره الأرض، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين.

وابتلعته الأرض، وساخت فيها أمواله وقصوره، فكان عبرة لقوم موسى والمستضعفين من أتباعه، ولما رأى القوم ما حل بقارون رجعوا إلى أنفسهم نادمين على ما كان منهم، وحمدوا الله على أنهم لم يكونوا مثله، وقالوا: (لولا أن مَنّ الله علينا لخَسفَ بنَا ويك إنه لا يُفْلِحُ الكافرُونَ تلك الدار الآخرة نجعَلُها للذينَ لا يُريدون عُلوًا في الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين).

طالوت [*]

كان التابوتُ[1] نعمة من نعم الله على بني إسرائيل – ونعمه كانت عليهم سابغة وآلاؤه متلاحقة – وكان لهذا التابوت عندهم شأن عجيب، ونبأ طريف، كانوا إذا اشتبكوا مع أعدائهم في قتال، أو التقوا بهم في ساحة نزال، يحملونه بين أيديهم، ويقدمونه في صفوفهم، فينشر في قلوبهم سكينة واطمئنانًا، ويبعُ في أعدائهم هلعًا ورعبًا، لسر عجيب فيه، ومزايا خصه الله بها.

ولكنهم لما انحرفوا عن شريعتهم وغيروا ما بأنفسهم، سلط الله عليهم الفلسطينيين فغلبوهم على أمرهم، وأخرجوهم من ديارهم، وحالوا بينهم وبين أبنائهم، وأخيرًا أخذوا التابوت منهم، فانفصمت عروتهم، وتصدعت وحدتهم، ثم استكانوا إلى ذُل، وأغمضوا جفونهم على هوان.

وظلوا على ذلك حقبة من الدهر، حتى كان نبيهم صمويل، ففزع إليه نفر منهم أرادوا أن يتجافوا بنفوسهم عن مطارح الهوان، وينزعوا بها عن معرة الامتهان، وطلبوا إليه أن يختار لهم ملكًا يتألفون تحت رايته، ويجمعون أمرهم تحت زعامته، لعلهم به يغلبون العدو، ويكتب الله لهم النصر.

فقال لهم – وقد كان سبر أحوالهم، وعجم عيدانهم، وعرف مَوْضع الضعف فيهم: إني أتوقع تخاذلكم إذا كتب عليكم القتال وتواكلكم حينما يدعوكم داعي الجهاد.

قالوا: كيف نتخاذل ونواكل، وقد أخرجنا من ديارنا، وحِيلَ بيننا وبين أبنائنا! وأي حالٍ أسوأ مما نحن فيه! وأي ذل أشد مما ابتلينا به!

قال صمويل: دعوني أستخير الله في أمركم، وأستوحيه في شأنكم.

واستخار الله فيمن يصلح لملكهم، ويقوم على قيادتهم، فأوحى الله إليه: إني قد اخترتُ عليهم طالوت ملكصا، قال صمويل: يا رب، إن طالوت رجل لم أعرفه بعد، ولم أره من قبل، فأوحى إليه: إني مرسله إليك، وسوف لا ترى عسرًا في لقائه، ولا جُهدًا في تعرف ملامحه، فوله الملك وسلمه راية الجهاد.

وكان طاوت رجلاً بادنًا[2] فارعًا[1]، وافي التقطيع[2]، شديد الأسر[3] له عينان يلمح الناظر إليه أن وراءهما قلبًا ذكيًا، وجنانًا فتيًا، ولكنه لم يك رجلاً بعيد الصيت، أو معروف الذكر، كان يقيم مع أبيه في قرية من قرى الوادي، يرعى له الماشية، ويفلح الأرض، ويصلح الزرع.

---

[*] البقرة ٢٤٦ – ٢٥١.

[1] التابوت: الصندوق الذي يحرز فيه المتاع، وكان فيه عصا موسى والألواح وكانوا إذا حملوه سكنت نفوسهم وملئت شجاعة.

[2] البادن: الجسيم.

وفيما هو في شأنه في الحقل مع أبيه، ضلت الأتن[٤]، فخرج مع غلامه ينشدانها في شعاب[٥] الوادي وبين أودية الجبال، وظلا أيامًا يغذان[٦] السيربين غور[٧] الأرض ونجدها، حتى ورمت منهما الأقدام، وأكلها السرى.

فقال طالوت لغلامه: هيا بنا نعود أدراجنا، فأني أحزر[٨] أبي قد كثرت بلابله، وتشعبت هواجسه، وأخشى أن يشتغل بنا عن الأتُن.

قال الغلام: إنا الآن قد وصلنا إلى أرض "صوفِ" موطن صمويل، وهو فيما أعلم نبي يأتيه الوحي، وتهبط عليه الملائكة وهلم إليه نستوضحه شأن الأتُن ولعلنا نستضيء برأيه، أو نهتدي بوحيه، فارتاح طالوت وتجدد عنده الأمل، وشام بارق النجاح.

ولقينا في طريقهما إلى صمويل فتيات خرجن يستقين الماء فطلبا إليهم أن يرشدنهما إلى صمويل نبي الله الكريم، أين يقيم؟ وكيف يلقيانه؟ فقلن لهما: إن الشعب ينتظره فوق هذا الجبل، وهو يوشك الآن أن يجيء، وبينما هما في الحديث معهن إذ طلع عليهما صمويل يفوج منه أرج النبوة وتحدث معارفه[٩] عن نبي كريم ورسول أمين، والتقت عينا طالوت بصمويل، فتعارفت أرواحهما واتصلت نفوسهما، ووقع في قلب صمويل، أن هذا طالوت الذي أوحى الله إليه بتمليكه، وآذنه[١٠] بأنه يحمل أعباء الزعامة والسلطان.

قال طالوت: إنني جئتك يا نبي الله مستوضحًا مسترشدًا، إن لأبي أتنا ضلت في شعاب هذا الوادي، وقد خرجتُ في إثرها مع هذا الغلام نتعرفُ الطريق ونقفو[١١] الأثر، فما ظفرنا بعد ثلاث إلا بالخيبة وما عدنا إلا بكواذب الآمال، وقد جئناك لعل فيضًا من علمك يهدينا إليها، أو يدلنا عليها!

قال صمويل: أما الأتُن فهي في طريقها إلى أبيك، فلا تربط قلبك بها، ولا تعلق حبال ذهنك فيها، ولكنني أدعوك لأمر أجل خطرًا، وأعظم مقدارًا، إن الله قد اختارك على بني إسرائيل ملكًا، تجمع كلمتهم، وتحزم أمورهم، وتخلصهم من أعدائهم، وسيكتب الله لك – إن شاء الله – النصر، ولأعدائك الكبت والخذلان، قال له طالوت، ما أنا والملك والرياسة، والزعامة والسلطان! أنا من أبناء بنيامين أخمل الأسباط ذكرًا، وأقلهم مالاً فكيف أصير إلى الملك، أو أمسك بحبال السلطان!

---

[١] الفارع: الطويل المراقع.

[٢] وافي التقطيع: ضخم القد والقامة.

[٣] شديد الأسر: قوي البنية.

[٤] الأتن: جمع أتانة، وهي الأنثى من الحمير.

[٥] الشعبة: ما انشعب من الوادي وعتدل عنه إلى غيره، وجمعه شعاب.

[٦] يسرعان.

[٧] الغور: ما انخفض من الأرض، والنجد ما ارتفع منها.

[٨] أحرز: أقدر.

[٩] المعارف: ما يظهر من الوجه.

[١٠] آذنه: أعلمه.

[١١] قفا الأثر وقافه: تبعه.

قال صمويل: إن هذه إرادة الله ووحيه، وأمره وكلمته، فاشكر له هذه النعمة، وأجمع رأيك على الجهاد، وأمسك طالوت من يده، ووقف به على القوم يقول: إن الله قد بعث لكم طالوت هذا ملكًا له حق الرياسة والسلطان، وعليكم الطاعة والإذعان، فأجمعوا أموركم، واستعدوا للقاء عدوكم.

ولكن ما أشد ذهولهم، وأظهر وجومهم عندما أخبرهم صمويل أن المُلك فيهم سيصير إلى طالوت، وهو من رأوه خمول ذكر، وقلة مال وسوء حال، ثم نظر بعضهم إلى بعض ولووا أخادعهم[١]، ورموا بأنوفهم، وقالوا: كيف يكونُ له الملكُ علينا، وهو في النسب غير عريق، وفي المحتد[٢] غير كريم! لا هو من أبناء لاوي[٣] فرع النبوة وسرحة[٤] الرسالة، ولا هو من غصن يهوذا معدن الملك وأصحاب الرياسة! ثم كيف تولي علينا رجلاً فقيرًا، فارغ اليد، لا يجد مالاً يدبر به الملك، أو يحفظ به حوزة السلطان وما منا إلا صاحب ثروة وجاه، وذو سطوة ونفوذ!

قال صمويل: إن زعامة الجيش ورياسة الملك لا يحتاجان إلى نسب أو نشب وما يُجدي النسب لقدم[٥] أخرق، لا يُعرف من تصريف الأمور شيئًا! وما غناء المال لمتخلف الذهن، وسقيم الفهم لا يملك في سياسة الجيوش حولاً ولا طولاً! ولكن هذا طالوت، فضله الله عليكم، لما فيه من الكفاية والقدرة، وما رزقه من مواهب الزعامة والرياسة، وأنتم ترونه رجلاً بسط الله جسمه وسوى في خلقه، صلب العضل، متين العصب، عريض الألواح وذلك أجلب للمهابة، وأنسبُ للرياسة، ألا ترون لو أن الله ملك عليكم رجلاً قميئًا[٦] منسرق[٧] القوة، منحل العزيمة فإنه لا بد بد أن تقتحمه عيونكم، وتزدريه جنودكم ثم إن الله رزقه استعدادًا فطريًا، وميلاً للحرب غرزيًا، وأحكم من عقله، وأرهف في ذهنه حول قلب، رحب الذراع، طويل الباع، بصير بالحروب، خبير بمواطن الكفاح.

وفوق ما منحه الله من الصفات المحمودة، فإنه قد اختاره لكم وملكه عليكم وهو أعلم بالمصالح وأعرف بالعواقب! ثم هو – جل شأنه – مالك الملك، يؤتيه من يشاء، ويصرفه عمن يشاء، وما يليق بكم – وقد اختار الله لكم – أن تكون لكم الخيرة من أمركم، أو النفرة من جانبكم.

قالوا: أما إذا قضى الله بشيء أو صدر عنه أمر أو نهي فلا مُعقب لحكمه، ولا معدل عن أمره، ولكن هات لنا آية نعرف بها أمره ونعلم قضاءه.

---

[١] الأخدع: عرق في المحجمين، وهو شعبة من الوريد.

[٢] المحتد: الأصل.

[٣] كان الأنبياء في بني إسرائيل من "لاوي" والملوك من "يهوذا" اختصا بهذا من سائر الأسباط.

[٤] السرحة في الأصل: الشجرة العظيمة.

[٥] القدم: الغي.

[٦] القمئ: الصغير الذليل.

[٧] منسرق القوة: ضعيف.

قال: إن الله قد عَلِمَ لجاجكم وعنادكم، وقيلكم وقالكم، فجعل لكم علامة وآية، أن تخرجوا إلى ظاهر المدينة فتروا التابوت[١] – الذي ذللتم بعد ذهابه، ولقيتم الخسف والهوان بعد ضياعه – قادمًا إليكم، وفيه سكينة لكم تحمله الملائكة، وفي ذلكم آية إن كنتم مؤمنين.

وخرجوا كما واعدهم، فوجدوا التابوت ونزلت عليهم السكينة، وصحت عندهم العلامة، فبايعوا طالوت واقروا له بالملك والسلطان.

واضطلع طالوتُ بالملك، وأحسن قيادة الجنود، وأظهر حزمًا وعزمًا، وفطنة وذكاء قال: يا قوم، لا ينتظمن في جيشي إلا من كان خاليًا من الواجس وفارغًا من الصوارف، فلا يدخل فيه من كان قد شرع في بناء لم يتمه أو خطب عروسًا لم يبن[٢] بها، أو له تجارة وعقله مشغول بها.

وتم له ما أرد، واستوى أمامه جيش متلاحم النسج وقوي القلب وقوي الجناحين، ولكنه أراد أن يتحوط لنفسه، بعدما بدا له منهم الشك في أمره، والجدل حول تمليكه، فأراد أن يختبرهم مخافة أن يخذلوه ساعة اشتباك القنا[٣] وخفق البنود[٤]، أو يفروا حين الزحف وتقابل الأقران، فقال: إنكم ستبلغون نهرًا، فمن كان صابرًا محتسبًا، فلا ينهلُ إلا بمقدار ما يبرد كبده، ويبل ريقه، هذا الذي أحسبه مني، وتسكُن إليه نفسي، أما من نهل وعل[٥] فقد جاوز الأ/ر وركب متن الخلاف[٦].

وكان ما خافه طالوت، قد شربوا منه إلا قليلاً منهم، هم الصابرون المؤمنون، المخلصون المجاهدون، وأصبح الجيش أوزاعًا من ضعفاء العزيمة وخائريها، ومن صادقي التية وكاذبها، ولكنه أدرع بالمخلصين، وصابر المترددين، وخرج بالجمع يلقى العدو، ويجاهد في الله.

ولما خرجوا إلى الساحة واستشرفوا للقتال، لمحوا من أعدائهم رجالاً أشداء، ما فيهم إلا ابن كريهة[٧] وخواض غمرات، يفضلونهم أهبة، ويفوقونهم عدة، وجالوت بهمتهم[٨]، وكبش كتيبتهم[٩] يصول بينهم ويجول.

وانقسم أصحاب طالوت شعبتين: شعبة منهم خار عودهم، وانخلع فؤادهم، وتخاذلت قوتهم، وقالوا: (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) وشعبة منهم ظلت صابرة صامدة، هم الذين عمر قلبهم الإيمان وأشربوا في قلوبهم حب الله، واستعدوا للموت، ولم تزعجهم كثرة أعدائهم، ولم تردعهم قلة عددهم، بل قالوا لطالوت: امض لشأنك، وسر في سبيلك، وإنا إن شاء الله لا نُخذ من

---

[١] التابوت: الصندوق الذي يحرز فيه المتاع، وقيل: لم تختلف لغة قريش والأنصاري في شيء من القرآن إلا في التابوت فلغه قريش بالتاء ولغة الأنصار بالهاء.

[٢] لم يبن بها: لم يدخل بها.

[٣] القنا: الرماح.

[٤] البنود: الأعلام.

[٥] النهل: الشربة الثانية.

[٦] لعل الحكمة في ذلك أنه خشي لو أباح لهم الهجوم على النهر بعد عطش شديد، وقع أكثرهم في النهر وأفراطوا في الشرب فخارت قواهم، وجبنوا على لقاء عدوهم.

[٧] الكريهة: الحرب.

[٨] البهمة: الشجاع الذي يستبهم على أقرانه مأتاه.

[٩] كبش الكتيبة: قائد الجيش.

قلة، ولا نُغلب على أمرنا من ضعف، و(كَمْ مِن فِئَةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين).

وخرجوا وعتادهم[١] الصبر، وزادهم الإيمان وتوجهوا إلى الله، طالبين منه أن يفرغ عليهم صبرًا، ويسبغ عليهم نصرًا، فإنهم ما خرجوا إلا جهادًا في سبيله، وابتغاء لمرضاته.

ولما التقى الجمعان، وحَمَى الوطيس[٢] برز جالوتُ يدعو للمناجزة والمبارزة، فخاف الباقون بطشه، وهابوا صولته ووقفوا حوله بين متقاعس ومحجم، أومنخذل، ومتراجع.

كان يقيم في بيت لحم[٣] رجل تقدمت به السنون، وأحنت صعدته[٤] الأيام، يعيش سعيدًا في نفسه، آمنًا في سربه، وادعًا مع بنيه، ولما دقت الحرب، واستنفر طالوت بني إسرائيل للجهاد، انتخب ذلك الرجل ثلاثة من كبار أبنائه وقال: خذوا عُدتكم، وظاهروا إخوانكم، وأدوا في الجهاد نصيبكم، ثم قال لأصغر أبنائه: أما أنت فنصيبك في الجهاد أن تحمل الطعام لإخوتك، وأن تكون سفيرًا بيني وبينهم، وتُسفر لي صباح كل يوم عن أحوالهم، أما ساحة الحرب فحذار أن تقربها، أو تخوض غِمارها، أو تصلي بنارها، فإنك لست من رجالها ولا فتيانها، ودعها لم زبنها[٥] وزبنته، وعرفها وعرفته، كان ذلك الغلام داود عليه السلام، وكان – مع حداثة سنه، ولدونة عوده – وضيء الطلعة وأبلج الغُرة متسعر الذكاء متوقد ما بين الجوائح. سار مع إخوته وما وصل إلى ساحة القتال حتى وجد رجلاً راعه أنه عملاق طاغية يتحدى، ولكن الأقران تتحاماه، والشجعان تخشاه، فسأل عن هذا الذي يقف متحديه متغطرسًا! وما بال هؤلاء القوم ينكصون ويتراجعون! فقيل له: هذا جالوت رئيس الأعداء وزعيمهم، وما برز إليه شخص إلا رده جريحًا، أو أرداه قتيلاً، والقلوب قد هلعت لهيبته، واضطربت من بأسه وشدته، وقد جعل طالوت جزاء لمن يقتله، ويقي المؤمنين كيده وشره، أن يزوجه إحدى بناته، ويوليه الملك من بعده، فثارت الحفيظة في نفس داود، وهاجت الحمية في قلبه، وكبر عليه أن يرى عملاقًا كافرًا يتحدى ويصول ويجول، ويذهب ويجيء ولا يلقى إلا رعديدًا، مخلوع الفؤاد.

فخف إلى طالوت، وطلب إليه أن يأذن له في منزلة جالوت، لعل مصرعه يكون بيديه، فاستصغر طالوت شأنه، وخشي أن يخرج هذا الحدث للقائه، فتنالُه ضربة تطيخ بها رأسه، وتذهب فيها نفسه، وهو لا يزال فتى أغر في ميعة[٦] الحداثة وربيع الأيام، وطلب إليه أن يترك الأ/ر لمن عساه أن يكون أكبر سنًا وأقوى جسمًا وأمضى عزمًا، وأجمع قلبًا.

قال داود: لا يخدعنك ما تراه من صغر سني، وقماءة[٧] جسمي عن حرارة الإيمان التي تجيش في صدر، ونار الحُنق التي تلتهب في قلبي، ولقد هجم بالأمس القريب أسد على غنم لابي فعدوت وراءه حتى أصبته فقتلته، وصادفني مرة في طريق دب فاتك فنازلته ثم أرديته، والعبرة بقوة النفس لا بكبر السن، وبمضاءة العزم لا بضخامة الجسم .

---

[١] عتادهم: عدتهم.

[٢] حمى الوطيس: اشتدت الحرب، والوطيس في الأصل: التنور.

[٣] بيت لحم: بلد قريب بيت المقدس، وفيه ولد عيسى عليه السلام.

[٤] الصعدة في الأصل: القناة المستوية تنبت كذلك، والمراد بها هنا القامة.

[٥] الزبن: الدفع.

[٦] ميعوة: أول الحداثة.

[٧] قماءة: نحافة.

ورأى طالوت الصدق في لهجته والحزم والعزم في نيته، فقال له: دونك وما تريد، الله كالئك وحافظك، وهاديك ومبصرك! ثم ألبسه ثيابه، وقلده سيفه وتوجه خوذة[1] فوقه رأسه، ولكن داود لم يكنم قد لبس الدرع، ولا عالج السيف، فناء بما حمل، وثقل عليه ما اشتمل، فخلع كل ذلك، واحتمل عصاه واحتقب مقلاعه، واصطحب أحجارًا ملسًا وتهيأ للخروج.

قال طالوت: كيف القتال بالحبل والمقلاع، وهذا مقام السيف والنشاب[2]! قال داود: إن الله حماني من أنياب الدب ومخالب السبع سيمنعُ عني – بلا شك – ما يريد لي هذا الطاغية من كيد أو نكال.

وخرج وهو من مضاء عزمه في أمنع حرز، ومن صدق إيمانه في أقوى حصن، والقلوب نحوه تهفو، والعيون إليه ترنو.

ورأى جالوت قرنه غلامًا حديث السن، صغي الجسم، لا يحمل سيفًا، ولا يتنكب قوسًا، فهزئ به، واحتقر شأنه وقال: ما هذه العصا التي تحملها! أكلبًا تطارده، أم غلامًا مثلك تناجزه! أين سيفك وترسُك؟ وأين سلاحك وعدتك؟ يخيل إلي أنك كرهت حياتك، وسئمت عيشك، مع أنك لا تزال حديث السن، ولم تحتمل بعد تكاليف العيش، ولا نصب الحياة!! تعال، ادن مني، فإنه بعد لحظة ستسيل نفسك، وتطوي صحيفة عمرك، وأقدمك لحمًا طريًا لوحوش البرية وطيور السماء.

قال داود: لك درعك وترسك، وسيفك ونشابك أما أنا فإني أتيتُك باسم الله، إله بني إسرائيل الذين أذللتهم وأخضعتهم، وسترى عما قريب، أهو السيف الذي يصرع ويقتل، أم هي إرادة الله وقوته!

ومد يده إلى كتفه، وأخرج الحجر، ووضعه في المقلاع، وسدده نحو جالوت فإذا هو مشجوج الرأس، سائل الدم، مُثْخَن الجراح، ثمقفاه بحجر وحجر، حتى خرَّ صريعًا لليدين وللفم.

وارتفعت راية النصر وانسكرت بعد جالوت شوكةُ العدو، وولوا منهزمين، يتبعهم بنو إسرائيل ضربًا وطعنًا وتقتيلاً، وثأروا لأنفسهم، واستردوا عزهم الذاهب.

---

[1] الخوذة: المغفر يقي الرأس في الحروب.

[2] النشاب: النبل.

مقرر الدلائل و الخصائص و الشمائل النبوية-الفصل الدراسي الثالث.

أنواع الكتب التي تتناول الدلائل والخصائص النبوية

نستطيع الرجوع في البحث عن الخصائص إلى عدة أنواع من الكتب.

١- كتب التاريخ العام، مثل كتاب: "البداية والنهاية" لابن كثير. حيث أفرد جزءاً من كتابه للمعجزات ودلائل النبوة والخصائص، عندما انتهى من بحث السيرة النبوية.

٢- كتب السيرة العامة، مثل كتاب "المواهب اللدنية" للقسطلاني حيث أفرد مقصداً من مقاصد كتابه للمعجزات والخصائص.

٣- كتب جمعت بين دلائل النبوة والخصائص، مثل: "الخصائص الكبرى" للسيوطي. فقد بدأ كتابه بذكر المعجزات تبعاً لتسلسل أحداث السيرة، ثم ذكر المعجزات التي لا ارتباط لها بذلك التسلسل، ثم ختم كتابه بذكر الخصائص.

الدلائل النبوية:

كتب الدلائل تتناولُ المعجزات والدلائل التي تُبينُ صدقَ النبي صلى الله عليه وسلم، وأقدمُ مَن أفردها محمدُ بن يوسف الفِريابي (ت ٢١٢هـ)، وهو محدِّثٌ ثقةٌ ثبتٌ، في كتابه: (دلائل النبوة)، ثم علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥هـ) في كتابه: (آيات النبي)، وداود بن علي الأصبهاني (ت ٢٧٠هـ) في كتابه: (أعلام النبوة)، وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) في مؤلَّفه: (أعلام رسول الله)، وابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ) في كتابه: (أعلام النبوة)، وأبو بكر بن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ)، وأبو عبدالله ابن منده (ت ٣٩٥هـ)، وأبو نُعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني (ت٤٣٠هـ).

الخصائص النبوية:

وتعني بما اختص به الرسول عن سائر الرسل، أو ما كان من خاص بالرسول عن سائر أمة الإسلام.

وفي هذا المجال تعددت الكتب مثل:

- كتب موضوعية أفردت الخصائص بالحديث. وهي كثيرة منها كتاب: "غاية السول" لابن الملقن. وكتاب: "مرشد المحتار" لابن طولون، وكتاب "اللفظ المكرم" للخيضري.

- وهناك بعض كتب الحديث التي أفردت لعلامات النبوة كتباً خاصة ذكرت ضمنها بعض الخصائص، مثل كتاب: "مجمع الزوائد" للحافظ الهيثمي.

"وكان أول من تكلم في الخصائص: الإمام الشافعي، واقتفى أثره أبو العباس بن القاص، وأبو بكر البيهقي، إلا أن ذلك لم يكن في تصنيف خاص.

وأول من أفردها بالتصنيف: العلامة ابن دحية الكلبي، المتوفى سنة ٦٣٣هـ في كتابه: (نهاية السول في خصائص الرسول)"

وقد أخذ علماء الحديث على كتابات الدلائل والخصائص أنها لا تتحرى في قبول الحديث، وحتى من قال أنه سيفعل تساهل ولم يلتزم بما قال، جاء في مقدمة "تهذيب الخصائص الكبرى" للشيخ عبدالله التليدي:

"ولأمر ما تواطأ السابقون واللاحقون على التساهل في الدلائل والخصائص، عن قصد وبدونه، والسيوطي المحدث، والذي يقول في مقدمة كتابه: (أوردت فيه كل ما ورد، ونزهته عن الأخبار الموضوعة وما يرد) يتابع سلفه، ويأخذه ما أخذ سابقيه، ففي كتابه من الخبر الضعيف أكثر من نصف الكتاب، ومن الموضوعات والمنكرات ما لا يظن بالسيوطي الغفلة أو التغافل عنه" انتهى.

كتب الشمائل:

فتُعتبر مصدرًا من مصادرِ السيرة النبوية، وعلى الرغم من أن معظم الأحاديث المتعلقة بشمائلِ الرسول صلى الله عليه وسلم مبثوثةٌ في ثنايا كتب الحديث، فقد أفرد لها بعضُ أهلِ الحديثِ كُتُبًا وأبوابًا في مُصنفاتِهم، ومثالُ ذلك أنك تجدُ في "صحيح البُخاري" ما يُسمى بـ (كتاب الأدب)، و(كتاب الاستئذان) و(كتاب اللباس)، وتجد في "صحيح مسلم" (كتاب البر والصلة والآداب)، و(كتاب فضائل النبي صلى الله عليه وسلم)، و(كتاب اللباس والزينة)، و(كتاب الزهد والرقائق)، وتجد في "سنن الترمذي" (أبواب البر والصلة)، و(أبواب الاستئذان)، وتجد في "سنن ابن ماجه" (كتاب الأدب) و(كتاب الزهد).

وكتب الشمائل تتناولُ أخلاقَ وآدابَ وصفات النبي صلى الله عليه وسلم، وأقدمُ مَن أفردها: أبو البختري وهب بن وهب الأسدي (ت ٢٠٠هـ) في مؤلفِهِ (صفة النبي)، ثم أبو الحسن علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٤هـ) في كتابه (صفة النبي)، ثم داود بن علي الأصبهاني (ت ٢٧٠هـ) في كتابه (صفة أخلاق النبي)، كما ذكر ابنُ النديم، والحافظُ الترمذي (ت ٢٧٩هـ) في كتاب: (الشمائل النبوية والخصائص المصطفوية).

الرسول في بيته

ينبغي للمسلم أن يتعرف على حياة الرسول في أسرته، فحياة الرسول في بيته نموذج رائع، وبخاصة أن بيت الرسول عرف الغني والثراء أيام السيدة خديجة وعرف الكفاف بل ما هو أقل منه في كثير من الأيام، وفي بيت الرسول كانت هناك زوجات كلهن طاعة وإخلاص، ولكن بين زوجات الرسول مَنْ كانت تعوزها بعض الصفات العالية حتى حاول الرسول أن يطلقها أو طلقها فعلاً، وكان في بيت الرسول غَيْرَةٌ ومنافسة ومؤامرة ضده أحيانًا، ومعنى هذا أن الرسول وهو صفوة ممتازة بين البشر كان بيته في بعض جوانبه عاديًا، وهذا يفيدنا فائدة كبرى لنتعلم من الرسول كيف عالج أمور هذه الأسرة، وكيف كان ربان السفينة ماهر فجعل سفينته تتغلب على الأنواء والعواصف، ولو قد كانت أسرته مثله صفوة لما استطاع المسلم أن يحتذيها، ولكانت مجتمعًا مثاليًا ليست به مشكلات الحياة التي توجد في الأسرة العادية، وإنه ليبدو أن الله سبحانه وتعالى كونها على هذا النمط لنرى رائدها وهو يسوس جماعته، فيتعلم منه المسلمون كيف يسوسون أسرهم ويدبرون حياة بيوتهم.

هذا، ومن الواضح أن الله سبحانه وتعالى خص زوجات الرسول بخصائص كالحجاب وألا يتزوجهن بعده... وسنرى ذلك فيما بعد، كما نسرى طريقة المعاملة في هذا البيت الكريم.

وسيشمل حديثنا عن "الرسول في أسرته" دراسة عن زوجاته وأولاده وأحفاده وخدمه:

زوجات الرسول

خديجة:

كانت السيدة خديجة تدعى في الجاهلية الطاهرة، وهي أولى زوجات ارسول وأم أولاده ولم يعقب الرسول من غيرها إلا مارية، وكانت هذه ملك يمين أنجب الرسول منها ابنه إبراهيم، وقد سبق أن تحدثنا عن السيدة خديجة التي خطبت محمدًا لنفسها، وكان محمد معجبًا بها، فرحب بذلك، وزُفت له سيدة قريش التي رفضت قبله أغنى رجالات فريش الذين تقدموا يطلبون يدها، وقد وضعت خديجة مالها في خدمة الرسول، فكان يتجر فيه كما يرى، وينفق منه كما يشاء.

وهيأت خديجة لزوجها ما يناسبه من حياة، فلما لجأ عليه السلام للتحنث في غار حراء كان تُعد له ما يحتاجه من طعام وشراب خلال الفترة التي سيعتكف فيها بالغار، فلما جاءه الوحي كانت أول من صدقه، وعانت معه صراع قريش ضده، وكانت البلسم الشافي لجراحه من هؤلاء المعتدين، ودخلت معه الشِّعْب عندما قرر سادة قريش أن يقاطعوا المسلمين، ومن الواضح أن خديجة كانت تعني بالرسول أعظم عناية، ويقول عنها ابن هشام[١] إنها كانت وزير صدق لمحمد، كانت تهوِّن عليه ما يلاقي من عنت قريش، ولم يتزوج الرسول غيرها في حياتها، ولا تسرى إلى أن قضت نحبها، فلما ماتت لم يطق الرسول أن يبقى بمكة، وبدأ يُعد العدة للهجرة من مسقط الرأس حيث اشتد عليه الأعداء بعد فقد أبي طالب وخديجة في عام واحد أسماه المسلمون عام الحزن.

رحم الله خديجة وأجزل ثوابها، لقد كانت نموذجًا رفيعًا للزوجة المسلمة التي تعين زوجها بكل ما تملك من مال وجهد ولا تبتغي إلا مرضاته تعالى، وكان الرسول يذكرهاب الخير دائمًا ويقول: كانت خديجة خير نساء العالمين، وإن لخديجة بيتًا في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب، وإني لأعرف فضلها، ولذلك كانت عائشة تغار منها، وتقول: ما غرت من امرأة من نساء النبي غيرتي من خديجة لِمَا كنت أسمع من ذكر الرسول لها[٢]، ويروى أن السيدة عائشة أخذتها الغيرة مرة من ذكر الرسول لخديجة وثنائه عليها فقالت: قد أبدلك الله خيرًا منها، فقال: ما أبدلني الله خيرًا منها، لقد آمنت بي حين كفر الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد.

وقد توفيت السيدة خديجة في رمضان قبل الهجرة بثلاث سنوات ودفنت بالحجون[٣].

سودة بنت زمعة:

لما ماتت السيدة خديجة اشتدت الأحزان بالرسول الكريم، فقد اختفت أم العيال وربة البيت، ولم يعد له من يكفكف آلامه وشجونه إذا عاد إلى البيت، وقد نال منه الأشرار ما تعودوا أن ينالوا، ولم يعد بالبيت من يرعى بنات الرسول بعد أن فقدن أمهن، ويُروى أن خولة بنت حكيم زوجة عثمان بن مظعون – أحد الذين هاجروا إلى الحبشة وعادوا منها إلى مكة ظنًا منهم أن قسوة قريش على المسلمين قد تراخت بعد أن زاد عدد المسلمين بمكة – قالت للرسول: لم لا تتزوج

---

[١] سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٦ وسير أعلام النبلاء للذهبي ج ٢ ص ٨١.

[٢] البلاذري: أنساب الأشراف ص ٤١٢.

[٣] الذهبي: سير أعلام النبلاء ص ٨٦.

من تعوضك عن خديجة بعض حنوها وعطفها؟ فسكت الرسول، فقالت له خولة: هل تقبل أن أخطب لك زوجة أخرى؟

فـأجاب الرسول: لا بأس إنكن معشر النساء أرفق بذلك.

قالت خولة: إن أردت بكرًا فعائشة بنت أبي بكر، وإن أردت ثيبًا فسودة بنت زمعة، وكانت عائشة لا تزال في حوالي السادسة من عمرها، فوافق على الزواج من سودة، وكانت سودة أرملة، فقد كانت متزوجة من ابن عمها "السكران بن عمرو"، وقد أسلما في مطلع الإسلام وهاجرا للحبشة، ثم عادا لمكة وبعد قليل مات السكران، فقبل الرسول الزواج منها، وكان لا يزال في مكة لعلها تملأ عليه بعض الفراغ الذي تركه وفاة خديجة، ثم ليحميها من اضطهاد قريش.

وينقل الأستاذ أحمد عطية الله[١] من مصدر لم يذكره وصفًا لحالة سودة بنت زمعة يوضح الأسباب التي دعت الرسول للزواج منها، يقول: "كانت سودة أرملة مسنة، ثقيلة الجسم والحركة، فمد الرسول صلى الله عليه وسلم يده الرحيمة يسند شيخوختها ويهون عليها الذي ذاقت من نكد الحياة".

ولكن سودة لم تكن زوجة مثالية للرسول، ولم تكن جديرة بالعبء الذي تقدمت لحمله، وكانت علاقتها بالرسول وبناته غير مرضية، ويذكر ابن هشام[٢]، أن سودة حينما رأست سهيل بن عمرو (أخا زوجها) ضمن أسرى بدر ويداه معقودتان إلى عنقه قالت: أي أبا يزيد سلمتم أيديكم؟ ألا متم كرامًا، فسمعها الرسول فقال لها: يا سودة، أعلى الله ورسوله تحرضين؟ قالت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد أن قلتُ ما قلتُ.

وقد هم الرسول بطلاق سودة ولكنها تضرعت إليه وقال: يا رسول الله لا تطلقني، وأمسك بي رحمة منك، ولا تتركني عرضة للضياع – فقبل رجاءها ويبدو أن سودة استمرت على بعدها عن الجادة، ولذلك يروي البلاذري[٣] أن الرسول طلقها سنة ثماني من الهجرة تطليقة، ثمتضرعت إليه فراجعها.

عائشة:

ونجيء بعد ذلك إلى أحب زوجات الرسول إليه بعد خديجة، إلى السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق، وتذكر الروايات أن الله سبحانه وتعالى هو الذي زوج رسوله من عائشة، فقد رأى الرسول في المنام شخصًا يحمل إليه قطعة من الحرير الأخضر، وقد نقشت فيها صورة فلما كشف عن الصورة سأله الرسول: من هذه؟ فأجيب: هذه عائشة، وهي زوجتك في الدنيا والآخرة، إنها تذهب بعض حزنك وإن فيها لخلفًا لخديجة.

وكان الرسول قد عقد عليها هي وسودة في وقت واحد تقريبًا عقب وفاة خديجة، ودخل بسودة وأجل الدخول بعائشة لصغر سنها، فلما وجد أن سودة لم تملأ فراغ نفسه دخل بعائشة في شوال سنة اثنتين للهجرة، منصرفه من غزوة بدر، وكانت في التاسعة من العمر، وبنى لها حجرة

---

[١] القاموس الإسلامي ج ٣ ص ٥٥٧.

[٢] سيرةابن هشام ج ١ ص ٢٠٩ (تحقيق طه عبد الرءوف).

[٣] أنساب الاشراف ص ١٠٧.

بجوار المسجد، وكان جهاز عائشة بسيطًا جدًّا، إنه حصير وسرير مشدود بالحبال، وبعض الأواني من الفخار في حجرة واحدة تمس اليدُ سقفها.

وتقول عائشة في رواية الإمام البخاري: نقلني رسول الله بالزواج منه إلى عالم آخر لم أكن أهتدى إليه بدونه، وعشت معه الحياة التي رسمها ربه، حياة النبوة، والزهد في متاع الدنيا، والرغبة في الآخرة.

وقد ولدت عائشة في الإسلام وهي أصغر من فاطمة بحوالي ثماني سنوات وقد روت عائشة عن الرسول – كما يقول الذهبي – علمًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما روت عن أبيها وعن عمر، وروى عنها عدد كبير من الصحابة والتابعين[١]، ويروي الترمذي عن أبي موسى الأشعري أنه قال: ما أشكل علينا حديث قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا[٢].

وكانت أقرب نساء الرسول إليه، وهي تحكي ذلك بقولها: فضلت على نساء الرسول بعشر ولا فخر، كنت أحب نسائه إليه، وكان أبي أحب رجاله إليه، وتزوجني بكرًا ولم يتزوج بكرًا سواي، وتزوجني لسبع، وبني بي لتسع، ونزل عذري من السماء، واستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه قائلاً لهن: إني لا أقوى على التردد عليكن، فأذن لي أن أبقى عند بعضكن، فقالت أم سلمة: قد عرفنا من تريد، تريد عائشة قد اذنا لك، وكان آخر زاده في الدنيا ريقي فقد استاك بسواكي، وقبض بين حجري ونحري، ودفن في بيتي.

وتقول السيدة عائشة إن الرسول أعرس بها في شهر شوال وكانت العرب تستحب أن تُعرس في هذا الشهر.

وروي أن الرسول قال لها: إني أعرف غضبك إذا غضبت ورضاءك إذا رضيت، قال: وكيف تعرف هذا؟ قال: إذا غضبت خاطبتني يا محمد، وإذا رضيت خاطبتني: يا رسول الله.

وسئلت أم سلمة: هل كان الرسول يقبل وهو صائم؟ قالت: لا. فقيل لها: إن عائشة تقول إنه كان يقبل وهو صائم، قالت أم سلمة: لعله كان يفعل ذلك مع عائشة، أما معي فلا.

وكانت عائشة كثيرة الصدقة، ويروى أن معاوية بعث لها بمائة ألف درهم، ويقول عروة بن الزبير، والله ما أمست حتى فرقتها، فقالت لها مولاتها: لو اشتريت لنا منها بدرهم لحمًا، فأجابت السيدة عائشة قائلة: لو ذكرتني لفعلت، وتوفيت السيدة عائشة سنة خمسين للهجرة وقيل سنة ثمان وخمسين ودفنت بالبقيع[٣].

زينب بنت خزيمة:

وتزوج الرسول زينب بنت خزيمة التي كانت تلقب "أم المساكين" لكثرة برها، وزينب كانت زوجة عبيدة بن الحارث أول شهيد في غزوة بدر، فقد سقط في المبارزة التي ابتدأت بها الغزوة فأراد الرسول إكرام زوجته وتخفيف آلامها، ولم يطل عمر زينب بل ماتت عقب الزواج بفترة غير طويلة.

حفصة بنت عمر:

---

[١] سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٩٨ وما بعدها.

[٢] المرجع السابق، ص ١٢٦.

[٣] انظر ترجمة السيدة عائشة في سير أعلام النبلاء ص ٩٨ – ١٤٢.

وتزوج الرسول بعدها حفصة بنت عمر، وكانت حفصة زوجة خنيس بن خزيمة ومات هذا الزوج بعد فترة قصيرة من الزواج بحفصة وتركها وكانت لم تصل سن العشرين، وفكر عمر أن يقدمها زوجة لعثمان بن عفان الذي كان قد فقد زوجته رقية بنت الرسول منذ فترة قصيرة، فذهب عمر يعرض ذلك على عثمان، ولكن عثمان سكت ولم يجب بشيء، فذهب عمر يشكو ذلك لأبي بكر ويعرض عليه أن يتزوجها هو، فواجه عمر نفس الصمت من أبي بكر، فذهب عمر يشكو ذلك للرسول فتلقى جوابًا أسمى من آماله، قال له الرسول: يتزوج حفصة من هو خير لها من عثمان وأبي بكر ويتزوج عثمان من هي خير له من حفصة، وفهم عمر ما يقصده الرسول، ففرح بذلك، ويروى أن عثمان وأبا بكر لم يُقبِلا على الزواج من حفصة لأنهما سمعا الرسول يذكرها، فأحس كل منهما أن الرسول قد يكون راغبًا فيها تكريمًا لعمر، ولم يستطيعا أن يقولا ذلك لعمر مخافة أن يكونا مخطئين في إحساسهما، وبنى الرسول حجرة بجوار حجراته تزوج فيها حفصة، وكانت حفصة حسنة الصلة بعائشة وكانت لا تكتمها شيئًا، إنما كان أمرهما واحدًا، وعاشت حفصة حتى زمن معاوية بن أبي سفيان، ولما ماتت صلى وعليها والي المدينة مروان بن الحكم[١].

وكانت عائشة تقول عن حفصة: إنها هي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله، ويقول الذهبي: إن رسول الله طلقها تطليقة، فلما عرف عمرُ ذلك تألم واشتد به الألم، وقال ما يعبأ الله بعمر وابنته، فنزل الوحي على الرسول يقول له إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة بعمر[٢].

زينب بنت جحش:

وتزوج الرسول زينب بنت جحش بنت عمة الرسول (أميمة بنت عبد المطلب) وأخوها عبد الله بن جحش الذي استشهد في غزوة أحد، وكان الرسول قد زوجها من زيد بن حارثة مولاه، وبقيت معه مدة عام لم تكن راضية عن هذا الزواج لعدم التكافؤ في نظرها بينها وبين زيد، وطلقها زيد وتزوجها الرسول بأمر الله للقضاء عمليًا على فكرة التبني، وتحريم زجة الابن المتبنى كما سنرى ذلك عند الحديث عن حكمة تعدد الزوجات.

وكانت زينب تفخر بأن الله تعالى هو الذي زوجها بنص كتابه بلا ولي ولا شهود، وكان ذلك في قوله تعالى: (فلما قضى زيد منها وطرًا زوجناكها)، وتقول عن باقي أمهات المؤمنين: أما هؤلاء فزوجهن أهلُهن، وكانت زينب من خيرة النساء دينًا وورعًا وجودًا ومعروفًا، وقد أرسل لها عمر مرة عطاء كبيرًا، فقالت: صبوه، وأخذت تفرقه في رحمها وأيتامها ولم تبق منه لنفسها شيئًا، واتجهت إلى الله قائلة: اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا، واستجاب الله لها، فماتت بعد ذلك بقليل.

وكان الرسول يقول: أسرعكن لحوقًا بي أطولكن يدًا، فلما ماتت زينب قالت عائشة: إن طول اليد الذي قصده الرسول هو كثرة المعروف، وكانت زينب تعمل وتتصدق، فيروى أنها كانت تجيد دبغ الجلود وتصنع منها ما يصلح للناس وتتصدق به.

وتقول عائشة واصفة زينب بنت جحش: كانت زينب تساميني في المنزلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأيت امرأة خيرًا في الدين من زينب، ولا أصدق حديثًا، وأوصل للرحم وأعظم صدقة منها رضي الله عنها[١].

---

[١] الذهبي: سير أعلام النبلاء: ص ١٦٣.

[٢] البلاذري: أنساب الأشراف ص ٤٢٤.

أم سلمة:

وتزوج الرسول هند بنت أمية وكانت زوجة عبد الله بن عبد الأسد عمة الرسول، وكان هذا قد مات متأثرًا بجراح أصابته في غزوة أحد، وكان لها منه ولد اسمه "سلمة" ولذلك كانت تسمى أم سلمة، وقد تزجها الرسول عقب وفاة زينب بنت خزيمة، وأسكنها الرسول في الحجرة التي كانت هذه تعيش فيها.

وأم سلمة هي السيدة المحجبة الطاهرة المخزومية بنت عم خالد بن الوليد وأبي جهل بن هشام، وقد تزوجها الرسول سنة أربع من الهجرة، وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسبًا، ويروى أن زوجها قال لها وهو يحتضر: إذا مت تزوجي، واللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلاً خيرًا مني، لا يخزيها ولا يؤذيها، فلما مات قالت أم سلمة: من خير من أبي سلمة؟ فلما خطبها رسول الله أدركت أن دعوة أبي سلمة قد استجيب لها.

وتقول أم سلمة إن الرسول عندما خطبني قلت له: في خصال ثلاث: كبيرة السن، مطفل (كثيرة الأطفال)، غيور، فقال لها الرسول: أما الغيرة فيذهبها الله، وأما السن فأنا أكبر منك، وأما الأطفال فعلى الله وعلى رسوله، وتزوجها الرسول.

وتقول عائشة: لما تزوجت الرسول أم سلمة حزنت حزنًا شديدًا لما ذكروا عن جمالها، فتلطفت حكتى رأيتها، فرأيت أضعاف ما وُصفت لي في الحسن، فذكرت ذلك لحفصة وكانت قريبة مني، فقالت لي إن هي إلا غيرة، وذهبت فرأتها، وعادت تقول: إنها لجميلة ولكن ليس إلى الحد الذي تقولين: وكانت حفصن أقرب إلى الصواب.

وأم سلمة كانت آخر من مات من أمهات المؤمنين، وقد امتد بها العمر حتى بلغها مقتل الحسين رضي الله عنها فوجمت لذلك وغُشي عليها، وحزنت حزنًا شديدًا، ولم تلبث بعد إلا يسيرًا وانتقلت إلى رحمة الله[٢].

جويرية:

وفي السنة السادسة للهجرة تزوج الرسول برة بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق أحد بطون خزاعة وأسماها "جويرية" وكان الحارث قد ساعد قريشًا في أحد، ثم حاول في السنة السادسة أن يجمع جموعه ويهاجم المدينة، فخرج له المسلمون وقامت معركة عند ماء يسمى "المريسيع" وتم النصر للمسلمين، وغنم المسلمون كثيرًا من المال وأسروا عددًا من النساء والصبيان، وكانت برة ضمن الأسرى وقد وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبته على نفسه ولكنه أغلى الفداء، فجاءت برة إلى الرسول تستعينه في قضاء ما عليها، وقالت له: أنا بنت الحارث بن أبي ضرار، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس، فكاتبه على نفسي وجئتك أستعينك على أمري، فتأثر الرسول بحالها وحالات أمثالها ومثيلاتها فقال لها: هل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو يا رسولالله؟ قال: أقضي عنك ما عليك وأتزوجك؟

قالت: نعم يا رسول الله، قال: قد فعلت.

---

[١] الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١٤٩ وما بعدها.

[٢] الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١٤٢ وما بعدها.

وخرج الخبر إلى الناس، فقالوا كيف نسترق أصهار رسول الله، فأعتق المسلمون أسراهم، قالت عائشة: ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة من برة، وقد أسلم أبوها وقومها عقب ذلك، وهناك رواية أخرى أن أباها افتداها ثم خطبها الرسول منه وتزوجها[١].

ومات جويرية سنة ٥٦ هـ وصلى عليها مروان بن الحكم والي المدينة من قِبل معاوية.

صفية بنت حيي:

ومن أمهات المؤمنين كذلك صفية بنت حيي بن أخطب، وأبوها سيد بني النضير الذين ثبت تآمرهم ضد الرسول فأخرجهم المسلمون من المدينة فاتجه بعضهم إلى خيبر واتجه آخرون إلى حدود الشام، وكان يحيي بن أخطب ممن اتجهوا إلى خيبر، وفي غزوة الأحزاب وفد حيي مع المهاجمين، ودخل حصون بني قريظة يحثهم على الغدر بالمسلمين، ونال ما ناله بنو قريظة عندما استجابوا للغدر، فقُتِلَ مع من قتل منهم.

أما صفية بنته فكانت زوجة لأحد زعماء بني النضير واسمه سلام بن مشكم وفارقها سلام فتزوجت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وهو من زعماء بني النضير أيضًا، وهو كذلك الذي كان يشرف على أموالهم فيما يشبه الآن "البنوك" يقول ابن هشام[٢]: كان عند كنانة كنز بني النضير فلما سقط حصن الغموض أمنع حصون خيبر في السنة السابعة للهجرة طلب الرسول من كنانة أن يسلم ما عنده من أموال بني النضير، فأنكر كنانة أنه يعرف أموالهم فقال له الرسول: أرأيت إن وجدنا المال عندك أأقتلك؟ قال: نعم، وكانت هناك خربة اعترف أحد اليهود بأن كنانة يطوف بها ويحملق فيها، فأمر الرسول بأن تحفر الخربة فحُفِرت فوجد بها الكنز، فسلم الرسول إلى محمد بن مسلمة ليقتله قصاصًا لأخيه محمود بن مسلمة الذي كان كنانة قد قتله.

وكانت صفية بين الأسرى فوقعت في سهم الرسول صلوات الله عليه وسلم، وبعد أن انتهى الرسول من تدبير أمر اليهود سأل صفية عن رأيها في اليهودية والإسلام، فقالت له: يا رسول الله لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعوني إلى ذلك، وقد كان أبي يعرف صدق دعوتك، ولكن العصبية ذهبت به، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وسألها الرسول إذا كانت توافق على الزواج منه فاستجابت مرحبة بذلك، فأعتقها الرسول وتزوجها، وتم الزواج في طريقه من خيبر إلى المدينة، وكانت صفية غاية في الإخلاص للإسلام ولرسول الإسلام، كما كانت شريفة عاقله ذات حسب وجمال ودين.

وتوفيت صفية في منتصف القرن الأول للهجرة ودفنت مع أمهات المسلمين بالبقيع.

أم حبيبة:

وفي السنة السابعة للهجرة تزوج الرسول رملة بنت أبي سفيان بن حرب وهي من بنات عم الرسول وليس من أزواجه من هي أقرب إليه منها.

وكانت رملة متزوجة من عبيد الله بن جحش، وكان عبيد الله قبل الإسلام يضيق بالوثنية ويسخر منها، وبقي على حال من الالتباس لا يدري ماذا يفعل، فلما ظهر الإسلام دخل عبيد الله دين الإسلام، وهرول إلى زوجته رمله يذكر لها أنه عرف مبعث محمد من التوراة والإنجيل، وكان

---

[١] سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٨٦ – ١٨٧.

[٢] سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢١٧ (تحقيق طه عبد الرءوف).

يلجأ إليهما وهو يبحث عن الطريق الصواب، وأنه لذلك دخل الإسلام، ودعاها عبيد الله إلى دخول الإسلام فاستجاب له، وهاجرت معه إلى الحبشة.

وأنجبت رملة لعبيد الله بنتًا أسمتها"حبيبة" فأصبحت تُكنى "أم حبيبة" وقد فاجأها عبيد الله يومًا وهما بالحبشة بخبر مؤلم هو أنه اعتنق المسيحية، فصرخت في وجهه وناقشه كثير من المسلمين الموجودين بالحبشة، ولكنه أصر على رأيه، ففارقته أم حبيبة إذ لم يكن لمسلمة أن تعيش زوجة لمسيحي، ومات عبيد الله عقب ذلك، وعرف الرسول خبرها فأرسل يخطبها عن طريق نجاشي الحبشة، فسعدت بهذا الخبر، وتم اجتماع في قصر النجاشي حضره وجوه المسلمين هناك مع النجاشي ورجاله، وحضره كذلك عمرو بن أمية الضمري الذي أرسله محمد إلى النجاشي ليخطب له أم حبيبة وليدعو المسلمين بالحبشة للعودة للمدينة بعد أن قوى شأن الإسلام هناك[١]، وفي هذا الحفل تم هذا الزواج، وكان خالد بن سعيد بن العاص، وكيل الزوجة، ودفع النجاشي مهر العروس من ماله وقدره أربعمائه دينار، ويقال أن فيها نزل قوله تعالى: (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) [سورة الممتحنة: ٧]، وقد بارك أبو سفيان هذا الزواج عندما سمع به.

وعادت أم حبيبة إلى المدينة مع جعفر بن أبي طالب ومع المسلمين، وكان وصولها عقب فتح خيبر، ولذلك أثر عن الرسول قوله: ما أدري بأيهما أسر، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر.

وماتت أم حبيبة سنة ٤٤ هـ وقبل أن تموت أرسلت إلى عائشة نقول لها: قد كان بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك، قالت عائشة: غفر الله لك ذلك كله فقالت أم حبيبة: سررتني سرك الله، وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك[٢].

ميمونة:

وفي عمرة القضاء تزوج الرسول ميمونة بنت الحارث، وهي أخت أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب، وكانت ميمونة قد جعلت أمرها لأختها أم الفضل، فجعلت أم الفضل أمر ميمونة إلى العباس، فزوجها رسول الله بمكة وأصدقها عن الرسول أربعمائة درهم.

وقد أراد الرسول أن يطيل مقامه بمكة بعد انقضاء الأيام الثلاثة التي كان قد تم الاتفاق عليها ليصنع طعامًا ويدعو أهل مكة إليه ويعرس بميمونة، ولكن حويطب بن عبد العزيز قال للرسول قد انقضى أجلك ولا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا، فخرج الرسول من مكةوأعرس بميمونة بمكان يسمى "سرف" قرب التنعيم، وماتت ميمونة بنفس المكان سنة ٦٣ هـ[٣].

معاملة الرسول لزوجاته:

في بيوت الرسول صلوات الله عليه وجد طرفان في مجال المعاملة؛ الطرف الأول هو الرسول نفسه، وهو الإنسان الكامل الذي وصفه الله تعالى بقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) [سورة القلم: ٤]، وهذا شيء طبيعي لأن الأنبياء صفوة البشر قال تعالى: (الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس) [سورة الحج: ٧٥].

---

[١] لم يدع الرسولُ المهاجرين للحبشة للحضور للمدينة عقب الهجرة، وذلك بسبب المشكلات الاقتصادية والعسكرية التي واجهت المسلمين بالمدينة عقب الهجرة، وقد سبق أن ذكرناها.

[٢] الذهبي: سير أعلام النبلاء: ص ٢٥٩.

[٣] ابن هشام: ج ٤ ص ٥ – ٦.

ولهذا كانت تصرفات الرسول في بيته تصرفات مثالية تعد نماذج للمسلمين الذين ينبغي عليهم أن يقتدوا بالرسول، وأن يغترفوا من سلوكه، ما وسعتهم الطاقة.

والطرف الثاني في بيوت الرسول هو زوجاته رضي الله عنهن، وهن بلا شك مجموعة من الفضليات، ولكنهن لم يكن في درجة الرسول، ولا كن في مستوى واحد في الفضل كما سنرى من الأحداث التي سنرويها، وزوجات الرسول بهذا الشكل شيء طبيعي إذ لو كن قمها في الفضل لكان بيت الرسول في مستوى بعيد عن واقع الحياة، ولما ظهرت به المشكلات التي يعالجها الرسول ليتخذ المسلمون من علاج الرسول لها درسًا ينتفعون به فيما يواجهون من مشكلات.

ومن هنا فإن دراستنا للحياة في بيت الرسول سترينا الاتجاه المثالي التشريعي الذي تمثله تصرفات الرسول وسترينا كذلك اتجاهات الزوجات وموقف الرسول منها مثنيًا أو مصححًا أو مهذبًا، وعلى المسلمين أن يتبعوا نهج الرسول في جميع الحالات.

فالرسول يعظ ويعلم ولكنه يضرب المثل بنفسه، ويبين أنه خير الناس في أهله، فأحسن الناس من كان كذلك، وليس الذي يبدو أمام الناس سمحًا طيبًا فإذا دخل بيته انقلب متسلطًا عابسًا، وتقول السيدة عائشة عن ذلك "كان رسول الله في بيته ألين الناس ضاحكًا باسمًا" وكان يساعدهن في أعمال البيت، وأثر عنه قوله "خدمتك زوجتك صدقة" وكان رسول الله يعامل زوجاته بالحسنى، ويأخذهن بالنصيحة الطيبة، ويسألهن الرفق في أمورهن، ويقسم بينهن بالعدل ويقول: "اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما لا أملك" أي يسأل الله ألا يؤاخذه في ميل القلب الذي لا يمكن للإنسان أن يسيطر عليه.

أما مكانة الزوج لدى زوجته فيوضحها الرسول لعائشة عندما سألته: أي الناس أعظم حقًا على المرأة؟ أجاب: زوجها، وسألته وأي الناس أعظم حقًا على الرجل؟ فأجاب: أمه.

وجاءت إلى الرسول زوجة من الزوجات، فسألها الرسول "كيف أنت مع زوجك؟ إنه جنتك ونارك" أي أنك تدخلين الجنة أو النار حسب معاملتك له.

وكان الرسول صلوات الله عليه ينبهالرجال إلى احتمال النساء، ففي كثيرات منهن نوع من الانحراف ينبغي أن يصبر عليه الرجل، وهو في ذلك يقول:

- إن المرأة كالضلع إن ذهبت تقيمها كسرتها، وإن تركتها استمتعت بها على عوج.

- ل أحسنتَ إلى المرأة الدهر ثم رأت منك شيئًا، قالت ما رأيت منك خيرًا قط.

(رواه البخاري)

ولم تكن زوجات الرسول – كما أشرنا آنفًا – على نسق واحد ومستوى واحد لدى الله ولدى الرسول، ولذلك كان الوحي يجيء للرسول في مكة في بيت خديجة وفي المدينة في بيت عائشة، وقد روى عن عائشة قولها "فضلني الله على الأخريات بأ جعل الوحي ينزل على الرسول في بيتي" ولم ينزل في غير بيتها إلا قليلاً في بيت أم سلمة، وكان الرسول يقول: إن لعائشة مني شعبة ما تنزلها واحدة من النساء.

وكان الرسول كثير المداعبة لعائشة، فقد شكت له مرة آلامًا في رأسها فداعبها بقوله: "ماذا لو مت وأنا حي فصليتُ عليك ودعوت لك؟ فلقالت له: فكأني بك وقد عدت بعد دفني تعرس بإحدى نسائك على فراشي، وكان يسابق عائشة فسبقته مرة وسبقها أخرى فقال لها هذه بتلك.

وكانت الغَيْرَة موجودة في بيت الرسول، وكان الرسول ينظم الغيرة حتى لا تكون أداة تدمير للأسرة، ويروى عنه قوله في الغيرة من الأجانب "إن الله تعالى يغار، والمؤمن يغار، وإني لغيور، وما من امرئ لا يغار إلا منكوس القلب، ولكن من الغيرة ما يحبه الله، ومنها ما يبغضه، فأما الغيرة التي يحبها الله فالغيرة مع الريبة، والغيرة التي يبغضها الله الغيرة بدون ريبة، فإذا لم يكن هناك أدنى شك فلا داعي للغيرة، بل يعلم الرجل زوجته أن تبعد عما قد يحدث شكا في المستقبل، أما مع الشك فلا بد من التعرف على أسباب الشك حتى لا تتفاقم الأمور.

أما الغيرة بين الضرائر فقد دعا الرسول ربه أن يزيل حدتها وقصة ذلك أنه عندما خطب أم سلمة ترددت في القبول وكان من أسباب ترددها ما قالته بأن عند الرسول من هي أجمل منها، فأحس الرسول فيها بخلق الغيرة فقال: وإن كانت تغارين من النساء فيذهب الله الغيرة منك.

وبعد أن تزوج الرسول أم سلمة نشأ في بيت الرسول حزبان، حزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة، والحزب الآخر أم سلمة وسائر زوجاته، ونمت الغيرة في هذا الجو، وترتب على الغيرة بعض الكيد، وبعض الإساءات، ولكن الرسول وقف منصفًا حكيمًا، ليخفف من غيرة النساء ويقلل من وحدتهن، وقد أورد الذهبي بعض مظاهر الغيرة وبعض الأحداث التي جرت مرتبطةبها:

فمن ذلك ما ترويه عائشة قالت: أتني رسول الله صلى الله عليه وسلم في غير يومي، فدق الباب فسمعت الدق ولكن توانيت في الفتح حتى دق أكثر من مرة، ثم فتحت له، فقال: أما كنت تسمعين الدق؟ قلت: سمعته ولكني أحببت أن تكرر الدق لتعلم النساء أنك أتيتني في غير يومي[١].

ويروي زيد بن أسلم أن رسول الله في مرضه الذي توفي فيه قالت له صفية بنت حيي: والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك حل بي، فتغامزت زوجاته، فأبصرهن الرسول، فقال لهن: استغفرن الله، فقلن: من أي شيء؟ قال: من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة[٢].

وعن عطاء بن يسار قال: لما قدم رسول الله من خيبر ومعه صفية سمع الناس بجمالها فجئن لينظرن إليها، وجاءت عائشة متنقبة، ولكن الرسول عرفها، فلما خرجت لحق بها الرسول وسألها: كيف رأيت؟ قالت: رأيت يهودية، قال: لا تقولي هذا فقد أسلمت[٣].

تلك كانت سياسة الرسول الحكيمة وهو يقود الركب الذي تعددت فيه الزوجات وآن لنا أن نتحدث عن تصرفات أحدثتها بعض الزوجات ونشرح كيف كان موقف الرسول من هذه التصرفات، وأول ما يهمنا إن حياة التقشف كانت نمط الحياة عند الرسول، وتقول عائشة "كان خبزنا الشعير أطحنه في الرحى، وطعامنا التمر والماء، وأحيانًا كنا نحصل علىبعض اللبن، ويمر شهران لا توقد نار لطهو طعام، ولم يمتلئ جوف الرسول شبعًا قط وكان الفقر أحب إليه من الغنى ..." ولم تكن الزوجات تستطعن ما استطاعه الرسول من العزوف عن الدنيا، فاجتمعت الزوجات حول الرسول يسألنه النفقة، فاعتزلهن الرسول شهرًا أو حوالي ذلك، فنزل قوله تعالى: (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلاً وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكم أجرًا عظيمًا) [الأحزاب: ٢٩].

---

[١] الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١٢٣.

[٢] المرجع السابق: ص ١٦٢.

[٣] المرجع السابق: ص ١٦٨.

فبدأ الرسول يعرض عليهن ما عرضه الله سبحانه وتعالى، وابتدأ بعائشة قائلاً لها: استشيري أبويك في هذا الأمر، فقالت عائشة: أفيك أستشير يا رسول الله؟ فلما تلا عليها الآية قالت: أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وكذلك فعلت الزوجات الأخريات، وهكذا عالج الرسول هذه الأزمة بحكمة وهدوء، فإما أن ترضى الزوجات بنسق الحياة الذي يعيش فيه الزوج وإلا كان تسريحهن هو المخرج.

وهناك حادثة أخرى تآمرت فيها عائشة وحفصة على الرسول، فقد كانت زينب بنت جحش من أحب نسائه إليه وكان يدخل عندها نهارًا وهو يمر على زوجاته فيطيل عندها الجلوس فدبرت عائشة وصفية مؤامرة ضده، فما إن خرج ودخل على عائشة حتى قالت له هذه: ماذا أكلت أو شربت عند زينب؟ إني أشم من فمك ريحًا غير طيب: قال الرسول: سقتني زينب جرعة عسل، قالت: لقد رعى نحله المغاير (المغاير نبات لزج رائحته كريهة) ودخل الرسول على حفصة فقالت له ما قالت عائشة: فصدق الرسول هذا الادعاء، وكان حريصًا على طيب رائحة فمه، فحرم على نفسه شرب العسل، وقد كشف الله سبحانه وتعالى هذه المؤامرة فنزلت الآية الكريمة (يا أيها النبي لما تحرم ما أحل الله لك؟ تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم) إلى قوله تعالى: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) [سورة التحريم الآيات الأولى] وتاب الله على زوجات الرسول وغفر لهن.

وكان من نساء الرسول من تراجع الرسول وتناقشه، ومنهن من قالت له: تكلم ولا تقل إلا حقًا، وكان الرسول يبتسم ويقول: وهل أقول غير الحق؟ وقد سبق أن ذكرنا أن سودة لم تكن موافقة للرسول، ولا لبناته كما ينبغي، وأنها قالت لسهيل بن عمرو قولة فيها تحريض للكفار على المسلمين، ولما سمعها الرسول قال لها: يا سودة أعلى الله ورسوله تحرضين؟ فاعتذرت سودة، وتقول عائشة عن سودة: ما من الناس امرأة أحب إليَّ أن أكون في صلاحها من سودة بنت زمعمة، إلا أنها امرأة فيها حسد، وقد رأى الرسول انصراف قلبه عنها فعرض عليها الطلاق، ولكنها توسلت إليه ألا يفعل فقبل ذلك منها ووسعتها رحمته، وفي رواية أخرى أنه طلقها فعلاً، ولعل موقف سودة ومثيلاتها هو الذي أوحى للرسول أن يقول: إن المرأة كالضلع إن ذهب تقيمها كسرتها وإن تركتها استمتعت بها على عوج، ويعلق الإمام الشوكاني على هذا الحديث بقوله: إن فيه الحث على الصبر على ما لا يستقيم من أخلاق النساء.

وكان الرسول كثير الاعتراف بالفضل لزوجته خديجة حتى بعد وفاتها، فقد كان يكثر الحديث عنها بخبر ويدعو لها، وكان يذبح الشاة ويقسمها أجزاء ويبعث بأجزائها إلى صاحبات خديجة، وقد سبق أن ذكرنا أن عائشة كانت تقول: ما رأيت خديجة قط ولكني كنت أغار منها أكثر مما أغار من غيرها لكثرة ما كان يمدحها ويثني عليها، وفي مرة أعلن الرسول لعائشة أن خديجة لا تعدلها زوجة أخرى فغضبت عائشة وقالت له: هل كانت إلا عجوزًا بدلك الله خيرًا منها، فقال لها بغضب: لا والله ما بدلني الله خيرًا منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من الزوجات وقد ذكرنا ذلك من قبل.

الرسول وأولاده:

ذلك حديث عن الرسول بين زوجاته، فلننتقل إلى الحديث عن الرسول وأولاده، وأولاد الرسول – ما عدا إبراهيم – من السيدة خديجة، وهم ابنان: القاسم والطاهر، وقد ولد القاسم قبل الإسلام وبه كان الرسول يكنى، ومات وعمره حوالي السنتين، أما الطاهر فقد ولد بعد الإسلام ولذلك

سمي الطاهر وقد مات رضيعًا، وكان الرسول لا يزال في مكة، فقال العاص بن وائل في شماتة بالرسول: إن محمد أبتر، أي لا يعيش له أبناء، فنزلت الآية الكريمة: (إن شانئك هو الأبتر) وولدت السيدة خديجة للرسول أربع بنات هن زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة.

وكبرى بناته زينب وقد تزوجت قبل الإسلام من أبي العاص بن الربيع وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد، فلما جاءت الرسالة آمنت به خديجة وبناته وثبت أبو العاص على الوثنية، وأرادت زينب أن تلحق بأبيها فمنعها أبو العاص، فعاشت معه فترة دون أن يكون بينها وبينه ما بين الرجل وزوجته، وكان أبو العاص من معد

ودي رجال مكة مالاً وأمانة وتجارة، فمشى إليه وجوه قريش وقالوا له: اردد على محمد ابنته، ونحن نزوجك أية امرأة أحببت من قريش، فقال: لا والله، لا أفارق صاحبتي فإنها خير صاحبة، وهاجر الرسول بدونها إلى المدينة، فلما جاءت غزوة بدر كان أبو العاص مع المشركين، ووقع في يد المسلمين أسيرًا، وبدأت قريش تفدي أسراها، وكان فداء أبي العاص قلادة عرفها الرسول، إنها قلادة خديجة رضي الله عنها وهبتها لابنتها زينب حين زواجها، فلما رأى الرسول القلادة رقَّ لها، وقال للمسلمين: إن رأيتم أن تردوا قلادة زينب وتطلقوا أسيرها فافعلوا، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقه الرسول بعد أن اشترط عليه أن يبعث بزينب إليه وتوثق منه، ووجه الرسول زيد بن حارثة ليتسلمها، ولحقت زينب بأبيها في المدينة وبقي زوجها على الشرك.

وفي سنة ست من الهجرة خرج أبو العاص في تجارة إلى الشام، وفي طريق عودته بعث الرسول زيد بن حارثة في جيش من المسلمين فاعترضوا عيره، واستاقوها وأسروه، فبعث أبو العاص إلى زينب يستجير بها فأجارته، وقبل الرسول جوارها، وقال للمسلمين: إنكم قد عرفتم مكان هذا الرجل منا، فإن تردوا عليه ماله فإنا نحب ذلك، وإلا فماله فيء مالكم، فردوا عليه ماله، فعاد إلى مكة ورد الحقوق لأصحابها ثم وفد إلى المدينة مسلمًا، فأعاد له الرسول زينب بنكاح جديد ومهر جديد[١].

أما رقية فكانت قد تزوجت عتبة بن أبي لهب، فلما نزلت السورة الكريمة: (تبت يدًا أبي لهب) قالت أم عتبة واسمها أم جميل بنت حرب بن أمية، قد هجانا محمد، وعزمت على ابنها عتبة أن يطلق رقية، وكذلك فعل أبوه فطلقها قبل أن يدخل بها فزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم من عثمان بن عفان وهاجرت معه إلى الحبشة، وولدت له عبد الله ومرضت قبيل بدر، فخلف الرسول معها عثمان، وتوفيت والمسلمون في بدر، ودفنت بالبقيع، ومات ابنها بعدها بقليل[٢].

وأما أم كلثوم فكانت زجة لمعتب بن أبي لهب، وطلقها زوجها مثلما فعل أخوه عتبة، فلما ماتت رقية زوجها الرسول من عثمان وظلت معه حتى ماتت سنة ٩ هـ وبكى عليها عثمان وأطال البكاء فسأله الرسول: ما يبكيك؟ فقال انقطاع صهري منك يا رسول الله فقال الرسول: انقطاع الصهر لا يكون بالموت، وإنما يكون بالطلاق، ولو كان عندنا ثالثة لزوجناك[٣].

وأما فاطمة فقد زوجها الرسول من علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة اثنتين للهجرة فولدت الحسن والحسين ومحسنًا وزينب وأم كلثوم، وقد مات محسن صغيرًا وتزوجت زينب بن علي عبد الله بن جعفر ولم تنجب منه، وتزوجت أم كلثوم عمر بن الخطاب، فولدت له زيد بن عمر

---

[١] البلاذري: أنساب الأشراف ص ٢٩٧، وما بعدها والذهبي: سير أعلام النبلاء ص ١٧٥.

[٢] أنساب الأشراف: ص ٤٠١.

[٣] المرجع السابق: ونفس الصفحة.

وقتل عمر عنها، وتوفيت أم كلثوم وابنها زيد في يوم واحد، وأنجب الحسن والحسين ابنا علي وفاطمة نسلاً كثيرًا ومنهما وجد النسل الذي ينحدر من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى الآن.

وفاطمة تستحق مزيدًا من الحديث عنها لمكانتها من الرسول من جانب ولأن منها عاش حتى الآن نسل الرسول من جانب آخر، ويروى الذهبي أن الرسول قال عنها: بأنها سيدة نساء العالمين في زمانها وكان يكنيها "أم أبيها" لما كان فيها من الحنان على الرسول صلوات الله عليه، الذي قلما يوجد في غير الأم، وقد ولدت قبل البعثة بقليل، وتزوجها الإمام علي سنة اثنتين للهجرة عقب غزوة بدر، ودخل بها عقب غزوة أحد، وذلك بعد أن دخل الرسول بعائشة بأربعة أشهر، وكانت سن فاطمة خمسة عشر عامًا وقد روت كثيرًا من الأحاديث عن أبيها وروى عنها ابنها الحسن والسيدة عائشة، وأم سلمة وأنس بن مالك، وكان صلى الله عليه وسلم يحبها ويكرمها ويسر إليها، وكانت صابرة دينة خيرة خاضعة شاكرة لله، وكانت مشية فاطمة شديدة الشبه بمشية الرسول صلوات الله عليه، وكانت تطمع في أن ترث أباها في أرض فدك، ولكن أبا بكر ذكر لها أنه سمع الرسول يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة، فوجدت عليه، كأنها لم تكن قد سمعت هذا الحديث من الرسول، ولكنها لما مرضت أتى أبو بكر إلى بيتها واستأذن، فدخل علي عليها وقال لها: يا فاطمة هذا أبو بكر يستأذن عليك، فسألت عليًا قائلة: أتحب يا علي أن آذن له؟ قال علي: نعم، فأذنت له فدخل عليها أبو بكر يترضاها، وقال لها: والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ورسوله ومرضاتكم أهل البيت، وما زال بها حتى رضيت.

وتوفيت بعد النبي صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهر ونحوها وكان عمره خمسًا وعشرين سنة، وكانت وفاتها يوم الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة هجرية.

وكان علي رضي الله عنه قسم العمل في البيت بين أمه وبين زوجته، فطلب من أمه أن تكفي فاطمة الخدمة خارج البيت، أي تحضر ما يلزم للبيت من الخارج، وتكفيها فاطمة العمل في البيت، فتقوم بالطحن والعجن والخبز... [1].

ورُزق الرسول ابنًا من مارية أسماه إبراهيم، ولكنه مات وعمره حوالي العام.

هؤلاء هم أولاد الرسول، فماذا كانت تعاليم الرسول بالنسبة للأولاد بوجه عام؟ وماذا فعل أولاده؟ حتى يمكن لنا أن نقتدي به في هذا المضمار؟

أول ما نذكره أن الرسول كان يحب أولاده ويلاطفهم، ويروى البخاري ومسلم أن السول قبل الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي، فقال الأقرع إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحد قط، فقال له الرسول: من لا يَرحم لا يُرحم. (متفق عليه).

ثم إن الرسول ألزم الأب أن يسوي بين أولاده في العطاء والمعاملة، ويروى أن زوجة بشير بن سعيد الأنصاري طلبت إليه أن يخص ولدها النعمان بمنحة فاستجاب لها، وأرادت الزوجة توثيق هذه الهبة فطلبت من زوجها أن يشهد عليها الرسول فاستجاب بشير لرغبتها وذهب للرسول، فسأله الرسول: هل للنعمان إخوة؟ فأجاب: نعم، فسأله الرسول: فكلهم أعطيت مثل ما أعطيته؟

---

[1] سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٨٧، ٩٣.

قال بشير: لا، فقال الرسول: ليس يصلح هذا، إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم، كما أن لك عليهم من الحق أن يبروك، واتقوا الله واعدلوا بين أبنائكم[1].

وكان الرسول يحب فاطمة حبًا جمًا، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها وقبلها وأجلسها بجواره، وكان يحب ولديها الحسن والحسين، ويحملهما على ظهره ويداعبهما، وحدث مرة أن كان الرسول يصلي فأطال الصلاة فلما انتهى من الصلاة سأله أحد الصحابة عن سبب الإطالة فقال: إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله.

وكان يحب زينب ابنته حبًا شديدًا، وكان يحب زوجها أبا العاص لحفاظه على زينب واحترامه لها مع اختلاف الدين، وقد رأينا الرسول يقول عنه للمسلمين: إنكم قد عرفتم مكان هذا الرجل منا.

ولما ماتت زينب تركت بنتًا اسمها "أمامة" وأحبها الرسول ككل أحفاده، وفي ليلة أهدى إليه قلادة ثمينة من خرز ثمين يوجد بظفار بجنوب الجزيرة فقال عليه السلام: لأهدين هذه القلادة إلى أحب أهلي إلي، فقالت بعض الزوجات قد فازت بها ابنة أبي بكر، فلما أصبح دعا بأمامة وألبسها العقد.

ولما رزق الرسول بابنه إبراهيم في أواخر أيامه فرح به كل الفرح، وتصدق بوزن شعر رأسه فضة، وكان الرسول يمشي لمارية كل يوم يداعب ابنه ويناغيه، فلما مات إبراهيم بكي الرسول عليه وقال: تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وصادف أن كسفت الشمس يوم موت إبراهيم فقال بعض الناس إنها كسفت حزنًا على إبراهيم فقال الرسول: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد ولا لحياته.

ما أجدر المسلمين أن ينتفعوا بهذا النموذج الذي شرحه الرسول، وتعامل به مع أولاده وأحفاده.

الرسول مع خدمه:

يمثل الخدم في كثير من البيوت عنصرًا مهمًا من السكان، وقد أرشد الرسول السادة والخدم على المعاملة المثلى من الطرفين، فعن حقوق الخدم يروى المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر رضي الله عنه وعليه حلة وعلى غلامه مثلها، فسألت أبا ذر عن ذلك فذكر أنه ساب خادمًا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له النبي: إنك امرؤ فيك جاهلية هم إخوانكم وخولكم، جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم، ومن الواضح أنه ليس من الضروري أن يلبس الخادم من نوع لباس سيده، وإنما كان ذلك عقوبة لأبي ذر على موقفه من خادمه.

وعن واجبات الخدم المخدوم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: والخادم راع في بيت سيده وهو مسئول عن رعيته.

فإذا جئنا إلى النموذج الواضح في بيت الرسول رأينا مُثُلاً عليا في هذا الشأن، كانت بركة أثابها الله حاضنة الرسول صلوات الله عليه بعد وفاة أمه، ولذلك كان الرسول يدعوها أمه، ولما شب الرسول وتزوج من خديجة تقدم لخطبتها عبد الله بن زيد الخزرجي، وكانت بركة تميل إلى البقاء في خدمة الرسول وزوجته الطاهرة، ولكن الرسول وزوجته شجعا بركة على قبول الزواج، وأحست بركة بأنها أدت واجبها في خدمة محمد حتى تزوج وبدت حياته طيبة مع

---

[1] انظر هذه الدراسة مفصلة في "الحياة الاجتماعية في التفكير الإسلامي" للمؤلف ص ٧١ وما بعدها.

زوجته العظيمة فوافقت على الزواج، ورحلت مع زوجها إلى يثرب وأنجبت ابنها "أيمن" منه فصارت تدعى أم أيمن ثم مات زوجها فعادت بابنها إلى بيت الرسول.

وتقدمت السن بأم أيمن، وزاد صلاحها في ظل الإسلام، ويروى أنها جاءت للرسول مرة وهو بين أصحابه فأسرت له بشيء ثم عادت، فقال الرسول: من أراد أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيم، ولما سمع زيد بن حارثة ذلك تقدم للرسول يخطبها، وتم زواجه منها بعد وليمة سخية أقامتها السيدة خديجة لأوفى خادمة، وأنجب هذا الزواج "أسامة بن زيد.

ويروى أن أم أمين قالت يوم حنين: سبت الله أقدامك، فقال لها الرسول: اسكتي فإنك عسراء اللسان.

ونقف هنا وقفة لنتحدث عن زيد بن حارثة الكلبي: ولقد ولد في الجاهلية وسبي وهو طفل في إحدى غارات القبائل، وبيع رقيقًا في أسواق مكة، وكان الذي اشتراه حكيم بن حزام لخديجة بنت خويلد، ولما تزوج محمد بن عبد الله من خديجة وهبته زيدًا فأحبه وأعتقه وتبناه، وكان يدعى زيد بن محمد حتى نزلت الآية الكريمة "ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله" فأصبح يدعى زيد بن حارثة.

وقد اهتدى أبوه إليه وأظهر الرسول استعداده لرده لأبيه وذويه، ولكن زيدًا اختار أن يقى مع محمد، وسقط زيد شهيدًا في موقعة مؤتة فعين الرسول ابنه أسامة قائدًا للجيش الذي أعده قبل وفاته لغزو الروم ليثأر لوالده، وكان كبار الصحابة جنودًا في هذا الجيش تحت إمرة الشاب أسامة.

ومن الذين خدموا الرسول مولاه ثوبان، وقد أخلص هذا للرسول أيما إخلاص حتى أن الرسول لاحظ أن ثوبان يذوي ويذبل فسأله: ما بك يا ثوبان؟ فأجاب ثوبان: إنني أذكر الأخرة التي ستجعلني في مرتبة بعيدة عنك فأحس بالأسى والحزن لفراقك، ويقال إن الله طمأنه على مستقبله في الجنة بالآية الكريمة: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا) [سورة النساء: ٦٨].

ومن خدمه عليه السلام أنس بن مالك، وهو يقص قصته مع الرسول بقوله: قجدم ا لرسول إلى المدينة وليس معه خادم، وكانت أمي (أم سليم) متزوجة من (أبي طلحة الأنصاري) بعد أبي فأسلمتني أي لخدمة رسول الله، وقال أبو طلحة للرسول وهو يقدمني: يا رسول الله إن أنسًا غلام ذكي فليخدمك، وتوليت خدمة الرسول طيلة عهده بالمدينة ولقد لازمته في السفر والحضر، وما قال لي مرة (أف) وما قال لشيء صنعته : لما صنعته، ولا لشيء تركته: لما تركته.

ويروى أن أنسًا أرسله الرسول في حاجة فانحرف إلى صبيان يلعبون في السوق ورآه الرسول وهو على هذه الحال فقال له: يا أنيس اذهب حيث أمرتك، وأرسل إحدى خدمه مرة لقضاء حاجة له فتباطأت في قضائها، فقال لها عندما عادت: لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك.

تلك صورة سريعة لحياة الرسول في بيته، بين زوجاته وأولاده وخدمه، وهي لا شك صورة مشرقة ينبغي على المسلمين أن يتدارسوها، وأن يتأسوا بها، ففي ذلك صلاح لبيوتهم ولمجتمعهم.

الرسول بين أصحابه

وَضَحَ الرسول صلوات الله عليه أسس الحب والصداقة بين المسلمين منذ آخى بين المسلمين في مكة ثم آخى بين المهاجرين والأنصار بالمدينة، فهو بهذه المؤاخاة يخلق رباطًا جديدًا بين الأصحاب يصل إلى رباط النسب وأحيانًا يزيد عليه، واستمر الرسول في حياته اليومية يقوي هذا الرباط ويوصي به، وفيما يلي بعض أحاديث الرسول في هذا المجال:

- خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه. (رواه الترمذي). فكلما كان الإنسان شديد الوفاء والإخلاص لصاحبه كان أقرب إلى الله.

- لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا.

- ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضتُ صفيه من أهل الدنيا، ثم احتسبه إلا الجنة (رواه البخاري).

وهذا الحديث يدلنا على ألم الصديق لفراق صديقه، ذلك الفراق الذي يضمن للإنسان الجنة إذا صبر عليه.

ومن هذه الأحاديث الشريفة نستطيع أن ندرك قيمة الصحبة والأصحاب، وكان سلوك الرسول صلوات الله عليه هديًا رائعًا في هذا المجال، فهو يتحدث عن أصدقائه، أروع حديث ليضرب لنا المثل في طيب الصحبة، وصفاء الود، فهو يقول عن أبي بكر:

ما أحد أعظم عندي بدًا من أبي بكر، واساني بنفسه وماله وزوجني ابنته، ويقول عن أبي بكر وعمر: أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر.

ويقول عن علي: علي أخي في الدنيا والآخرة.

وكان الرسول من أكثر الناس عرفانًا بالجميل، ومن هنا كان يوصي دائمًا بالأنصار، ويذكر أنهم فتحوا له ولأصحابه قلوبهم وبيوتهم، وكانوا خير رفقة للمهاجرين، وهو في آخر خطاب يلقيه يهتف بالمهاجرين قائلاً: "استوصوا بالأنصار خيرًا فإنهم كانوا عيبتي (موضع سري) التي أويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم، والرسول بهذا الحديث الشريف يبرز للمسلمين أن الصديق بشر، وأنه من الممكن أن يخطئ أو يزل فلا بد أن يكون الإنسان مستعدًا للعفو عن زلات صديقه، ونسيان هناته، لتدوم الصداقة وتزدهر، وليس من الصداقة في شيء أن يتلمس الصديق خطايا صديقه، وأن يضمها بعضها إلى بعض ناسيًا ما يستوجبه الود ورحم الصداقة من عفو وغفران.

ويتحدث أنس عن الرسول صلوات الله عليه وعن صلته بأصحابه حديثًا فياضًا نقتبس منه بضعة سطور، كان رسول الله يتفقد أصحابه جميعًا، حتى لا يحسب أحد منهم أن غيره أكرم منه على رسول الله، وإذا جلس إلى أصحابه صبر حتى ينصرف عنه أصحابه، وكان يجيب من دعاه إلى داره، ويقبل الهدية ويثيب عليها، ويزور أصحابه ويتعرف أحوالهم، ويعود مرضاهم ويلاعب صبيانهم، وكان إذا التقم أحد أذنه ليهمس له بشيء صبر له، ولم ينح عنه رأسه حتى ينتهي الرجل من كلامه، وما أخذ أحد بيده إلا استبقاها الرسول حتى يرسلها صاحبه، وكان ينادي الناس بأحب أسمائهم إليهم، ويكنيهم تكريمًا لهم، ولا يقطع على أحد منهم حديثه حتى ينتهي منه.

وكان يتمثل في رسول الله خلق الإيثار بأسمى درجاته، فلم يعرف عنه قط أنه خص نفسه بشيء، وقد انعكس خلق الإيثار على أصحاب الرسول، ففي غزوة مؤتة قتل الأمراء الثلاثة الذين عينهم الرسول للقيادة: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، فالتقط

ثابت بن أكرم الأنصاري اللواء، وصاح في المسلمين أن اتفقوا على رجل منكم يكون أميرًا وقائدًا، فصباح بعض الناس قائلين: أنت يا ثابت فقال ثابت: ما أخذت اللواء لأصبح قائدًا، ونظر إلى خالد بن الوليد وقال: أنت يا خالد أحق باللواء؛ لأنك أعلم مني بشئون الحرب، وقال خالد لثابت: أنت أكبر سنًا ومن أصحاب الرسول في بدر، فأجاب ثابت: يا خالد ما أخذت اللواء إلا لك، وصاح بالمسلمين: أترضون بخالد؟ قالوا: نعم، فأصبح خالد أمير الجيش.

وكان الرسول يحاول أن يتعرف على حاجات أصحابه ويعمل على قضائها لهم، وكان يعد نفسه كفيلاً بطعام أهل الصفة الذين تفرغوا للعبادة بمسجد الرسول، وقنعوا بالقليل من ضرورات الحياة، وكان يكره أن يستخدم أصحابه في شيء يخصه، يروى أبو هريرة أنه ذهب مع الرسول إلى السوق ليشتري سراويل، فاشتراها من تاجر، وحاول أبو هريرةأن يحملها عنه فقال الرسول: صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله، واستكمالاً لهذه القصة يقول أبو هريرة إن الرسول كان سهلاً إذا باع وإذا اشترى، وأنه أوفى التاجر وزاد، وأن التاجر حاول أن يقبل يد الرسول، فجذب الرسول يده منه وقال: هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك إنما أنا رجل منكم.

وكان الرسول يحب الدعابة، ويبتسم لها، ويرى أنها تخفيف عن النفس من مشكلات الحياة، وربما شارك فيها، فيروى أنه قال لعمته صفية وكانت قد تقدمت في السن: يا عمة، لا يدخل الجنة عجوز، فأجهشت صفية بالبكاء، إذا حسبت أنها ستحرم من الجنة، ولكن الرسول سرعان ما قرأ لها هوهو يبتسم قوله تعالى: (إنا أنشاناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا) ففهمت صفية قصده، وعادت إلى السرور والأمل، ومن دعاباته أن أحد المسلمين طلب إليه أن يحمله على بعير، فقال له: سأحملك على ولد الناقة، وحسب الرجل أن الرسول سيقدم له بعيرًا حديث الولاة، فقال: يا رسول الله: ما أصنع بولد الناقة؟ فأجابه الرسول: أليس البعير ولد ناقة؟

وهناك قصة شهيرة ترينا أن الرسول كان بين أصحابه يبدو كواحد منهم، ولا يحب أن يمتاز عنهم بشيء، فيروى أنه كان مع بعض أصحابه، وأرادوا إعداد الطعام، وأعدوا لذلك شاة، فقال أحدهم: عليّ ذبحها، وقال آخر: وعليّ سلخها، فقال الرسول: وعلي جمع الحطب، فقالوا: يا رسول الله نكفليك هذا، فأجاب: إني أعرف أنكم تحبون أن تكفوني هذا، ولكني أحب أن أشارككم الأعمال، وأن أكون كواحد منكم ولا أمتاز عليكم بشيء، ومثل ذلك ما حدث عندما جاء له وقد النجاشي زعيم الحبشة، فقام يخدمهم بنفسه، فقال له أصحابه: نحن نكفيك هذا فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإني أحب أن أخدمهم بنفسي.

ومن الأدب العالي الذي قدمه الرسول لأصحابه في معاملتهم بعضهم لبعض قوله: من اطلع منكم في كتاب أخيه بغير أمره، فكأنما اطلع في النار.

وكان الرسول يأبى أن يظهر في أي مظهر من مظاهر السلطان أو الرياسة، وكان يقول لأصحابه: لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله، وقدم على أصحابه مرة فوقفوا له، فصاح بهم: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، وليجلس أحدكم حيث انتهى به المجلس.

وكان الرسول إذا جاءه أصحابه وهو يصلي خفف من صلاته ليسأل حاجتهم، وربما عاد للصلاة بعد ذلك، وكان أطيب الناس نفسًا وأكثرهم تبسمًا ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب، وضرب لأصحابه المثل في الاستهانة بالمال، فلم يهتم أبدًا بالادخار والغنى، وإنما كان خلقه الرضى والإيثار حتى ليروى أنه لم يشبع قط، وقد عانى الجوع غير مرة، وكان زهده في اللباس كزهده في الطعام، ولم يترك رسول الله دينارًا ولا درهمًا، ولا عبدًا ولا أمة ولا شيئًا إلا بغلته الشهباء

وسلاحه، وأرضًا تركها صدقة، وهو القائل في ذلك: نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة، ولذلك لم ترث زوجاته شيئًا مما كان له بخيبر وفدك، فقد رد أبو بكر ما كان يملكه الرسول للمسلمين، وعاشت الزوجات بما حدد لهن من أسهم في بيت المال[1].

ومن تكريم الرسول لأصحابه وحبه لهم أنه كان يغفر انحراف ذويهم ولعل أبرز مثال ذلك هو احتماله صلى الله عليه وسلم لنفاق عبد الله بن أبي وكراهيته للإسلام ولرسول الإسلام، وكان هذا الاحتمال من أجل عبد الله ابنه، فقد كان هذا مسلمًا حسن الإسلام على الرم من نفاق أبيه، وقد وصل من تكريم الرسول للابن أن قدم قميصه الطاهر ليكفن فيه الأب المنافق بعد موته.

وقد بلغ القمة التي لا يصلها أحد سواه عندما نزلت الآية الكريمة: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) [سورة التوبة: ٨١] فيروى أن الرسول لما نزلت هذه الآية استمر في تكريمه للابن الصالح وقال: لو أعلم أني إن زدت عن السبعين غفر له لزدت عليها.

وإذا كان الرسول قد بلغ هذا المدى من حبه لأصحابه، وتعاونه معهم، وحياته بينهم، فقد كافأة أصحابه بصور من التفاني فيه، والحب له، والتضحية من أجله بكل ما يملكون، فأبو بكر الصديق الذي كان غنيًا في مطلع الإسلام أنفق أكثر ماله في مكة، وأخذ ما تبقى من المال معه وهو مهاجر مع الرسول، ثم أنه كان كما ذكرنا من قبل يسبق الرسول أحيانًا وهما في الطريق إلى المدينة ويتبعه أحيانًا، فلما سأله الرسول عن ذلك قال: أتذكر التربص فأسبقك، وأتذكر اللحاق فأتبعك، فهو بذلك يريد أن يتحمل الردى عن الرسول.

ويروى كذلك أن أحد الصحابة واسمه زيد بن الدثنة، وقع في أسر المشركين فاشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه، وأوقفه صفوان وبدأ يطلق السهام حوله من كل جانب ليخيفه، وناداه أبو سفيان وهو في هذه الحال قائلاً: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا الآن يلاقي حتفه بدلاً منك وأنت في أهلك؟ فصاح زيد قائلاً: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأنا جالس في أهلي، قال أبو سفيان: ما رأيت أحدًا يحبه أصحابه كما يحب أصحابه محمد محمدًا.

وفي غزوة أحد عندما اتجهت جهود المشركين للقضاء على محمد وقف الصحابة درعًا حاميًا للرسول يتلقون عنه الضربات، ويهتفون بأنه لا تطيب لهم حياة إذا اغتيل الرسول أونزل به مكروه، وسنرى ذلك عند الحديث عن الغزوات.

وهكذا كانت حياة الرسول بين أصحكابه، وَضَعَ لهم نموذج التعاون والحب فاستجابوا، وظهر مجمع مثالي ما أحوجنا أن نتدارسه وأن نتمثل به، فإن فعلنا نلنا خير الدنيا والآخرة، وصدق الله العظيم الذي يقول (لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) [سورة التوبة: ١٢٨].

الرسول يربي الفرد المسلم

هناك رحلة طويلة من الكفر إلى الإيمان، وكان على العرب الذين تركوا عيادة الأوثان ودخلوا دين الإسلام أن يدركوا أبعاد هذه الرحلة، وأن يعرفوا ما يستوجبه الإيمان الحق من التزامات،

---

[1] البلاذري: أنساب الأشراف ص ٥٢٠.

ويروى عن عليّ بن أبي طالب أنه قال: كنا جلوسًا عند الرسول فأقبل علينا رجل من العالية فقال أخبرني يا محمد عن أشد شيء في هذا الدين والينه؟، فقال له الرسول: يا أخا العالية: ألين شيء في هذا الدين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأشده يا أخا العالية الأمانة، ألا إنه لا دين لمن لا أمانة له وإن صام وصلي.

وعلى هذا فقد قام الرسول صلوات الله عليه بالمدينة بجهد كبير ليقدم للمسلمين الآداب الجديدة التي خلقها الإسلام، والأخلاق السامية التي لم يكن للمجمع البشري عهد بها، وقد بذل الرسول في ذلك أقصى الجهد لإعادة بناء الفرد عقب دخوله الإسلام، فأخذ الرسول يعمل في جانبين متوازيين، الجانب الأول تطهير الفرد المسلم من أنواع الشرور والآثام التي كانت متفشية، والتي تميل لها النفس الأمارة بالسوء، أما الجانب الثاني فهو العمل ليكسب الفرد المسلم أسمى الصفات وأكرم السجايا، وذلك بتحديد الفضائل والحث على اتباعها والتمسك بها، وكان الرسول صلوات الله عليه يتخذ كل الوسائل لتربية الفرد المسلم وإعادة بنائه بالقول حينًا وبالسلوك حينًا آخر، وكان تأثير الرسول بكلامه وفعله شديدًا على المسلمين، فظهرت طبقة من الصحابة برزت فيهم صفات البر، واختفت صفات الانحراف، وسنعيش مع سيدنا رسول الله نعرض كلامه وتصرفاته وهو يعمل على تجنيب المسلمين الرذائل وعلى شدهم إلى الخير وتمكين الفضائل من نفوسهم، وليس ما نعرضه هنا إلا محاولة لتجديد العهد بصدر الإسلام حتى نستجيب لرسول الإسلام وهو يرشد ويعلم ويوجه.

وأول ما نبدأ به من صفات الرذائل التي حاربها الرسول صفة الظلم فالظلم من أخطر الصفات التي تهدد المجتمعات، وهو عدوان قويّ على ضعيف، كأنما ظن القوى أنه سظل قويًا، وحسب أن الضعف سيظل ضعيفًا، وهو حساب خاطئ فليس هناك شيء يدوم، ولذلك نجد سيدنا رسول الله يهاجم الظلم ويحذر منه قال عليه السلام:

- اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة.

- اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب (متفق عليه).

ويبين رسول الله أن الظالم سيقاد منه، ولن يفلت من العذاب، قال عليه السلام: "إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

"وإذا كان الظلم نهبًا أو استيلاء فإن الظام يطوق يوم القيامة بما نهبه أو اغتصبه، قال عليه السلام: من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أراضين" (متفق عليه).

ويكون الظلم أبشع وأفحش لو كان واقعًا من ولي الأمر على الرعية، فولي الأمر يفترض أن يكون حاميًا من الظلم وحارسًا للرعية، فإذا انقض علهيم ظالمًا وجائرًا كان عقابه مضاعفا وحسابه عند الله شديدًا، قال صلى الله عليه وسلم:

- ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة.

- اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فأشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتى شيئًا فرفق بهم فارفق به.

ومن الظلم ظلم ينزله الابن بوالديه وهو يسمى العقوق، والرسول يعد هذا العقوق نوعا من الكبائر ويخوف بأن عقوبته لن تكون في الآخرة فحسب، وإنما يعجل الله بها في الدنيا، قال صلى الله عليه وسلم:

- الكبائر ثلاثة الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس.

- ثلاثة لا ينفع معهن عمل: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف.

- كل الذنوب يؤجل الله منها ما يشاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات.

ومن الأخلاق الذميمة التي نهى الرسول عنها وكرر النهي، الرشوة، وهو داء يصيب بعض الناس ويوهمهم بأنه يجلب لهم الخير، وهو في الحق يجلب عليهم البلاء، ومال الرشوة يسحق ما يواجهه من أموال عند المرتشي، وفي عصرنا الحاضر تنتشر الرشوة باسمها الحقيقي أحيانًا، وباسم الهدية أحيانًا أخرى، وهي هنا وهناك سحت وضلال، وقال صلى الله عليه وسلم:

- لعن الله الراشي والمرتشي. (رواه الأربعة).

- من ارتشى في الحكم شدت يساره إلى يمينه ثم رمى به في قعر جهنم: (رواه الحاكم).

- الرشوة في الحكم كفر وهي بين الناس سحت. (رواه الطبراني).

- هدايا العمال غلول (متفق عليه).

ويحذر رسول الله من الكبر، ويدل تحذيره على أن المتكبر جاهل نسي تكوينه ومبدأ حياته ومنتهاها، ولو أنه تذكر ذلك أوتذكر من سبقوه بما كان لهم من جاه وسلطان، ثم ما انتهى إليه أمرهم، ما بقي في نفسه شيء من الكبر، وعن خلق الكبر يقول صلى الله عليه وسلم:

- من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كبه الله على وجهه في النار (رواه أحمد).

- من تعظم فس نفسه واختال في مشيئته لقي الله تعالىوهو عليه غضبان:

وفي بناء الفرد المسلم يهتم الرسول اهتمامًا كبيرًا بالنهي عن التجسس ومحاولة كشف مساوئ الناس وعيونهم، قال صلواتالله عليه:

- من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهمأن يفقئوا عينه.

- من استمع لحديث قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنك (الرصاص المذاب).

- كل أمتى معافى إلا المجاهرون (فإذا كان قد الله قد ستره فليس لمسلم أن يكشف ستره).

- لا تتبعوا عورات المسلمين، فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله.

وليس من التجسس أن تتبع إنسانًا غلب على الظن أنه يريد الفتك بإنسان أو ارتكاب كبيرة لتمنعه من ذلك.

وينزه الرسول الإنسان المسلم عن الخلاف، وقد سبق أن أوردنا أن الرسول عندما أرسل عمرو بن العاص على رأس بعث ثم أمده بجند بزعامة أبي عبيدة بن الجراح أوصى الرسول أبا عبيدة بقوله لا تختلفا، وكم من مفاسد ترتكب بسبب الخلاف والصراع، وفي المجتمعات أفراد كأنما يبحثون عن مواطن الخلاف، ومثل هؤلاء يتخلقون بأخلاق تدمر المجتمع وتأتي عليه.

وفي بناء الفرد المسلم نجد الرسول صلوات الله عليه يتبع أرقى ألوان الفكر عندما يقول: إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر، وينهى الرسول عن الجلوس على الطرقات إلا بعد أداء

حقها، فعن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إياكم والجلوس على الطرقات، فقالوا يا رسول الله: ما لنا بد، فقال: فإن أبيتم إلا الجلوس فأعطوا الطريق حقه، وقالوا وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر، وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

تلك وقفة قصيرة مع الرسول صلوات الله عليه، وهو يجنب الفرد شرور النفس وآثامها، فإذا جئنا إلى الجانب الآخر الذي يحث الرسول فيه الفرد المسلم على كريم الصفات وجميل السجايا، وجدنا ثروة هائلة تجعل من الإنسان صورة طيبة ونموذجًا حيًا يتناسب مع الصورة التي أرادها الله للإنسان المسلم، وستذكر في هذا المجال بضعة أحاديث تصور أهم الجوانب في بناء الإنسان المسلم.

وأحاديث الرسول في هذا المجال تتدرج في بناء الإنسان: فهي تتجه في المقام الأول لتعليمه الصدق والأمانة والكرم والإخلاص في العمل وما ماثل ذلك، ثم تتجه بعد ذلك لتعلمه رعاية الآخرين، فتحثه على صلة الرحم وأداء حق الجار والتنفيس عن المعسر، وتنتقل الأحاديث خطوة أخرى فتحث على الدقة في اختيار الصديق، ولما كانت الحياة تحتاج لحراسة فإن الأحاديث توضح أن المجاهدين والمرابطين لهم عند الله أحسن الجزاء فهم يقدمون النفس والدم إذا قدم الكرماء المال والمتاع، وتتجه أحاديث الرسول في مجال بناء الفرد إلى اتجاهات أخرى متعددة سنراها فيما بعد.

عن الصدق يقول صلى الله عليه وسلم:

- عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الهل كذابًا، (رواه البخاري).

- وعن الأمانة يروي علي بن أبي طالب رضي الله عنه الحديث الذي سبق أن أوردناه في مطلع هذا الكلام مرتبطًا بالرجل الذي جاء من أهل العالية.

- وعن الإخلاص في العمل وإجادته يقول عليه الصلاة والسلام: إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه.

- وعن أنسب وقت للصدقة يروي أبي هريرة أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له يا رسول الله: أي الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: أن تصدق وأنت صحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت هذا لفلان وهذا لفلان.

- وعن صلة الرحم يروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في عمره فليصل رحمه. (متفق عليه).

- وعن حق الجار يقول صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، وقيل للرسول: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل لكنها تؤذي جيرانها، فقال: هي في النار.

- وعن التنفيس عن المدين يقول أبو فتادة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه، ويروى جابر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: رحم الله رجلاً سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى.

- وعن الدقة في اختيار الصديق يقول صلى الله عليه وسلم: المرء مع من أحب، ويقول: الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل (رواه أبو داود).

وعن جزاء المجاهد يقول صلى الله عليه وسلم: من قاتل في سبيل الله وجبت له الجنة.

- وعن الحث على البعد عن الفقر والحرمان والعوز يقول صلى الله عليه وسلم: اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى (متفق عليه).

- وعن الرفق بالناس يقول عليه السلام لعائشة يا عائشة عليك بالرفق، فإنه لا يدخل شيئًا إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه، وإن الله رفيق يحب الرفق (رواه مسلم).

- وعن حسن معاملة الخدم يقول ابن مسعود: كنت أضرب غلامًا لي فسمعت صوتًا من خلفي يقول: اعلم يا ابن مسعود، فلم أفهم الصوت من شدة غضبي، فلما دنا مني صاحب الصوت وحدته رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: اعلم يا ابن مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام، فقلت يا رسول الله: هو حر لوجه الله تعالى، فقال: لو لم تفعل للفحتك النار (رواه مسلم).

تلك نماذج قليلة، وهناك آلاف مثلها من أحاديث الرسول وهو يربي الفرد المسلم، مرتبطة هذه الأحاديث بأحداث ومواقف، أو كانت من التوجيه العام، ولا شك أن هذا اللون من التربية شغل حياة الرسول في مقامه وسفره، ويجب على كل مسلم أن يتعرف على هذه التوجيهات وأن يعمل بها ليسعد في الدنيا والآخرة.

الرسول يربي المجتمع الإسلامي

عايشنا رسول الله آنفًا وهو يبني الفرد المسلم، ورأيناه كذلك وهو يقيم الروابط بين الأفراد بالمؤاخاة، ثم وهو يبني المساجد تجتمع فيها جموع المسلمين في الجمعة والجماعة وغيرها، ولمريد أن يعايش الرسول صلوات الله عليه وهو يبني المجتمع بخلق روابط بين أفراده وجماعاته ليتألف من هؤلاء الأفراد وهذه الجماعات مجتمع متحاب متعاون.

والذي يتتبع أحاديث الرسول وتصرفاته في هذا المجال يجده قد بذل جهدًا كبيرًا في الإرشاد لتكوين مجتمع الأسرة، وهو المجتمع الصغير الذي يتكون من وحداته المجتمع الكبير، وقد عنى الرسول بمجتمع الأسرة عناية كبيرة، فحث على الاهتمام باختيار الزوجة الصالحة بقوله تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس، ثم حث على العناية بالأولاد والعدالة بينهم في العطاء والمعاملة، وأفاض في الحديث عن بيان حقوق كل من الزوج والزوجة تجاه الآخر، وأوضح التكافل بين الوالدين والأبناء وألزم الأبناء برعاية الآباء حتى مع اختلاف الدين، يروى أحمد أن قتيلة قدمت على ابنتها أسماء بنت أبي بكر، وكان أبو بكر قد طلقها في الجاهلية، فترددت أسماء في استقبال أمها وقبول هداياها وبعثت إلى رسول الله تسأل عن هذا، فأخبرها الرسول أن تحسن استقبالها وتقبل هداياها، فنزلت الآية الكريمة (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم) [سورة الممتحنة: ٨]، ونظم الرسول كذلك حقوق ذوي القربى، وغير هذه من الموضوعات الخاصة بالأسرة، وحسن تكوينها وتآلفها وقد شرحنا ذلك بإفاضة في مكان آخر[١].

---

[١] الحياة الاجتماعية في التفكير الإسلامي للمؤلف ص ٦٣ وما بعدها.

وفي بناء المجتمع الإسلامي اتجه الرسول اتجاهًا أشمل وأفسح، ورسم خطوطًا لو اتبعها المسلمون لتكون منهم أعظم مجتمع عرفته البشرية، وشملت هذه الخطوط تنظيم الصلة بين الحاكم والمحكوم، وشرح النظام الاقتصادي الذي يبرز التزامات الغنى وحقوق الفقراء، ويؤكد ضرورة تطبيق التشريعات الإسلامية التي حفلت بها فترة المدينة، وبجانب هذه الأسس الكبيرة كان الرسول يتلمس الوسائل ليجعل كل إنسان يحس بأنه جزء من هذا المجتمع الإسلامي، وأن عليه أن يعمل لإسعاده ورفع شأنه، وأن الفرد لا يحقق النجاح لنفسه إلا بنجاح مجتمعه.

وقد كان من أهم ما عنى به الرسول صلوات الله عليه أن يحس المسلم بشمول الأخوة بينه وبين جميع المسلمين أخذًا من قوله تعالى: (إنما المؤمنون إخوة) هذا المعنى الذي اهتم الرسول تمام الاهتمام بتأكيده وشرحه وتكراره في أحاديث ومناسبات متعددة نذكر منها:

- المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله.

ثم يتجه الرسول لبيان مستلزمات هذه الإخوة، وأن الحرص عليها وتقويتها فيه خير للجميع، قال عليه السلام:

- المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا. (متفق عليه).

- لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا (رواه مسلم).

- مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.

وينتقل الرسول من تصوير الأخوة على هذا النمط إلى صورة أخرى أرفع، هي أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه، قال عليه السلام:

- والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (الشيخان).

ثم يصل الرسول إلى القمة عندما ينقل الحب إلى العمل لصالح من أحب، فإذا كان الإسلام ألزم المسلم أن يحب أخاه المسلم، فإن عليه رعاية لهذه الأخوة أن يساعده ويعمل لإسعاده، وفي ذلك نجد فيضًا من أحاديث الرسول التي إن وعاها المسلمون واتبعوها حققوا لمجتمعهم أسعد حياة، قال عليه السلام:

- ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بل يا رسول الله، قال إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة (رواه أبو داود).

- من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب الآخرة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه (متفق عليه).

- إن شجرة كانت تؤذي المسلمين فجاء رجل فقطعها فدخل الجنة (رواه مسلم).

- سأل أبو برزة النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلمه طريقًا ينتفع به، فقال له عليه السلام اعزل الأذى عن طريق المسلمين (رواه مسلم).

- عُرضت على أعمال أمتي حسنها ومسيئها، فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق.

- أن تعدل بين الاثنين صدقة، والكلمة الطيبة صدقة (متفق عليه).

- ما من مسلم يغرس غرسًا فيأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة. (رواه مسلم).

وهكذا نجد أحاديث الرسول اشتملت العمل الصالح الذي يوجه لخدمة واحد بعينه أو يوجه لخدمة المجموع نظر للأفراد، وكان الرسول في قيادة المجتمع قدوة طيبة يابشر هذه الاتجاهات والفضائل، فكان يدعو بعمله بمثل ما يدعو بقوله، مما خلق مجتمعًا متعاطفًا متحابًا، زلزل عروش الباطل وأقام صرح الإسلام في أقصر فترة عرفها التاريخ.

أخلاق إسلامية يغرسها الرسول

هناك أحاديث شريفة ترتبط بأحداث محدودة روينا منها ونحن نتكلم عن الرسول صلوات الله عليه وهو يبني الفرد المسلم، أو المجتمع الإسلامي، وهذه أشبه الصقد المتكامل، أو بباقة من الزهر منتظمًا، وهناك أحاديث لا نعرف أنها ارتبطت بحادثة معينة وإنما هي ثقافة عامة لجماهير المسلمين، وهي كذلك تغرس في نفوسهم أخلاق الإسلام فيما يقابله المسلم من شئون، وهذه أشبه بالزهرات على الغصون طبيعية غير مصنوعة، والأحاديث الشريفة التي جاءت لمناسبة أشبه بآيات الذكر الحكيم التي نعرف لها سبب نزول، وأما الأحاديث العامة فاشبه بآيات القرآن الكريم التي لا ترتبط بأسباب نزول.

ونقطة أخرى نقدم بها كلامنا عن الأخلاق الإسلامية، هي أن الإسلام قدم للمجتمع أخلاقًا لم تكن موجودة من قبل، بل لا يستطيع المجتمع البشري حتى الآن أن تبنى الأخلاق الإسلامية بكل اتجاهاتها، فقبل الإسلام كانت العدالة والوفاء بالوعد تعد ضعفًا، ولهذا هجا شاعر إحدى القبائل بأنها لا تغدر ولا تظلم فقال:

قبيلته لا يفدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

ومثل ذلك ما قاله الآخر: ومن لا يَظْلم الناس يُظْلم.

فجاء الإسلام وفرض العدالة، بل أوحى بما هو أسمى من العدالة وهو الإحسان، وقبل الإسلام لم تكن المساواة موجودة، إذ كان العالم منقسمًا إلى سادة وعبيد، ومع اختفاء الرق في عصرنا الحاضر فإن المساواة لا توجد الآن، فلا يزال هناك في أرق البلاد نزعات التفرقة العنصرية ولا يزال في العالم ظلم ونهب يتضحان من الاستعمار أو بقاياه ولا يزال هناك جبابرة يخيفون الناس ويسعدون بأنهم مصدر خوف ورعب، وهذا وسواه لأن المجتمع البشري لم يصل بعد إلى الغاية التي سعى لها الفكر الإسلامي في مجال الأخلاق.

ما الأخلاق الإسلامية التي قدمها رسول الله وجهد ليغرسها في المجتمع الإسلامي؟ ذلك ما سنحاول الحديث عنه هنا.

ومن قراءاتي لأحاديث سيدنا رسول الله أستطيع أن أبدأ بأن أكون من الأحاديث المتناثرة صورة متكاملة لآداب اجتماع من الاجتماعات أو حفل من الحفلات، فإذا كنت مقدمًا على اجتماع، فإن الرسول يضع لك إرشادًا عنم كل مرحلة من مراحل هذا الاجتماع أو الحفل؛ من الاستعداد له حتى الانتهاء منه، ومن الواضح أن الرسول لم يذكر هذه الأحاديث بهذا التسلسل، ولكني أستطيع أن أضم الأحاديث بعضها إلى بعض لتشمل هذه الغاية، وبعد ذلك تسجل مجموعة أخرى من الأحاديث عن صور أخرى من الأخلاق الإسلامية.

وأول ما نذكره متصلاً بالاشتراك في الاجتماعات أن المسلم إذا كان مقبلاً على اجتماع خاص أو عام أن يُعد نفسه لذلك بالنظافة وحسن السمت، وألا يأكل بصلاً أو ثومًا أو طعامًا تؤذي رائحته، وفي ذلك يقول عليه السلام:

- بني الدين على النظافة، والنظافة من الإيمان.

- كان رسول الله يكره رائحة العراق في المسجد.

- من أكل هذه (البصل أو الثوم) فلا يغشى مجلسنا حتى يزول منه الريح.

- إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده.

فإذا طرقت الباب للدخول فسألك أصحاب البيت: من الطارق، فلا تقل: "أنا" فقط وهذا ما يحدث في كثير من الأحوال، بل قل: أنا فلان، فعن جابر قال: أتيت الرسول صلوات الله عليه فدققت الباب، فقال: من ذا؟ فقلت: أنا، فقال أنا! كأن لا أحد إلا أنت. إذا دق أحدكم الباب فسئل من الطارق؟ فليقل: أنا فلان.

وإذا دخلت إلى مجتمع قليل الأشخاص وقام لك الحاضرون فصافحهم، وإذا لم يقوموا فقل "السلام عليكم ورحمة الله، واجلس حيث انتهى بك المجلس.

- عن أبي الخطاب قال: قلت لأنس: أكانت المصافحة في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم.

- دخل الرسول على جماعة فقاموا له: فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة.

وإذا كان اللقاء مع رجل شديد الصلة بالإنسان جاز عناقه وتقبيله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم زيد بن حارثة المدينة وجاء إلى بيتي واستأذن فاستقبله الرسول واعتنقه وقبله.

وإذا جلس القادم فينبغي ألا يكون مجلسه في مجلس رجل قام له بدون إذنه، وألا يفرق بين اثنين بدون إذنهما، فعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

- لا يقيمن أحدكم رجلاً م مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن توسعوا وتفسحوا.

- لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين في مجلس إلا بإذنهما.

وفي تقدير الإنسان للجالسين ينبغي للإنسان أن يلاحظ السنَّ وأقدار الناس، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ما أكرم شاب شيخًا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند تقدم سنه، وعن السيدة عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنزلوا الناس منازلهم.

وإذا تكلم الناس فليترك الجالس ما لا يعنيه فلا يتكلم فيه، قال: عليه السلام: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه (رواه الترمذي).

- وإذا كان هناك طعام فإن الرسول يضع آداب تناول الطعام في أروع صورة، قال عليه السلام:

- كل بيمينك، وكل مما يليك.

- نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع (متفق عليه).

- عن عائشة قالت: أول بدعةحدثت بعد رسول الله، الشبع، ورسول الله لم يشبع قط، وكان طعامه الكفاف.

- وعنها أيضًا قالت: لم يمتلئ جوف النبي شبعًا قط، وكان في أهله لا يسألهم طعامًا ولا يتشهاه، إن أطعموه أك، وما يقدم له يقبله.

- ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا بد آكلاً، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسه.

- إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن العبادة، ومفسدة للجسم، ومؤدية إلى القسم، وعليكم بالقصد في قوتكم فهو أبعد عن السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة.

- لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء.

بقي بعد ذلك أن نورد مجموعة من الأحاديث عن صور أخرى رائعة من الأخلاق الإسلامية، قال صلى الله عليه وسلم في الرجل يخيف الناس فيتقي الناس شره، إن شر الناس من وَدَعَه الناس اتقاء شره.

وكان رسول الله يوصي بالبهائم، ويأمر بحسن استعمالها، ومن الأحاديث الشهيرة في ذلك قوله:

- دخلت امرأة النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها وسقتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض.

- اتقوا الله في البهائم المعجمة.

- غفر الله لامرأة مذنبة لأنها رأت كلبًا يلهث من العطش فقدمت له الماء.

بل كان الرسول يوصي بالأشياء التي لها ارتباط بالإنسان، ومن هنا كان يطلق أسماء طبيبة على بعض هذه الأشياء، فكان يسمى قصعته "الغراء" ومرآته "المُدِلة".

وَيعد الرسول صلوات الله عليه الذين يقضون حوائج الناس بالنجاة من النار فيقول: إن لله تعالى عبادًا اختصهم بحوائج الناس، يفزع إليهم الناس في حوائجهم، أولئك هم الآمنون من عذاب الله.

ونختم هذه المجموعة من الأحاديث بذكر حديث يوضح اختلاف الحكم مع اختلاف الظروف، فقد روى سلمة بن الأكوع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في عام من الأعوام عن الأضحية، من ضحكى منكم فلا يصبحن بعد ثالثة وفي بيته من أضيحته شيء، فلما كان العام المقبل قالوا: يا رسول الله نفعل كما فعلنا في العام الماضي؟ فأجاب: لا، كلوا وأطعموا وأدخروا، فإن العام الفائت كان بالناس جهد، فأردت أن تعينوا على الجهد.

الرسول يربي القضاة

يهتم الإسلام بالقضاء اهتمامًا كبيرًا، فالعدالة في القضاء مزدوجة الفائدة، فيها إنصاف للمظلوم لتهدأ نفسه، وفيها تخويف للظالم حتى لا يتكرر ظلمه، وقد وقف الرسول صلوات الله عليه من القضاء موقف الشارح البارع للقرآن الكريم، المطبق للفكر الإسلامي في هذا المجال المهم، والذي يتابع مواقف الرسول في مجال تربيته للقضاة يجد أن هذه المواقف شملت القضاء من جميع جوانبه ومراحله، كما توضح ذلك الاقتباسات التالية:

وأول موقف يلحظه الباحث أن الرسول اتخذ المسجد مكانًا للقضاء، واتخاذ المسجد مكانًا للقضاء يحمل معنى أشار له ابن القيم[1] وهو قدسية القضاء، فما دام القضاء يعقد في بيت الله فإن قدسيته تصبح واضحة، وإذا كان القضاء قد عقد بعد ذلك في أمكنة أخرى، واتخذت له قاعات خاصة قد انسحبت القدسية إلكل مكان يقام فيه، وذلك ضمانًا للعدالة وإحساسًا بالمهمة الكبرى التي يزاولها القاضي.

وانعقاد جلسة القضاء في المسجد وضع أساسًا ضروريًا لهذه الجلسة هو "العلنية" أي أن تكون جلسة القضاء مفتوحة للجميع، ويمكن لأي فرد أن يدخل ساحة المسجد ويتجه إلى حيث يكون مجلس القاضي، وحضور الجماهير هذه الجلسة سيكون نوعًا من التعليم والتدريب من جانب، وسيضمن من جانب آخر عدالة الحكم؛ لأن الجماهير ستكون بمثابة المراقب الذي يحس بقدر التهمة، ومدى الأدلة، ونوع الحكم.

وبعد الحديث عن مكان التقاضي نتابع الرسول صلوات الله عليه وهو يبرز لنا أهم شروط القاضي والتزاماته، ولعل أول شرط نقتبسه من كلام الرسول هو شرط العلم الذي لا يجلس الإنسان مجلس القاضي بدونه، يقول عليه السلام:

القضاة ثلاثة: قاض في الجنة وقاضيان في النار، قاض عرف الحق فقضى به فهو في الجنة، وقاض عرف الحق فقضى بخلافه فهو في النار، وقاض قضى على جهل فهو في النار[2]. فالجزء الأخير من الحديث يقرر أن القاضي الجاهل بالأحكام يُدْفع للنار وإن اصاب في قضائه لأن إصابته جاءت مصادفة، والقاضي لا بد أن يكون على درجة كافية من العلم ولا تتحكم المصادفة في أحكامه.

ونستمر مع هذا الحديث الشريف فترى جزأه الأوسط يقدر ضرورة العدالة، ويراها من أبرز شروط القاضي، فالقاضي الذي عرف الحق وقضى بسواه يدفع به إلى النار مع القاضي الجاهل؛ لأنه لم ينتفع بما علم ولم يؤد حق الله، ويتكرر هذا المعنى في حديث آخر رواه البيهقي ونصه: إذا جلس القاضي في مكانه هبط عليه ملكان يسددانه ويوفقانه ويرشدانه، ما لم يجر، فإن جار عرجا وتركاه، وهكذا نجد عون الله مع القاضي الذي يتجه للعدالة، أما الذي يتجه للجور والظلم فيكله الله لنفسه، والويل كل الويل لمن لا يكون معه عون الله وتوفيقه.

وهناك خصلة يبرزها الرسول للحكام بوجه عام وللقضاة بوجه خاص، تلك هي البعد عن شبهات الرشوة والهدايا، يقول صلى الله عليه وسلم: هدايا العمال غلول، ويعد القاضي من أول العمال الذين يحرم عليهمأي شيء يشكك أو يؤثر في عدالتهم، حتى أن القضاة المسلمين كانوا يكرهون أن يتخذوا أصدقاء يكثرون التردد على منازلهم، إذا قد يتوهم الناس أن هذا الذي يتردد على بيت القاضي له عنده منزلة قد تتخذ أساس استغلال غير مشروع.

وتنتقل بنا أحاديث الرسول إلى نقطة أخرى مهمة؛ هي التسوية بين المتخاصمين في مجلس الحكم، وفي هذا الصدد يروى أبو داود عن عبد الله بن الزبير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قضى أن الخصمين يقعدان بين يدي القاضي، ولم يكتف الرسول بالمساواة في المجلس بل ألزم القاضي أن يسوي بين الخصمين في نقاط دقيقة نراها في قوله صلى الله عليه وسلم: سو بين الخصمين في لحظك ولفظك.

---

[1] زاد المعاد ج ٢ ص ٥٦.

[2] رواه أبو داود.

وبعد الجلسة والمساواة فيها، تجيء إرشادات الرسول حول ضرورة سماع طرفي الخصومة قبل الحكم، وهو في ذلك يقول: إذا جلس الخصمان بين يديك فلا تقض حتى تسمع كلام كل منهما، فإنه أحرى أن يتبين لك وجه الحق.

وعند سماع الطرفين ينبه الرسول إلى موضوع خطير هو إمكان أن يكون أحد الطرفين فصيحًا وأن يكون في الآخر عي مما قد يؤثر على القاضي، وفي ذلك يقول المعلم العظيم: إنكم تختصمون إليّ وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم يكون أبلغ بحجته من الآخر، وإنما أقضى بينكم على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنما ذلك قطعة من النار يأتي بها في عنقه يوم القيامة.

ويروى في هذا المجال أن رجلين اختلفا في ميراث وتقاضيا أمام الرسول، فقال لهما هذا الحديث، فخاف كل منهما أن ينال من صاحبه أكثر من حقه، فقال كل منهما للآخر: تركت حقي لك، فقال الرسول لهما: أما الآن فقوما واقتسما وتوخيا الحق، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه.

وبعد سماع الطرفين على النحو السابق يجيء دور الأدلة، ويوضح الرسول أن البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، وقد طلب الرسول البينة مرة من مدع فأجاب هذا: ما عندي شهود فالعمل الذي بيننا لم يحضره أحد، فقال الرسول إذن اليمين على صاحبك، فقل المدعي هذا، ولكن الرسول ذكر المنكر قبل أن يقسم بأن "من حلف يمينًا يقتطع بها مال امرئ بغير حق جاء يوم القيامة وهذا الحق معلق في رقبته" فخاف الرجل ولم يحلف اليمين، وترك ما اختلفا عليه للمدعي.

وبعد سماع قول الطرفين وسماع الشهود أو اليمين، يجيء دور الحكم الذي ينبني على النص أو على الاجتهاد وقد وضع الرسول أسس التدرج في ذلك في حديثه مع معاذ بن جبل عندما اختاره ليرسله لليمن داعية وقاضيًا، وقد ذكرنا هذه المحادثة عند كلامنا عن تربية الرسول للعلماء والدعاة، وخلاصتها أن القاضي يتبع كلام الله، فإن لم يجد فيه نصًا يعينه اتبع كلام رسول الله، فإن لم يجد حديثًا يساعده اجتهد رأيه في حدود الإطار الإسلامي الشامل، وعندما قال معاذ للرسول ذلك فرح الرسول وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله.

ومن روعة الإسلام أن المجتهد عن علم يثاب على اجتهاده ومحاولته حتى وإن أخطأ، وفي ذلك يقول الرسول عليه السلام: إذا اجتهد القاضي فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فله أجر واحد.

ومن تقدير الاجتهاد ما روى أن رجلاً جاء يشكو إلى إلى عمر من أمر، فأحاله عمر إلى عليّ بن أبي طالب، وقضى علي في المسألة برأيه إذ لم يكن هناك نص يلجأ له؟ وبعد فترة التقى عمر بالرجل الشاكي فسأله عمر: ماذا فعل علي في شكاتك؟ فأخبره الرجل، فقال عمر: لو كنت أنا الذي قضيت لقضيت بكذا.

وكان رأي عمر في صالح الرجل فصاح به الرجل: وما يمنعك والأمر لك؟ قال عمر: وكيف أعرف أن رأيي أفضل من رأي علي.

ولم يغير عمر الحكم الذي قضى به علي.

ويوضح الرسول أبلغ وضوح أنه لا شفاعة في الحكم، وأن القوانين الإسلامية يستوي في الخضوع لها الملك المتوج والفقير البائس، فعندما سرقت امرأة من بني مخزوم وهم من أشراف قريش توقع قومها أن الرسول سيقيم عليها الحد، فتشفعوا للرسول بأسامة بن زيد، فلما تكلم أسامة مع الرسول في ذلك صاح فيه الرسول: أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟ إنما هلك

من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف عاقبوه، وأيم الله لوأن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها (رواه البخاري).

وقد تأثر القضاة المسلمون تأثرًا عميقًا بهذا الاتجاه النبوي الكريم، ومن ذلك ما يذكره الكندي أن توبة بن نمر الحضرمي لما ولي القضاء دعا زوجته وسألها: كيف علمت محبتي لك؟ قالت: جزاك الله من عشير خيرًا، فقال توبة والآن وقد علمت ما بلينا به من أمر الناس، فأنت طالق.

ولم تتركه الزوجة يكمل ما يريد أن يقول، فصاحت خائفة من الطلاق، ولكنه قال لها اصبري حتى تسمعي ما أريد أن أقول، أنت طالق إن كلمتني في خصم أو تشفعت في قضاء، فيروى أنها كانت ترفض أن تضع له الماء في الدواة خشية أن يكون في ذلك إشارة إلى استعجال في قضاء[1].

وهكذا كان نهج الرسول في القضاء تعليمًا وتهذيبًا للأجيال بدءًا من أسامة بن زيد ومعاذ بن جبل واستمرارًا حتى الآن، ودائمًا في كل زمان ومكان، لأنه نهج سليمفي إرشاد من هدي الله ومن موهبة الرسول، وما أعظم النهج الذي يتخذ هذين أساسًا له.

الرسول يربي الولاة والحكام

لقد شاهد الرسول وهو بالمدينة اتساع الدولة الإسلامية التي أوشكت أن تشمل الجزيرة العربية كلها، ودعا الرسول أمراء البلاد المحيطة بالجزيرة وملوكها إلى الإسلام، وامتدت آماله إلى دخول هذه الممالك في حوزة دين الله، ومن هنا اتجه الرسول لتربية الولاة على الأقاليم في عهده وتربية الحكام من بعده، وكان النمط الذي حرص الرسول عليه يتمشى مع قوله عليه السلام "اثنان من أمتي إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسدت الناس: العلماء والأمراء" فالرسول صلوات الله عليه يدرك أهمية الحاكم بالنسبة للرعية، فإذا كان صالحًا أحسن اختيار معاونيه، وأحسن معاونوه بالتالي سلوكهم مع الرعية، فتستقر الأمور ويسعد الناس، وعلى عكس ذلك يكون الحاكم الفاسد.

وتعاليم الرسول في مجال تربية الولاة والحكام تتدرج تدرجًا طبيعيًا، فهي تتحدث عن ضرورة الرئيس، ثم تنثني للحديث عن شروطه والتزاماته، ثم تلزمه بحسن اختيار معاونيه، ومتابعتهم، ... وسنروي من أحاديث الرسول فيما يلي ما يوضح هذه الخطوات.

فعن ضرورة الرئيس والرائد يقول صلى الله عليه وسلم:

- إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا عليهم أحدهم.

- لا يحل لثلاثة يكونون في خلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم.

وعن شروط الرئيس أو الحاكم يضع الرسول صلوات الله عليه العلم والعدالة في قمة هذه الشروط، ويحذر من الظلم والجهل وغش الرعية، وفي ذلك يقول عليه السلام:

- إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسًا أمام عادل، وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأبعدهم منه مجلسًا أمام جائر.

---

[1] قضاة مصر ٣٧.

- كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وهي مسئولة عنه.

- ما من أمير بات ليلة غاشًا لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة.

- ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة.

ويحذر رسول الله أولئك الأمراء والولاة الذين يعذبون الرعية بأية صورة من صور التعذيب، وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: "إن الله يعذب في الآخرة من يعذبون الناس في الدنيا، ويقول: اللهم من ولى من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به.

ويوجه الرسول صلوات الله عله اهتمامًا كبيرًا إلى اختيار المساعدين، وينزل المسئولية على الرئيس إن أساء الاختيار، أو إن أغضى الطرف عن إهمال معاونيه وهو في ذلك يقول:

- من ولي من أمر المسلمين شيئًا فولي رجلاً وهو يجد من هو أصلح منه فقد خان الله وخان رسوله وخان جماعة المسلمين.

- من قلد رجلاً على عصابة وهو يجد في تلك العصابة من هو أرضى منه، فقد خان الله وخان رسوله وخان جماعة المسلمين.

وألزم الرسول الحكام والولاة أن يستشيروا استشارة خاصة أو عامة فيما يعرض لهم من شئون ليس فيها نص صريح، وأن يقبلوا رأي الأغلبية، ففي غزوة بدر أراد الرسول أن ينزل بجنوده منزلاً، فسأله الحباب بن المنذر: هل أنزلك الله هذا المنزل أو هو اجتهاد من عندك؟ فأجاب الرسول: إنه اجتهاد من عندي، فقال الحباب: أما إذ كان الأمر كذلك فليس هذا بمنزل، وأشار بمكان آخر أيده فيه المسلمون فارتضاه الرسول.

وفي غزوة الأحزاب اتفق الرسول مع أهل الطائف على أن ينفضوا ويفكوا حصار المدينة، وأعد لهم وثيقة نظير ذلك بأن يعطوا ثلث ثمار المدينة، وعرض هذه الوثيقة على زعماء المدينة لتوقيعها فسأله سعد بن معاذ عما إذا كان للوحي دخل في هذا الاتفاق؟ فقال له الرسول: إنما هو أمر صنعته للمسلمين راجيًا من ورائه الخير، فرفض أهل المدينة التوقيع على الصحيفة، وقال سعد: إنهم لم ينالوا منا في الماضي ثمرة إلا قرى، أفبعد أن أعزنا الله بك يأخذون ثلث ثمار المدينة عنوة، لا والله ورجع هذا الرأي وارتضاه الرسول[1].

وعن الشورى، يقول أبو هريرة: ما رأيت أحدًا قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله، وكان أبو بكر وعمر في مقدمة الصحابة الذين كان يعتمد عليهم في الاستشارة، ويروى أنه قال لهما: وايم الله أو أنكما تتفقان على أمر ما خالفتكما فيه.

ويؤكد الرسول أن الولاية على الناس مهمة صعبة وأنه ينبغي ألا يتقدم لها إلا من عرف في نفسه أنه أهل لها، فإن تقدم لها من ليس أهلاً لها وخدع الناس حتى اختير لهذا المنصب، فإنه ينطبق عليه قوله صلى الله عليه وسلم:

- من أم قوما وهم له ارهون، لم تجز صلاته أذنيه.

---

[1] رواه البخاري.

- إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون عليكم يوم القيامة ندامة.

ويوضح الرسول صلوات الله عليه وسلم أن الله يعين من اختير للرياسة بواسطة الناس، أما الذي يسعى لها دون التأكد من التزاماتها، فإن الله لا يعينه ويكله إلى نفسه، وفي ذلك يقول عليه السلام لعبد الرحمن بن سمرة: لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، ويروى أن أبا ذر قال للرسول: ألا تستعملني يا رسول الله؟ فضرب الرسول بيده على منكبه وقال: يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وهي يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها[1].

وعندما يختار الرئيس على هذه الأسس تجب طاعته ما لم يأمر بمعصية فلا تجب الطاعة، قال عليه السلام: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وهناك موضوع مهم اهتم به الرسول صلوات الله عليه، ذلك هو أنه ليس من حق الحاكم أن يتجسس على الرعية وأن يبحث عن عوراتهم، فليس له دخل في عقائدهم، ولا فيما يسترون ما دام ذلك لم ينقلب إلى إثارة أو عمل يضر بالدولة، وفي ذلك يقول عليه السلام:

- إن الأمير إذا ابتغي الريبة في الناس أفسدهم.

- لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف داره.

- ويروى أن رجلاً مشركًا فر أمام أسامة بن زيد في إحدى المعارك ولحق به أسامة فنطق الرجل بالشهادتين، ولكن أسامة ضربه ضربة قاتلة، فلما عرف الرسول ذلك صاح بأسامة: أقتلته بعد أن قالها؟ قال أسامة: إنه قالها متعوذًا بها، قال الرسول هل شققت عن قلبه لتعرف ذلك؟

واهتم الرسول اهتمامًا كبيرًا بتحريم الهدايا على العمال إحساسًا منه أنها رشوة قدمت باسم الهدية، ويروى أبو سعتيد الخدري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال في ذلك: هدايا العمال غلول (أي سحت وضلال) وقد سبق أن ذكرنا ذلك.

وهكذا نجد الرسول صلوات الله عليه أحاط بكل الشئون في مجال تربية الحاكم والوالي، ويوم ينتفع المسلمون باتجاهات الرسول في هذا المجال، فإن حالهم يصبح غير ما هم عليه الآن، حيث أصبح الحكم مغنمًا يسعى له كثيرون ممن لا كفاءة لهم، وممن لا يعرفون الفكر الإسلامي ولا يدينون به، ومن هنا يحيط هؤلاء أنفسهم بعناصر من طبقتهم، فيعم الفساد، وتنتشر البلوى، وأغلب ما يعانيه العالم الإسلامي في العهد الحاضر يرتبط بغيبة الرئيس الصالح، وظهور الحاكم الفاسد، والأعوان الضللة على مسرح الحكم والحياة.

الرسول والعمل

يخطئ بعض الناس إذ يظنون أن العمل هو العمل اليدوي أو الجسماني فقط، وأن العامل هو ذاك الذي يضرب بفأسه في الأرض أو بآلته في المصنع، ويتضح هذا الخطأ لو لاحظنا التقدم العلمي الهائل الذي ساد المجتمع المتمدين في أيامنا هذه، حيث أصبح العمل في الحقول والمصانع يتم بآلات غالبًا، وليس على العامل إلا أن يدير هذه الآلات، ويراقبها، ويصلحها إن توقفت، وعلى

---

[1] رواه البخاري.

هذا أصبح العامل يعمل بفكره في كثير من الحالات، وهو بهذا ليس بعيدًا عن المدرس الذي يعلم النشء، والطبيب الذي يعالج المرضى، وليس بعيدًا عن المهندس والمحاسب والجندي والتاجر، فكل من هؤلاء يعمل بفكره وجسمه لأداء واجبه.

ورسول الإسلام كان يعمل دائمًا، ولم يعرف الراحة منذ جاءته الرسالة، فعندما نزل عليه قوله تعالى: (قم فأنذر ...) وتصبب عرقًا بسبب لقائه مع جبريل، قالت له زوجته السيدة خديجة فيما قالت: خذ بعض الراحة، فأجابها: لم يعد هناك يا خديجة وقت للراحة، وبدأت جهود الرسول لأداء واجبه، وبدأ يعمل لنشر الدعوة سرًا حينًا وجهرًا حينًا، ولاقى ألوانًا من العنت في هذا السبيل، فلما تمت الهجرة إلى المدينة ازدادت مسئولياته، فأخذ يعمل في حقوق متعددة نعيش فيها الآن، فهو يربي الفرد المسلم، ويربي المجتمع الإسلامي، ويربي الدعاة، ويربي الحكام والولاة، ويربي القوة العسكرية، ويخوض غمار الحروب، ويبلغ التشريعات الإسلامية، وغير هذه من الأعمال، وفي ضوء هذا الواقع فإننا نسخر من التفكير الشيوعي الذي يجعل "البروليتاريا" طبقة قائمة بذاتها ويطلب لها السيادة على باقي الطبقات، كما نسخر من أي تفكير ينبثق عن هذا الوضع فيجعل العمال والفلاحين في جانب وباقي الفئات في جانب آخر، وبخاصة أن هذا التفكير يمزق المجتمع، إذ يبعد الابن الذي أصبح طبيبًا أو مهندسًا مثلاً عن أبيه العامل أو الفلاح، ويبعد الأخ الذي اتجه إلى الزراعة أو الصناعة عن أخيه التاجر أو المهندس، ويقلل من جهود الأمهات اللاتي يتفرغن لرعاية البيوت وتربية الأولاد وهكذا.

ومن الممتع حقًا أن نجد الرسول صلوات الله عليه يفسر العمل في حدود النطاق الذي أوردناه، وهو السعي لطلب الرزق من أي باب حلال يناسب الإنسان، قال عليه السلام: إن من الذنوب ذنوبًا لا يكفرها صوم ولا صلاة، وإنما يغفرها السعي لطلب الرزق، وجاء أحد الصحابة ليلتحق بجيش المسلمين مجاهدًا فسأله الرسول عن أبويه، فقال: إنهما شيخان ضعيفان، فقال له الرسول: ارجع ففيهما جاهد، وهكذا عد الرسول السعي لطلب الرزق عملاً يغفر الذنوب، وعد قضاء حاجة الأبوين جهادًا.

وفي ضوء هذه الدراسة يصبح معنا كلمتان فقط: هما عامل وعاطل، فالعامل هو الذي يكدح لخدمة نفسه ومجتمعه في أي مجال من المجالات بدءًا من القاع إلى القمة، والعاطل هو الذي لا عمل له في أي من مجالات الحياة، وإذا لاحظنا ذلك فإننا نجد أن الرسول كان أكثر الناس عملاً، إذ تشعبت – كما رأينا – جوانب حياته، فعمل كرئيس وكمعلم وقاض وقائد، وقل أن وجد في مجتمع المدينة ذلك العاطل الذي يعمد على جهود الآخرين كما سنرى في هذه الدراسة.

ومع هذا فإذا أردنا أن نخصص هذا البحث للتعرف على موقف الرسول من العمل اليدوي والجسماني فإننا نجد مادة خصبة في هذا النطاق، إذ نجد الرسول يعمل ويحث على العمل، ويعد العمل لونًا من العبادة، يتقرب الإنسان به إلى ربه، فيثيب الله عليه ويغفر به السيئات، يقول صلى الله عليه وسلم:

- يثاب المؤمن على كل عمل ابتغى به وجه الله، حتى اللقمة يضعها في فم زوجته.

- ما أكل أحد طعامًا قط خير من أن يأكل من عمل يده.

- وفي مطلع الحياة بالمدينة بنى المسلمون مسجدًا كما ذكرنا من قبل، واشترك المسلمون في هذا العتمل، وكان الرسول يعمل معهم كواحد منهم، ومن أجل هذا كان المسلمون ينشدون.

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

وابتكر الرسول نشيدًا آخر اتخذ مظهر السجع ليكون ترديده دافعًا للحماسة والنشاط وهو:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

ويروى أن الرسول في هذا العمل حمل مرة لبنة ثقيلة، فأشفق عليه أحد المسلمين وتقدم ليحملها عنه، فقال له الرسول: اذهب فخذ غيرها فلست بأفقر مني إلى الله.

وكان الرسول مرة في سفر مع بعض أصحابه فاتفقوا على إعداد شاة لطعامهم، فقال أحد الصحابة: علي ذبحها يا رسول الله، وقال آخر: وعلى سلخها، وقال ثالث: وعلى طبخها، فقال الرسول وعلى جمع الحطب، فقالوا: يا رسول الله نكفيك العمل، فقال: إني أعلم أنكم تكفونني ولكني أحب أن أعمل كما تعملون ولا أريد أن أتميز عليكم، وقد سبق أن ذكرنا ذلك عند الكلام عن "الرسول بين أصحابه".

وفي غزوة الأحزاب اشترك الرسول مع المسلمين في حفر الخندق في شمال المدينة، فكان الرسول يضرب بالفأس ويرفع التراب بالمكتل حتى اغبر جلده، وحمل أبو بكر وعمر الأتربة، وكانا يستعملان في ذلك أثوابهما لقلة المكاتل، وابتكر عبد الله بن رواحة نشيدًا كانوا يرددونه وهم يعملون فينشطون، ومنه:

يا رب لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

وقد أثبتت كتب السيرة مجموعة من الأعمال المتعددة التي كان يقوم بها الرسول، فقد كان يحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه.

وكانت زينب بنت جحش رضي الله عنها تباشر في بيت الرسول بعض الأعمال، فيروى أنها كانت تحسن دبغ الجلود، وتصنع منها أدوات تنفع الناس كالقِرب والنعال، وكانت تتصدق بها أو تبيعها وتتصدق بثمنها على رحمها وعلى فقراء المسلمين.

وكانت فاطمة رضي الله عنها بنت النبي وزوجة علي بن أبي طالب تعمل في شئون المنزل ما يرهقها: تطحن الحب بالرحى حتى أثر ذلك في يدها وتحمل القربة في عنقها حتى أثرت في نحرها، وتكنس البيت حتى اغبرت ثيابها، ولما ذكر علي للرسول ما تعانيه فاطمة من العمل وأنها تحتاج خادمًا يساعدها، التفت لها الرسول وقال: يا فاطمة اتقي الله وأدى فريضة ربك، واعملي عمل أهلك، وقد ذكرنا ذلك عند حديثنا عند تربية الدعاة.

وعقب الهجرة لم يجد المهاجري غضاضة من العمل في مزارع اليهود، إذا كان لليهود مساحات واسعة من الأرض آنذاك، ولم ينههم الرسول عن هذا العمل.

وهناك فائدة غير مباشرة ينالها المسلمون الذين يشتغلون بالزراعة والرسول صلوات الله عليه يوضحها للمسلمين بقوله: ما من سلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له أجره يوم القيامة.

وهناك نقطة مهمة مرتبطة بالعمل عنى الرسول بإيضاحها هي ضرورة إتقان العمل والإخلاص له، وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه.

ويوضح الرسول صلوات الله عليه كما قلنا من قبل أن العمل عبادة، يُروى أنه كان جالسًا يومًا مع أصحابه، فرأوا شابًا ذا جلد وقرة قد بكر يسعى للعمل، فقال أحد الجالسين: ويح هذا، ليت

شبابه وجلده في سبيل الله، فقال الرسول: لا تقولوا هذا، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفهم فهو في سبيل الله.

فإذا ذهبنا في دراستنا لموقف الإسلام من العاطل الذي لا يعمل نجد في كلام الرسول وتوجيهه خير إجابة لهذا السؤال.

فالرسول يستهجن موقف من ترك العمل حتى لو تفرغ للعبادة معتمدًا على ما قد يقدمه له القادرون، فقد روى أن قوما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن فلانًا يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر، فقال: أيكم يكفي طعامه وشرابه فقالوا: كلنا، فقال: كلكم خير منه.

وقد حاول أحد الصحابة أن يتفرغ للعبادة، ويعتزل الناس، فقال له الرسول: لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته سبعين مرة، ومن أجل هذا كان أهل الصفة وهم فقراء المسلمين الذن يعيشون في مسجد الرسول يسارعون للجهاد إذا دُعِيَ المسلمون للجهاد عن حاجتهم.

أما العاطل الذي يسأل الناس ويمد يده يطلب عونهم ومساعدتهم وهو قادر على العمل، فإن الرسول يصيح في وجهه:

- اليد العليا خير من اليد السفلى (اليد التي تعطي خير من اليد التي تأخذ).

- لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة من حطب فيبيعها خير له من أن يسأل الناس.

- ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة، وليس في وجهة مزعة من لحم (أي ينضب ماء وجهه ويجف لحمه وذلك كناية عن ضياع الشرف والإحساس).

إن من يسأل لغير حاجة ماسة يجيء يوم القيامة وفي وجهه نقطة سوداء.

وهكذا نجد الرسول صلوات الله عليه قد أقبل على العمل، وزاوله، وحث عليه، وسوى بينه وبين العبادة، وأحيانًا فضله عليها، وأن أصحاب الرسول اقتدوا به في هذا المضمار مما ثبت في النفوس أن كلمة المعلم، وميضع الطبيب، وقلم المهندس، وجهد الزارع والصانع، ألوان من العبادة، فالإسلام دين عمران يحث على خير الدنيا كما يحث على خير الآخرة.

الدعوة إلى القوة:

وأول ما اهتم به الرسول الدعوة إلى القوة التي تتخذ الصحة أساسًا لها، ومن أحاديث الرسول في الدعوة للقوة قوله: المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف (رواه مسلم) ولا شك أن القوة تعين على أداء الواجب، ودقة العمل، والمحافظة على سلامة الأسرة والوطن، وهناك أحاديث أخرى كثيرة في هذا المجال نروي فيما يلي بعضها:

- إن لجسدك عليك حقًا.

- يا عباس يا عم رسول الله سل الله العافية في الدنيا والآخرة، (مسند أحمد).

- سلوا الله اليقين والعافية، فما أعطى أحد بعد اليقين خيرًا من العافية. (البخاري).

- من أصبح معافى في جسده، آمنًا في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا (رواه الترمذي).

- ومن المحافظة على الصحة ما أوصى به الرسول من الرياضة والترويح عن النفس، وكان الرسول نفسه يباشر الرياضة، فقد سابق عائشة رضي الله عنها مرة فسبقته، وسابقها أخرى فسبقها فقال: هذه بتلك، وكان ذلك يهتم بالفروسية ورمي السهام، ولا يكره الترويح المباح.

في مجال الطب الوقائي:

وننتقل بعد ذلك لنتحدث عن الطب الوقائي، والذي يتدارس أحاديث الرسول يجد نخبة منها تقود المسلم خير قيادة لصحة الأبدان وصحة العقول والنفوس، وأول ما نسوفه من ذلك ما روي أن المقوس عندما أرسل مارية هدية للرسول ومعها بعض أهلها ومعها كذلك طبيب قبل الرسول الهدايا الأخرى ورد الطبيب قائلاً: لا نحتاج لطبيب، فنحن قوم لا نأحل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع، ويقول في التحذير من التخمة: المعد بيت الداء، والحمية رأس الدواء، ويعلق أحد الأطباء المحدثين على هذا الحديث يقول: والحقيقة أن المعدة هي السبب في كثير من الأمراض المعوية وأمراض الكبد وفقر الدم وأمراض القلب[1].

وقد تكررت أحاديث الرسول في الحث على عدم ملء المعدة بالطعام، ومن هذه الأحاديث نقتبس ما يلي:

- لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء.

- إياكم بالبطنة، فإنها مكسلة للصلاة ومفسدة للجسم، ومؤدية إلى السقم، وعليكم والقصد في قوتكم فهو أبعد عن السرف، وأصح للبدن.

ومن الأشياء التي اهتم الرسول بها اهتمامًا كبيرًا فيما يرتبط بالطب، الوقائي، النظافة، وأحاديثه في هذا المجال كثيرة منها:

- النظافة من الإيمان.

- بني الدين على النظافة.

- كان رسول الله يكره رائحة العراق في المسجد.

- إن الله طيب يحب الطيب، جواد يحب الجواد، فنظفوا أفنيتكم ليرضى عنكم.

- لولا أن اشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة.

ومن الطب الوقائي الذي اهتم به الرسول عليه السلام الاعتراف بالعدوى وضرورة المحافظة منها، ومن أحاديث الرسول في ذلك قوله:

- فمر من المجذوم فرارك من الأسد.

- كلم المجذوم وبينك وبينه قيد رمح أو رمحين.

- إذا سمعتم بالطاعون في ارض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها.

- لا يود ممرض على مصح، وإن الجرب الرطب قد يكون بالبعير، فإذا خالط الإبل أو حككها، أو آوى إلى مباركها وصل إليها المرض منه.

---

[1] دكتوره محمود دياب: الطب والأطباء في مختلف العصور ص ١٣.

في مجال الطب النفسي:

وتكم الرسول كذلك عن الطب النفسي، فقال: "من كثر همه سقم بدنه" وذلك إشارة إلى علاقة النفس بالبدن، ولقد أثبت الطب الحديث أن كثرة الهموم تمرض النفس، ومرض النفس بمرض الجسم[١].

وجاء رجل إلى الرسول يسأله النصيحة فقال له الرسول: لا تغضب، فكرر الرجل سؤاله وكرر الرسول نفس الإجابة، وقد أثبتت التجارب المختلفة كثيرًا ما يسبب ألوانًا من الأمراض التي تهجم على الإنسان وهو في ثورة غضبه، وربما قضت عليه.

الدواء:

ومع المحافظة على الجسم والحرص على الوقاية من الأمراض، فإن المرض يصيب الإنسان لسبب أو لآخر، والرسول في هذه الحالة يؤكد أن لكل داء دواء، وأن المريض لا بد أن يتناول الدواء ليستعيد صحته، وهو في ذلك يقول:

- ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء.

- عندما سئل: أرأيت دواء نتداوى به هل يرد قضاء الله؟ أجاب:

هو من قضاء الله، وكان الرسول في قمة الموهبة عندما عارض الحرافات وأنواع الدحل التي كانت شائعة آنذاك، وهو يقول في ذلك: من علق تميمة فلا أتم الله عليه، ومن علق ودعة فلا أودع الله له.

وكانت مواقف الرسول في مجال الطب واسعة الصدى عند المسلمين، ويروى أن أبي أصيبعة[٢]، عن بعض الحكماء قوله: من أراد الصحة فليجر الغذاء، وليأكل على نقاء، وليشرب على ظمأ، ويتمدد بعد الغداء، ويتمشى بعد العشاء، ولا ينام حتى يعرض نفسه على الخلاء، وليحذر دخول الحمام عقب الامتلاء.

مكرمات للرسول

هذا الموضوع في تقديري شديد الأهمية، لأنه يصحح خطأ شائعًا، فلا شك أن الدارس للسيرة النبوية يواجه مكرمات عظيمة حدثت للرسول صلوات الله عليه سنروي فيما بعد نماذج منها، ولكن بعض الناس يذكر أنها معجزات للرسول دون أن يفرق بين المعجزة والمكرمة، وهذا خطأ كبير، ونريد هنا بادئ ذي بدء أن نوضح كلا من المعجزة والمكرمة والكرامة.

فالمعجزة أمر خارق للعادة، يعجز البشر عن الإتيان بمثله، يقدمه رسول من رسل الله على وجه التحدي دليلاً على صدقه، وتحمل المعجزة معنى قول الله تعالى: "صدق عبدي فيما يبلغه عني" وعلى هذا فالمعجزة شيء يتحدى الرسول به ليؤكد للناس صدقه في الدعوة التي جاء بها، ورسل الله لهذا مأمورون بإظهار المعجزات ليقدموها أدلة على صدقهم حتى يجذبوا الناس للدعوة التي يقدمونها.

---

[١] المرجع السابق.

[٢] طبقات الأطباء ج ١ ص ١١٢.

أما المكرمة فلون آخر يهبه الله للرسل تكريمًا لهم وإضفاء لعنايته بهم، أو حلا لمشكلة تواجههم في وقت من الأوقات، ولا يقدم الرسول المكرمة للتحدي، وليس واجبًا عليه إظهارها، وهذان هما الفرق بين المعجزة وبين المكرمة.

أما الكرامة فشيء ليس عاديًا يقع على يد إنسان أو يقع لإنسان قريب من الله أو مجاهد في سبيله، ويجب على من تقع له الكرامة أن يسترها ويخفيها، ولا يجوز له أن يتحدث عنها، ولا أن يعتقد بإمكان إطرادها[١].

وعلى هذا فالقرآن الكريم هو المعجزة الخالدة للرسول صلى الله عليه وسلم، وقد قدمه الرسول متحديًا به البلغاء والفصحاء في كل زمان ومكان، قال تعالى:

- (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) [٢].

- (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)[٣].

() أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[٤].

- (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ)[٥].

والقرآن الكريم يعجز بأسلوبه، ويعجز بالفكر الذي ورد فيه، فمثلاً هناك كما هو معروف أحداث قطع بها، فقد وردت سورة تبت يدًا أبي لهب، وهي تقرر أن أبا لهب سيصلى نارا ذات لهب، أي أنه لن يدخل الإسلام وفي هذا كل التحدي، ومثل هذه الآيات وردت عن الوليد بن المغيرة، وقد أوردناها من قبل، ولم يدخل أبو لهب الإسلام ولا دخل الوليد بن المغيرة فالله سبحانه عالم تمامًا بأن هذا وذاك لن يدخلا الإسلام فقرر لهما النار، وعلم المستقبل لا يكون لغير الله تعالى، ويتضح هذا الوضع لو تذكرنا أن الرسول صلوات الله ضاق بأبي سفيان بن حرب والحارث بن هشام وعمرو بن العاص فدعا عليهم وتمنى لهم الهلاك فنزل قوله تعالى (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُم)[٦].

ويعني هذا كما يقول ابن إسحق[٧] ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم، فقد أتوب عليهم، وقد أسلم هؤلاء جميعًا وحسن إسلامهم، ومات الحارث بن هشام شهيدًا بالشام، وكان الرسول يقول عن عمرو بن العاص: أسلم الناس وآمن عمرو وهذا هو الفرق بين علم الله وعلم سواه، وذلك نوع من إعجاز الفكر، دليل على أن القرآن من عند الله، أما إعجاز القرآن بأسلوبه فالحديث عنه طويل، وقد أوردته بإفاضة في كتابي "تاريخ التشريع الإسلامي".

---

[١] الرسالة القشيرلية، باب كرامة الأولياء ج ٢ ص ٧٣.

[٢] سورة الطور: الآيتان ٣٣ – ٣٤

[٣] سورة هود: الآية ١٣.

[٤] سورة البقرة: الآيتان ٢٣ – ٢٤.

[٥] سورة البقرة الآية ٢١.

[٦] سورة آل عمران الآية ١٢٨.

[٧] سيرة ابن هشام: ج ٣ ص ٤٩.

في ضوء هذا البيان نقرر أن الرسول صلوات الله عليه منحه الله مكرمات عظيمة لرفع قدره وشموله بعنايته تعالى، ولكن هذه ليست للتحدي، فهي ليست معجزات ومن أهم هذه الأشياء الإسراء والمعراج الذي يقول بعض المتعجلين إنه معجزة ؟؟؟؟ أن المعجزة بها عنصران ضروريان هما: أن تقدم للناس، وأن تكون للتحدي، أما الإسراء والمعراج وهما في رأيي حدثا بالروح والجسد كما شرحت من قبل، لكن لم يقدمهما الرسول للناس كدليل على نبوته، ولم يكن يتحدثى بهما، وإنما قصهما على الناس، فصدقه المسلمون صادقو الإيمان وكذبه الضالون، وقد شرحنا ذلك من قبل، عند حديثنا عن الإسراء والمعراج.

وهناك مكرمات كثيرة حدثت للرسول في ظروف مختلفة، وكان أكثر يحدث للرسول وهو بين المسلمين الذين سبق لهم الإيمان، ولم يقدمها الرسول لغير المسلمين دليلاً على نبوته، وهذا يخرجها من نطاق المعجزات، وسنروي فيما يلي بعض هذه المكرمات.

في طريق الرسول من مكة إلى المدينة مهاجرًا مر بأم معبد "عاتكة بنت خالد" فأتت الرسول بشاة قليلة الدر ليذبحها ويأكل منها هو ورفاقه، فمسح الرسول ضرعها، فامتلأ ضرعها باللبن، فقال الرسول لأم معبد: لا تذبحها وانتفعي بلبنها، فاستجابت له، وأتت بشاة أخرى ذبحت وطبح لحمها لهم: فأكل الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعامر بن فهيرة وأعطتهم أم معبد معهم بعض لحمها لطعامهم في الطريق وبقي عندها أكثر لحمها، قالت أم عبد: لقد بقيت للشاة التي مسح رسول الله ضرعها إلى عام الرمادة سنة ١٨ هجرية، فكنا نحلبها صبوحًا وغبوقًا حتى عندما جفت الأرض ولم يبق من الزرع والمرعى قليل ولا كثير[١].

وعندما كان المسلمون يحفرون الخندق اشتد عليهم في بعض الأماكن كدية، فشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بإناء فيه ماء، فتمضمض فيه، ودعا الله ببعض الأدعية، ثم نضح الماء على الكدية، ويقسم م حضروا حفر الخندق أن الكدية أصبحت بعد ذلك كالكثيب لا ترد فأسًا ولا مسحاة[٢].

وبينما كان المسلمون يحيطون بالخندق وقد مسهم الجوع، مرت برسول الله أخت النعمان بن بشير ومعها تمر أرسلته به أمها إلى أبيها بشير بن سعد وخالها عبد الله بن رواحة، فقال لها الرسول: تعالى يا بنية، ما هذا الذي معك؟ قالت: يا رسول الله هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي وخالي يتغديانه، فقال: هاته، قالت: فصببته في كفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فما املأ كفاه، ثم أمر بثوب فبسط له، وألقى عليه التمر، وقال لأحد جلسائه: اصرخ في أهل الخندق أن هلموا إلى الغذاء، فاجتمع أهل الخندق عليه، وجعلوا يأكلون منه حتى عادوا عنه، ولا يزال فوق الثوب تمر يتساقط من أطرافه[٣].

قصة أخرى مماثلة حدثت في الخندق أيضًا يرويها جابر بن عبد الله بقوله: عملنا مع رسول الله في الخندق، وكانت عندي شويهة غير سمينة، فقلت لو صنعناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فذكرت ذلك لامرأتي، فطحنت لنا شيئًا من شعير وصنعت منه خبزًا، وذبحت تلك الشاة فشويناها، فلما أمسينا وأراد الرسول الانصراف عن الخندق – وكنا نعمل فيه نهارًا فإذا أمسينا رجعنا إلى أهلنا – قلت يا رسول الله: إني قد صنعت لك شويهة كانت عندنا وصنعنا معها شيئًا

---

[١] البلاذي: أنساب الأشراف ص ٢٦٢ والرسالة العثمانية للجاحظ ص ١١٢.

[٢] ابن هشام ج ٣ ص ١٢٩.

[٣] ابن هشام ج ٣ ص ١٣٠.

من خبز الشعير، وأحب أن تنصرف معي إلى منزلي، فقال الرسول: نعم، ثم أمر صارخًا فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله إلى بيت جابر بن عبد الله، قال جابر: فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون!! وكيف لي بطعام لكل هؤلاء، فأقبل الرسول وأقبل الناس معه، وأخرجنا ما عندنا من طعام، فسمى الرسول باسم ا لله، وبدأ يأكل هو ومن معه، وكلما فرغ قوم قاموا وجاء غيرهم، حتى نال أهل الخندق جميعًا حاجاتهم من الطعام[١].

وأقحط الزراع حول المدينة حينًا، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكوا ذلك إليه، فصعد رسول الله المنبر واستسقى، فما لبثت أن انهمر المطر، فجاء سكان المدينةيشكو الغرق، فدعا الرسول ربه قائلاً: اللهم حوالينا ولا علينا، فانجاب السحاب عن المدينة، فصار حواليها كالإليل، فقال رسول الله: لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لسره ذلك، وكان الرسول يشير بذلك إلى بيت من قصيدة أبي طالب يمدح الرسول ويؤكد أن الرسول يُستسقى به. وهذا البيت هو:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثِمال اليتامى عصمة للأرامل. [٢]

وفي عام الوفود حر إلى الرسول وَفْدُ غادر أراد أن ينتهز فرصة كثرة الوفود ليندس بينها للنيل من الرسول صلوات الله عليه، وكان ذلك وفد بني عامر بقيادة عامر بن الطفيل، وإربد بن قيس، وجبار بن سلمى، وكان عامر قد اتفق مع إربد على أن يشغل بالحديث الرسول وحينئذ يعلوه إربد بالسيف، وتم اللقاء، وأخذ عامر يشغل الرسول ويناقشه وينتظر من إربد أن ينفذ ما اتفقا عليه، ولكن إربد لا يفعل، وخرج الوفد، فصرخ عامر في إربد، كيف لم تنفذ ما اتفقنا عليه؟ قال إربد: لا تعجل عليَّ، فوالله ما هممت بالذي أمرتني به إلا دخلت بيني وبينه حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟[٣].

ولم يعلن الوفد إسلامه، وأحس الرسول الغدر من زعماء الوفد، فدعا عليهم، فلم يصلوا إلى بلادهم، فقد أكل الطاعون عامر بن الطفيل، ومرت صاعقة على إربد فأحرقته[٤].

وأُحب في ختام هذه النماذج أن أقرر أن هذا التكريم للرسول عند بعض الأزمات شيء طبيعي، ومثله يحدث لغير الرسل أحيانًا، فالله يكرم أصفياءه في كثير من الأحوال، ويفتح لهم أبوابًا لم يتوقعوها، وإن أي رجل مؤمن يمكنه أن يتذكر ألوانًا من عون الله إليه، وصدق الله العظيم الذي يقول: "ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب"[٥].

الرسول والمنافقون

طبيعة المنافقين أنهم لا يظهرون إلا إذا كان عدوهم أقوى منهم، ومن هنا فلم يكن هناك منافقون قبل الهجرة؛ لأن المسلمين كانوا أقلية لا يرهبها المشركون، ومن ثم لم يكن أعداء الإسلام في حاجة ليلجئوا للنفاق، فلما اشتد ساعد الإسلام بعد الهجرة للمدينة، وأصبح المسلمون أصحاب جاه وسلطان بهذا المركز الجديد، لم يستطيع أعداؤهم بالمدينة أن يواجهوهم بعقيدتهم المنحرفة وكراهيتهم للإسلام، فمالوا للنفاق، أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر.

---

[١] المرجع السابق، نفس الصفحة.

[٢] المرجع السابق، ج ١ ص ٢٥٢، وثمال اليتامى أي غيثاثهم ومعينهم.

[٣] ابن هشام ج ٤ ص ١٥٨ – ١٥٩.

[٤] المرجع السابق.

[٥] سورة الطلاق: الآية الثالثة.

والنفاق أخطر من العداء الصريح، ففي العداء السافر يتخذ المسلمون أهبتهم ويكونون على حذر، ولكن النفاق كان ساترًا لأعداء الإسلام، وكان يمكن أن يكون مصدر خطر لولا أن الله سبحانه كشف أستارهم من حين لآخر مما جعل كيدهم يرتد إلى نحورهم في أكثر الأحوال كما سنرى فيما بعد.

عبد الله بن أبي:

وزعامة النفاق بالمدينة تركزت في عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي، ويقول عنه ابن هشام[١]: لم تجتمع الأوس والخزرج قبل الإسلام على رجل غيره، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه، ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم وهم على ذلك، فلما انصرف قوم عبد الله عنه إلى الإسلام ضغن، ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكًا، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه ظاهرًا وأسر النفاق.

أبو عامر الراهب ومسجد الضرار:

وهناك زعيم آخر آزر عبد الله بن أبي، ذلك هو أبو عامر عبد عمرو بن صيفي من الأوس، وكان في قومه شريفًا مطاعًا، وكان قد ترهب في الجاهلية، وليس المسوح فسمى الواهب، ولكن هذا الرجل لم يتجه للنفاق، بل خرج من المدينة إلى مكة وانضم إلى قريش في عدائهم لمحمد، فلما فتح المسلمون مكة خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام ومات هناك، وصلة هذا الرجل بالنفاق أنه كتب إلى بعض أتباعه من المنافقين بالمدينة أن يبنوا مسجد بالقرب من مسجد قباء يتجمعون فيه، ويدبرون مكائدهم ضد الإسلام ورسول الإسلام متخذين من هذا المسجد وسيلة للتخفي، وقد استجاب هؤلاء له وبنوا هذا المسجد، وانتهوا منه قبيل غزوة تبوك، وطلبوا من الرسول أن يصلي فيه، فاستمهلهم حتى يعود من تبوك.

وعند عودته نزل عليه قوله تعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ) [سورة التوبة: ١٧ – ١٨].

وعندما نزلت هذه الآيات أمر الرسول بعض أصحابه أن يذهبوا ويدمروا هذا المسجد الذي سماه القرآن "مسجد الضرار" وذهب أصحاب الرسول ودمروه[٢].

ويعد البلاذري[٣] منافقي المدينة وأهمهم من الخزرج: عبد الله بن أبي وعتدي بن ربيعة وابنه سويد، وزيد بن عمرو، وعقبة بن قديم، وأهم من الأوس الجلاس بن سويد وأخوه الحارث، وبجاد بن عثمان، وثعلبة بن حاطب، وأبو حبيبة بن الأزهر وهو ممن بنوا مسجد الضرار.

اليهود والنفاق:

وهناك مركز أخر للنفاق بجوار مركز عبد الله بن أبي، وهو مركز تجمع اليهود الذين تظاهروا بالإسلام وهم يضمرون العداوة له، ويتحدث ابن هشام[١] عن هذا المركز بقوله: وكان ممن تعوذ

---

[١] سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٦٦ – ١٦٧.

[٢] البلاذري: أنساب الأشراف ٢٨٢ – ٢٨٣.

[٣] المرجع السابق ص ٢٧٤ – ٢٧٥.

بالإسلام وأظهروه وهم منافقون بعض أحبار اليهود مثل: سعد بن حنيف وزيد بن اللصيت، ونعمان بن أوفى بن عمرو، وعثمان أخوه، ويروى عن زيد بن اللصيت أنه قال حين ضلت ناقة رسول الله: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته، وأوحى الله للرسول بما قال الرجل وبمكان الناقة، ومنهم كذلك رافع بن حريملة وهو الذي قال الرسول عنه حين مات، لقد مات اليوم منافق عظيم، وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد ويخسرون من المسلمين حينًا ويتسمعون أحاديثهم حينًا آخر لينقلوها لباقي اليهود ولأعداء الإسلام، وقد رآهم الرسول صلى الله عليه وسلم مرة وقد لصق بعضهم إلى بعض وأخذوا يتحدثون همسًا، فأمر بهم فأخرجوا من المسجد إخراجًا عنيفًا، وكان المسلمون يدفعونهم خارج المسجد وهم يقولون أف لكم من منافقين خبثاء، أخرجوا من مسجد رسول الله، وكان هؤلاء من يهود بني قينقاع.

وكان برؤز النفاق في المركزين (مركز ابن أبي ومركز اليهود) عقب غزوة بدر وانتصارات المسلمين فيها، وذلك تمشيًا مع ما ذكرناه من قبل من أن النفاق يظهر في مواجهة القوة والنصر.

المنافقون في غزوة أحد:

وفي مسيرة المسلمين إلى غزوة أحكد وَجَدَ النفاق وسيلة ليعمل ويؤثر، منذ انخزل عبد الله بن أبي بثلث الجيش، وقال عن الرسول "أطاع الأحداث وعصاني، وما ندري علام نقتل أنفسنا أيها الناس" وحاول بعض المسلمين أن يثنوه عن هذا التصرف فقال قوله حكاها عنه القرآن الكريم في الآية (لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ) [سورة آل عمران: ٦٦] وقد ضعف جيش المسلمين بسبب انسحاب عبد الله وأتباعه، ولعل ذلك كان من أسباب هزيمة أحد.

وكشف منافقو المركزين عن فرحهم بما أصاب المسلمين في غزوة أحد، وأعلنوا شماتتهم، فتظاهر عبد الله بن أبي وأعوانه بالحكمة لأنهم لم يدخلوا هذه المعركة، وقالوا عن القتلى (لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا) [٢]، وأما اليهود فراحوا يعلنون أن محمدًا لو كان نبيًا ما هزم، ولكنه طالب ملك؛ ينتصر أحيانًا ويهزم أحيانًا.

المنافقون عند حفر الخندق:

وفي الجهد الذي بذله المسلمون لحفر الخندق كان المنافقون يتسللون من العمل ويعودون لبيوتهم بدون إذن الرسول[٣]، فنزل فيهم قول الله تعالى: (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [سورة النور: ٦٣].

المنافقون عقب غزوة بني المصطلق:

ونزلت النوازل بالمركز اليهودي المنافق بعد أن طُرد بنو قينقاع من المدينة، وبعد أن طرد كذلك بنو النضير، وقضى على بني قريظة كما سنرى فيما بعد، فألقيت مسئولية النفاق كله على عبد الله بن أبي وصحبه، وقد ثابر هذا الرجل على بذل أقصى الجهد لينجح في مهمته الدنيئة، وقد شهدت غزوة بني المصطلق موقفين خطيرين لموكب النفاق، أما الموقف الأول فمحاولة عبد الله بن أبي أن يشعل نار الفتنة بين المهاجرين والأنصاري عندما اقتتل واحد من المهاجرين مع أنصاري وهتف الأول: يا معشر المهاجرين وهتف الثاني: يا معشر الأنصار، وقد تدخل

---

[١] سيرة ابن هشام ص ١٢٥.

[٢] ابن هشام ج ٤ ص ١٧.

[٣] ابن هشام السيرة ج ٣ ص ١٩.

الرسول بحزم بالغ معلنًا أن هذه الصيحة صيحة جاهلية وهي صيحة فتنة، وقد وحد الإسلام الجميع فلتكن الصيحة: يا للمسلمين، وماتت الفتنة بسبب هذا الموقف العظيم من الرسول صلوات الله عليه، ولكن المنافق عبد الله بن أبي أن يضيع هذه الفرصة، فصاح: قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، ولقد أصبحنا معهم كما قال الأول "سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزل منها الأذل" وكان ممن سمع ذلك منه مسلم صالح، هو زيد بن أرقم، فأخبر عمر بذلك وأخبر عمر الرسول قائلاص: مُرْ به ابنه عبد الله فليقتله، ولكن الرسول قال: كيف يا عمر إذا تحدث الناس بأن محمدًا يقتل أصحابه؟ وعالج الرسول الأمر بطريقة أخرى كلها حكمة وذكاء، فقد أمر بالرحيل في ساعة لم يكن يرتحل فيها، وأطال الرحلة دون راحة على غير عادته، حتى تعب المسلمون، فلما حطوا الرحال للراحة ناموا جميعا لفرط الجهد، وبهذا لم يكن هناك وقت للنقاش حول هذا الموضوع.

وعرف عبد الله بن عبد الله بن أبي أن هناك اقتراحًا بقتل أبيه فذهب للرسول ليقول له: يا رسول الله، إن كنت آمرًا بقتل أبي فمرني بذلك أنفذ أمرك؛ لأني أخشى إن قتله غيري، أن أثأر لأبي فأقتل مسلمًا بكافر، فقال الرسول: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.

وذهب ابن أبي إلى الرسول ينكر أنه قال ما حمله إليه زيد بن أرقم، ولكن سرعان ما نزلت في ذلك سورة (المنافقون) وكلها حكاية لهذا الرجل المنافق، وفيها ما قال ضد المهاجرين (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) ولكن الآية الكريمةتستمر لتقول (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) [1].

هذا هو الموقف الأول لهذا المنافق المرتبط بغزوة بني المصطلق، أما الموقف الثاني فيرتبط بحديث الإفك الذي لا نحب أن نجول فيه ولا أن يجول فيه المسلمون خضوعًا لقوله تعالى: (ولولا إذا سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم) وكل ما نذكره عنه هو أن السيدة الطاهرة النقية بنت أبي بكر الصديق وزوجة خاتم الرسل وأعظمهم ترمي بالفاحشة، كبرت كلمة تخرج من أفواههم، وعلى كل حال فقد انتهز ابن أبي هذه الفرية ليصول ويجول لا اعتقادًا بصحة هذه الفرية، ولكن لمحاولة وضع الأشواك حول الرسول، فذلك هو الهدف الذي كان يسعى له، وقد نزلت آيات الذكر الحكيم تقرر طهارة عائشة وتهدد بالويل والثبور أولئك الذين قالوا بهذه الفرية أو أيدوها، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) [2].

المنافقون بعد فتح مكة:

وفتحت مكة في العام الثامن للهجرة، ودخل أهل مكة في دين الله، ولم يدخل هؤلاء جميعًا من عقيدة وإيمان راسخ، بل كان منهم من دخل إذ لا طريق أمامه إلا ذلك الطريق، ومن دخل

---

[1] سورة المنافقون الآية الثامنة، وانظر ابن هشام: السيرة النبوية ج ٣ ص ١٨٣ – ١٨٤.

[2] سورة النور الآيات ١١ وما بعدها وانظر سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٨٧ وما بعدها.

حرصًا على المغانم التي كان المسلمون ينالونها في حروبهم ضد العرب وضد اليهود، ومن هنا وُجِدَ منافقون مكيون انضموا لموكب المنافقين، وكان هؤلاء من أوائل الذين فروا في غزوة حنين التي حدثت بعد أيام من فتح مكة.

المنافقون في غزوة تبوك:

كانت غزوة تبوك اختبارًا عظيمًا نجح فيه المؤمنون صادقو الإيمان، وفشل فيه المنافقون وضعاف الإيمان، فالمعركة مع الروم، بقوتهم، ويُعد أرضهم، والمعركة في وقت القيظ والحصاد، فكانت هذه الغزوة وسيلة انتهزها المنافقون فأعلنوا عن نفاقهم، ومخالفتهم، وأعلن القرآن الكريم سخط الله على هؤلاء ومن سار سيرتهم في عدم تأييد المسلمين في هذه المعركة وحدثت في هذه الغزوة أحداث من المنافقين ومماثليهم نوجزها فيما يلي:

- جاء المعذرون من الأعراب فاعتذر للرسول، فلم يعذرهم الله تعالى.

- خرج عبد الله بن أبي مع الرسول، وعسكر الرسول على ثنية الوداع، وعسكر عبد الله بن أبي علي جبل ذباب غير بعيد من معسكر الرسول فلما سار الرسول بعسكره لم يتابعه عبد الله بن أبي وتخلف عنه وعاد للمدينة.

- خلف الرسول محمد بن مسلمة الأنصاري على المدينة، وترك ابن عمه علي بن أبي طالب ليقيم في أهله وأهل الرسول، فأرجف المنافقون، بأن الرسول ترك عليًا استثقالاً له وتخلصًا منه، فأخذ عليٌّ سلاحه ولحق بالرسول، وبلغه قول المنافقين، فقال الرسول له: كذبوا، لكني تركتك لتخلفني في أهلي وأهلك، ارجع يا علي فلن يحبك إلا مؤمن ولن يبغضك إلا منافق، فعاد علي[١].

وفي مواقف المنافقين وأمثالهم في هذه الغزوات نزلت آيات كثيرة من سيرة التوبة نقتبس منها (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) [٢].

نهاية عبد الله بن أبي ونهاية تجمع المنافقين:

امتد العمر بعبد الله بن أبي فلم يمت إلا بعد غزوة تبوك، ولما مات حضر ابنه عبد الله إلى الرسول فسأله قميصه ليكفن به أباه لعل الله يغفر له، فاستجاب له الرسول تكريمًا له وأعطاه القميص، ثم سأله عبد الله أن يصلي الرسول عليه، فاستجاب الرسول أيضًا ووقف أمام جثمانه ليصلي عليه، ويروى أن عمر بن الخطاب وقف أمام الرسول وقال له: أتصلي على عدو الله الذي قال كذا وكذا وفعل كذا وكذا، وكان الرسول يبتسم لعمر، ثم قال له: يا عمر، تأخر عني، إني قد خُيِّرت فاخترت[٣]، وصلى عليه، وسار حتى دفن والرسول واقف على قدمه، ثم نزل قوله تعالى (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا

---

[١] سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١١٩ وما بعدها.

[٢] سورة التوبة الآيات ٤٢ وما بعدها.

[٣] يقصد الرسول قوله تعالى: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) فالرسول أخذ الآية على ظاهرها على أنها تخيير له.

وَهُمْ فَاسِقُونَ)[1]، وبموت عبد الله بن أبي انهار موكب النفاق وتشتت المنافقون بعد أن اختفى الرجل الذي كانوا يحتمون به ويلتفون حوله.

ولنتذكر في ختام هذا البحث أن سطوة عبد الله وأتباعه امتدت كما رأينا من مطلع الحياة بالمدينة إلى قبيل وفاة الرسول صلوات الله عليه، وهذا يرينا الجهد المتواصل من أجل الدعوة الإسلامية ليس فقط في مكة، وليس فقط من قريش أو اليهود أو الأحابيش أو هوازن، بل أيضًا من جماعة المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام وهم من ألد أعدائه، ورحمك الله يا رسول الله على ما عانيت من جهد حتى تم نور الله.

الرسول والنصارى

يقول الله تعالى: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ...)[2]. والحق أن الدارس للتاريخ الإسلامي يجد مدلول هذه الآية واضحًا كل الوضوح، فقد عارض اليهود الإسلام بقسوة وتآمروا على المسلمين من حين إلى آخر، ووقف النصارى من المسلمين مواقف فيها الكثير من الود، وكان اعتناقهم الإسلام سهلاً في حالات كثيرة متعددة.

ربما يخطر ببال القارئ ما عاناه المسلمون من الصليبيين، والإجابة أن الصليبيين يحسبون ظلمًا على دين المسيح، ولم يكن هؤلاء ولا أمثالهم المستعمرون في العصور الحديثة إلا مسيحيين بالاسم بعد أن فسدت المسيحية بالعقائد التي ابتكرها بولس[3]، ومع أن عقائد بولس أصبحت منذ عهد مؤتمر "نيقية" سنة ٣٢٥ م هي عقائد المسيحيين في الشرق والغرب، فإن المسيحيين الشرقيين حافظوا على بقايا من روح المسيحية جعلتهم أقرب مودة للمسلمين حتى العهد الحاضر، وجعلت العقلاء منهم شديدي التمسك نفسيًا بالتراث المسيحي الأصيل، ويمكن أن نحس طيب التعاون والتعامل بين المسلمين والمسيحيين في مصر نتيجة لهذا الاتجاه، وإذا واجهنا يومًا اتجاه تآمر وعدوان بين المسلمين والمسيحيين في الشرق فذلك انحراف طارئ تأثر فيه بعض المسيحيين الشرقيين بالصليبية الأثيمة، وربما جاز القول أن بعض المسلمين قد يخطئون فيعاملون المسيحيين الشرقيين كما تعودوا أن يعاملوا المسيحيين الصليبيين أو المسيحيين المستعمرين، ولو نزلنا هذا الإحساس لعاد المسيحيون إلى الوصف الذي سجله لهم القرآن الكريم، وأشهد الله أنني رأيت هذا اللون من التعاون والود عدة مرات، وكان بهيج المنظر، رائع النتائج.

تلك مقدمة لم يكن منها بد، لأننا رأينا موقف نجاشي الحبشة من المسلمين، وسنرى فيما يلي علاقات الرسول بالنصارى في الجزيرة العربية طيلة حياة الرسول عليه السلام:

يقول ابن هشام[4]: قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران، وكان مكونًا من ستين راكبًا، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وضمن الأربعة عشر رجلاً ثلاثة يتولون الأمر فيهم، أحدهم أمير القوم، والثاني منظم الرحلة والمشرف عليها، والثالث الأسقف وهو الحبر والإمام، واسم هذا "أبو حارثة" وكان ملوك الروم قد شرفوه ومولوه وبنوا له الكنائس

---

[1] سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٤٥ – ١٤٦ والآية رقم ٨٥ من سورة التوبة.

[2] سورة المائد الآية ٨٢.

[3] انظر هذه العقائد بكتاب "المسيحية" من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف.

[4] السيرة النبوية ج ٢ ص ١٥٨.

وبسطوا له الكرامات، وفي الطريق إلى رسول الله عثرت بغلة "أبي حارثة" فقال أخوه "كوز" تعس الأبعد "يقصد الرسول" تجيء له وتعثر ناقتك؟ فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست فدُهِش كوز وسائل: ولم يا أخي؟ فأجابه: إنه والله النبي الذي كنا ننتظره فسأل أخوه: ولِمَ لا تتبعه وقد عرفته؟ فأجاب: الروم يا أخي، فقد شرفونا ومولونا وأكرمونا، وقد أبو إلا خلافه، ويقول ابن هشام: وقد أضمر "كوز" في نفسه شيئًا وسرعان ما أعلن إسلامه.

وقد جرت محاورة بين الرسول وبين النصارى، وأمد القرآن الكريم رسول الله بالهدى والرشد في هذه المحاورة فتم له النصر، فقد قال تعالى: رادًا على من قال بألوهية المسيح وأنه روح الله يمتاز بذلك عن باقي البشر: (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء)، أي أن عيسى كان ممن صور في الأرحام، وهم لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه كما صور غيره من بني آدم فكيف يكون إلهًا وقد كان بذلك المنزل[١].

وكان دخول "كوز" الإسلام فاتحة تدفق نصارى نجران على الإسلام، على أن جماعة منهم احتفظوا بدينهم بضع سنوات، حتى بعث الرسول لهم خالد بن الوليد قبيل حجة الوداع، وسرعان ما استجاب هؤلاء لخالد، ودخلوا دين الله، فبعث خالد وفدًا منهم إلى المدينة، واستقبل الرسول هذا الوفد بالترحيب والمودة[٢].

عدي بن حاتم:

وهناك نصراني يستحق فسحة من الفراغ هو عدي بن حاتم الطائي، وأبوه أشهر المشاهير في الكرم والجود، وقد روى البخاري بعض قصة عدي، وروى ابن هشام[٣] بعضًا منها، وكتبها بعض المؤرخين المحدثين[٤]، ونرجزها فيما يلي:

يروى ابن هشام أن عدي بن حاتم قال: كنت امرءًا شريفًا نصرانيًا، وكنت مَلِكًا على قومي، وأسري فيهم بالمرباع، آخذ ربع الغنيمة وأدع الباقي لهم، فلما سمعت بمحمد كرهته لمخالفته لي في الدين وفي العادات، وكنت أخاف زحف المسلمين، فقلت لغلام لي أعد لي عددًا من النوق القوية، واجعلها قريبًا مني، فإذا سمعت بجيش محمد يطأ هذه البلاد، فآذني، ففعل، وبعد فترة جاءني مهرولاً وقال: ما كنت صانعًا إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن، فإن رايات محمد علي وشك أن تصل هذه الأرض، قال عدي: فقمت من فوري وفي عجلة من أمري احتملت أهلي وولدي، وقلت ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام، وبسبب هذه العجلة لم يصحب عدي أخته "سفانة" التي يبدو أنها كانت بعيدة آنذاك عن خيام أخيها.

وكان الرسول صلوات الله عليه حزم أمره على القضاء على عبادة الأوثان في الجزيرة العربية بعد أن تم فتح مكة، وبعد الانتصار على هوازن وثقيف، فأرسل الرسول علي بن أبي طالب على رأس جماعة لهدم صنم طيء الذي كان لا يزال هناك من يعبده، وفر عدي كما قلنا وتصدى بعض رجال طيئ لعلي بن أبي طالب، ولكنه سرعان ما هزمهم وأسر منهم وغنم،

---

[١] سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٦١.

[٢] دكتور محمد حسين هيكل: حياة محمد ص ٤٧٠.

[٣] السيرة النبوية ج ٤ ص ١٦٦ وما بعدها.

[٤] دكتور محمد حسين هيكل: حياة محمد ص ٤٢٧ – ٤٢٨ وسيرة النبي العربي للأستاذ أحمد التاجي ج ٢ ص ٢٢٠ وما بعدها.

وكانت "سفانة" ضمن الأسرى الذين أخذوا للمدينة، ووضعت سفانة في مكان خاص بالأسرى من النساء غير بعيد من مسجد الرسول صلوات عليه بالمدينة.

وننتقل بالمشهد إلى المدينة وكانت سفانة امراةلها هيبة وقدرة بلاغية، وحدث أن مر رسول الله بالمكان الذي به سفانة، فاشرأبت له وهتفت بقوة بنات الملوك، وأجابها الرسول بحكمة الأنبياء، فكان الحديث التالي:

- يا محمد، هلك الوالد، وغاب الرافد، فامنن علي من الله عليك.

- ومن رافدك يا فتاة؟

- عدي بن حاتم.

- الفارُّ من الله ورسوله!!.

وكأنما أدركت المرأة بذكائها أن أخاها لا يصلح أن تستعين باسمه في هذه الأزمة، فغيرت من أسلوبها عندما رأت الرسول في مرة تالية، وكان الحوار التالي:

- يا محمد، هلك الوالد، وكان سيد قومه، كان يفك العاني، ويحمي الذمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ويقضي حاجة من سأله أية حاجة، أنا ابنة حاتم الطائي.

- يا جارية هذه صفات المؤمنين ومن حقك أن نكرمك من أجل أبيك، والتفت إلى من حوله وقال لهم: خلوا سبيلها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، ولكن لا تعجلي يا فتاة بالعودة حتى تجدي من يكون لك ثقة ليبلغك إلى أهلك، وآذنيني قبل الرحيل.

وبعد فترة قضتها سفانة حرة طليقة بالمدينة جاءت للرسول لتقول له: يا محمد هنا رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ فأذن لي أن أصحبهم، فكساها الرسول وحملها على راحلة وأعطاها نفقة مناسبة تبلغها مأربها وسيرها معززة مكرمة، فقالت له عبارات دعاء تعتبر قمة من البلاغة والفكر ونصها: شكرتك يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك موضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، وجعل وسيلة لرد نعمة سلبت من كريم، فسر الرسول بدعائها وسأل الله الهداية لقومها.

وبرحلة سفانة إلى الشام ينتقل المشهد إلى خيمة عدى الواسعة التي أقامها في أحضان نصارى الشام ودار حوار بين سفانة وأخيها عدي كالآتي:

- مرحبًا يا ابنة حاتم.

- أآغرب عني أيها القاطع رحمه، احتملت أهلك وولدك، وتركت عورتك وبقية أبيك.

- غفرانك يا أخية فما صنع ما ذكرت إلا في ساعة هول، ولكن قولي لي ماذا رأيت في هذا الرجل؟

- والله ما رأيت فيه إلا خيرًا وقصت عليه قصتها معه، ثم قالت له: أرى والله أن تلحق به سريعًا، فإن يكن الرجل نبيًا فللسابق إليه فضيلة، وإن كان ملكًا فلن تذل عنده.

- هذا والله هو الرأي.

وانتقل المشهد إلى مسجد رسول الله بالمدينة، فبينما كان الرسول جالسًا في المسجد إذ دخل عليه رجل أعرابي تبدو عليه النعمة والمجد، وسلم على الرسول فرد الرسول السلام، وسأل الرسول: من الرجل؟ فأجاب: عدي بن حاتم، وقد وصفه الرسول من قبل بأنه فر من الله ورسوله، ولكن الفار عاد ودخل المسجد، ولذلك احتفى به الرسول كعادته مع النصارى وكعادته مع الوافدين عليه، وبخاصة الرؤساء وأصحاب الجاه الذين يُرجى أن يتفح إسلامهم الباب لإسلام العديد من أتباعهم، ولهذا نهض الرسول إلى عدي، وفرش له عباءته وأجلسه بجواره، ثم – بعد فترة – أخذ بيده، وصحبه إلى بيته.

وفي الطريق عرضت للرسول امرأة لها حاجة فاستوقفت الرسول، فوقف لها، وطالت وقفته ليستمع إلى شكاة المرأة وليقضي حاجتها، فقال عدي في نفسه: ما هذا ملك فالملوك لا يفعلون ذلك، وفي بيت الرسول لم يجد عدي فراشًا وثيرًا ولا أي مظهر من مظاهر الترف، وقدم الرسول لعدي حشية من ليف ليجلس عليها، ولم تكن هناك حشية أخرى ليجلس عليها الرسول، فحدث عدي نفسه بأن محمدًا ليس ملكًا في مسكنه ومظهره وخلقه، ودار بين الرسول وبين عدي هذا الحوار:

- يا عدي تعتنق النصرانية ولا تتبعها.

- كيف ذلك؟

- تسير في قومك بالمرباع، وليس هذا من المسيحية في شيء.

- هل أنت تعلم ديني أكثر مني؟

- نعم، فالقرآن الكريم فيه كثير عن النصرانية الحقة، وأما ما تتبعه فهو عادات عربية تحاول أن تخلطها بالدين.

يا عدي اسلم تسلم، وإذا كنت ترى فينا فقرًا الآن فوالله ليوشكن المال أن يفيض على المسلمين فلا يجد من يأخذه، وإذا كنت ترى فينا ضعفًا فوالله لينتصرن المسلمون على أعتى قوى الأرض بعد وقت ليس بالطويل، وإذا كان الملك والسلطان في غيرنا فوالله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت للمسلمين، يا عدي اسلم تسلم

فقال عدي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

ويروى عن عدي قوله: وعشت حتى رأيت القصور البيض قد فتحت للمسلمين، ورأيت المال يفيض فيضًا عليهم.

وهكذا كانت علاقة المسلمين بالنصارى علاقة فيها ود، وفي كثير من الحالات دخل المسيحيون الإسلام دون تردد طويل، ولكن المسيحية عانت من اضطراب في العقائد، ومن اتجاه للدم والسلب، بسبب الفكر الأوروبي الذي كان فكرًا ساديا يميل للعنف وإراقة الدماء قبل أن تدخل المسيحية أوروبا، فلما دخلت المسيحية أوروبا صبغوها بالدم والأنانية بدل أن يأخذوا منها الرحمة والإيثار، لقد خسرت المسيحية خسارة كبيرة باتصالها بأوروبا، خسرت عقائدها لأن أفكار بولس تربت بأوروبا، وخسرت سماحتها لأن شعوب أوروبا كانت شعوب حرب وغارات فانعكس ذلك على الدين المسيحي، ليت المسيحيين بالشرق يرجعون إلى طبيعة المسيحية الحقة، ولا يقتبسون المسيحية الغربية.

أثر الإسلام في العرب

كان أثر الإسلام في الفرد عظيم، وأثر الإسلام في المجتمع الجديد في الجزيرة العربية التي عرفت الوحدة تحت حكم مركزي لأول مرة تحت حكم رسول الله، وبشريعة مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية، فعن أثر الإسلام في الفرد شرحت كيف نقل الإسلام الفرد من السيف إلى المسالمة، ومن القوة إلى القانون، ومن الثأر إلى القصاص، ومن الإباحية إلى الطهر، ومن النهب إلى الأمانة، ومن الحياة القبلية إلى المسئولية الشخصية، ومن الوثنية إلى التوحيد، ومن امتهان المرأة إلى إجلالها، ومن نظام الطبقات إلى المساواة[١].

وعن أثر الإسلام في المجتمع الجديد، وُضعت أسس جديدة لتكوين هذا المجتمع بما في ذلك المؤاخاة بين المسلمين، وتنظيم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، وبما في ذلك تقرير نظم الإسلام في أمور السياسة والحكم والأمور الاقتصادية والاجتماعية وغيرها[٢].

ولا شك أن الإسلام حقق معجزة كبرى في المجتمع العربي، ونقله من نمط إلى نمط، وشمل تأثيره الأخلاق والنظم التي تهتم بشئون الدين وأمور الدنيا، وقد تحدثنا عند الكلام عن الرسول في المدينة عن بعض هذه الاتجاهات، ووضحنا كيف ربى الرسول الفرد المسلم وربى المجتمع الإسلامي وهكذا.

عصر الخلفاء الراشدين

١١ – ٤٠ هـ = ٦٣٢ – ٦٦١م

أبو بكر الصديق

١١ – ١٣ هـ = ٦٣٢ – ٦٣٤ م

تعريف به

هو عبد الله بن أبي قحافة التيمي، كان اسمه في الجاهلية: عبد الكعبة فسماه الرسول عبد الله، وكنيته: أبو بكر، قيل لأنه بكر في دخول الإسلام، ولقبه الصديق؛ لأنه بادر بتصديق الرسول في مواقف كثيرة حرجة، وبخاصة في حادثة الإسراء والمعراج.

وكان في الجاهلية يشتغل بالتجارة، وكانت تجارته واسعة، فلما دخل الإسلام اتجه لخدمته ونشره، ولم يوجه عناية للتجارة إلا بمقدار ما يكسب به قوته وقوت أهله، وقد عرف في الجاهلية بالأمانة والعفة، ولما جاء الإسلام بادر بدخوله، ثم قام بدعاية ناجحة له، فأسلم على يده مجموعة من أبطال الإسلام سبق أن ذكرناهم، وهاجر مع الرسول إلى المدينة وكان "ثاني اثنين" لجأ للغار ليلة الهجرة، ولعل من الحق أن نقرر أن طول الصحبة، وإخلاص أبو بكر، وصفاء نفسه، جعلته أكثر المسلمين انتفاعًا بروح الإسلام واتجاهاته.

---

[١] د. أحمد شلبي: المجتمع الإسلامي ص ٢٩ – ٤٤.

[٢] نفسه ص ٤٥ – ١٥٠.

بيعته ومجلس شوراه:

بعد وفاة الرسول أراد الأنصار أن يكون الخليفة منهم، وقد حاول بعض قرابة رسول الله دفع علي بن أبي طالب طلب الخلافة لنفسه من رسول الله قبيل وفاته، لمكانته في الإسلام، وإصهاره الرسول وقرابته إليه[١]، ولكنه رفض.

وسرعان ما أدت الأحداث إلى اتجاه الأغلبية الساحقة إلى أبي بكر وبايعته خليفة[٢]، في مكان يسمى سقيفة بني ساعدة، وقد كان الأنصار اجتمعوا ليختاروا خليفة منهم، ولكن لحق بهم عمر بن الخطاب وأبو بكر، وسرعان ما اجتمع حوله من تردد في بادئ الأمر في مبايعته، وعقب بيعته ألقى أبو بكر خطابه الرائع الذي أعلن فيه سياسته، ومما جاء في هذا الخطاب من المبادئ السامية قوله: أيها الناس، إني وُليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فتابعوني وإن أسأت فقوموني، القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم مع مكانته من ربه ومع إمداده بالوحي يلجأ للشورى فيما لا وحي فيه، ومن هنا أدرك أبو بكر أن حاجته للشورى أشد وأعظم، فكون "مجلس شورى" من كبار الصحابة وكان يلجأ له كلما جد أمر ذو بال.

المشكلات التي واجهها أبو بكر:

رأينا في حديثنا عن الغزوات وانتشار الإسلام أن الإسلام بدأ ينتشر بعد صلح الحديبية، أي بعد السنة السادسة للهجرة، وأنه بعد هزيمة هوازن وثقيف بدأت الوفود ترد إلى الرسول معلنة إسلامها، وكان ذلك في العام التاسع، ومن هذا يتضح لنا أن كثيرين ممن دخلوا الإسلام آنذاك لم يدخلوه عن اقتناع تام، فمنهم من دخله مع الداخلين دون دراسة ودون إيمان، ومنهم من رأى الحروب ولم يفهم أنها دفاعية فدخل الإسلام تجنبًا لخوص الحروب ضد المسلمين، ومنهم من دخل الإسلام طمعًا في مغنم أو جاه، فلما توفي الرسول أبرز هؤلاء ما كانوا يخفون وضعاف الإيمان هؤلاء كانوا يظهرون عدم ولائهم للإسلام كلما سنحت لهم فرصة، كما فعل المنافقون بعد غزوة بني المصطلق، وفي مطلع غزوة تبوك، وكالأعراب الذين وصف القرآن إيمانهم في الآية: (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان قلوبكم) [٣]، ولكن وفاة الرسول كان أعظم فرصة لهؤلاء، ليظهروا ما أخفوا وليعلنوا ارتدادهم.

وبجانب عدم التعمق في الإسلام كانت هناك العصبية، وقد حارب الإسلام العصبية ودعا لتكوين أسرة واحدة وهي أسرة الإسلام، ولكن العصبية كانت تتجدد من حين لآخر، وكان الرسول عدو العصبية يهجم عليها بعنف كلما ظهرت، ومع ذلك لم تمت العصبية بل ظلت تظهر كلما أتيحت لها فرصة، وكان كثيرون من العرب يرون في الإسلام وسيلة فرضت عليهم سلطان قريش، فلما مات الرسول، وظهر للعرب أن قريشًا أخذت السلطة ولن تدعها، قويت هذه الحركات واشتدت، فظهر في كثير من القبائل من ادعى النبوة وأيده قومه باسم العصبية، مع أنه كان واضحًا لهم كذبه وبهتانه.

---

[١] ابن الأثير: الكامل ٣: ٩٨.

[٢] للاطلاع على الاتجاهات المختلفة حول اختيار الخليفة عقب وفاة الرسول، يراجع ابن هشام: ٣٧٢ – ٣٧٣، د. أحمد شلبي: السياسة في التفكير الإسلامي ص ٢٧ وما بعدها.

[٣] سورة الحجرات الآية ١٤.

وهناك فريق ثالث أساء تأويل بعض آيات القرآن وبخاصة تلك المرتبطة بالزكاة، أو اساء فهمها، فضل واتبع طريقًا غير طريق المسلمين.

ولهذه الأسباب نجد الجزيرة العربية تنقلب على عقبيها بعد وفاة الرسول، ونجد الإسلام يواجه أزمة قاسية أوشكت أن تقوض أركانه، فهنا جماعة ارتدوا عن الإسلام، وهناك آخرون أعلنوا أنهم أنبياء وتبعهم حواريون واشياع، وفريق ثالث منعوا الزكاة، وتمردوا على ما سموه الإتاوة والضريبة.

وهكذا ظهر المرتدون والمتنبئون ومانعو الزكاة، وشمل هؤلاء أغلب الجزيرة العربية، ولم يبق تابعًا لدين الإسلام إلا مكة والمدينة والطائف، وقد قامت هذه المدن بواجبها خير قيام، في إعادة الحق إلى نصابه، ولم تبخل بشيء لإعادة مجد الإسلام وإعلاء شأنه، وحملت قريش أكبر العبء في ذلك.

وكان التنبؤ ظاهرة تدعو لسخرية الباحث بهؤلاء المتنبئين، لأن العرب وجدوا أنه في رحاب النبي محمد تحققت معجزة لم يصل لها خيال العرب، وهي وحدة العرب وتآلفهم، وبذلك ظهر المتنبئون متخذين ادعاء النبوة وسيلة لجمع الناس حولهم، وقد بدأ ذلك الاتجاه في أواخر حياة الرسول عندما بدأ نجاح رسالته يظهر، وقوى ذلك الاتجاه بعد وفاة الرسول وانتشار الفتن في الجزيرة العربية:

ومن أكثر المتنبئين خطرًا مسيلمة الكذاب في بني حنيفة باليمامة، وقد بدأ ادعاءه في حياة الرسول، إذ كتب إليه يقول: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشًا لا ينصفون؛ والسلام عليكم.

فكتب له الرسول يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، والسلام على من اتبع الهدى[١].

وهناك عوامل ساعدت على ازدياد خطر مسيلمة وهي:

١– قوة بني حنيفة وبطولتهم الحربية.

٢– استطاع مسيلمة أن يخدع الرجال بن عنفوة الذي أرسله رسول الله ليعظه ويرده عن غيبه، ولما خدع الرجال كذب وأعلن أن محمدًا أشرك مسيلمة في الأمر.

٣– تزوج مسيلمة من امرأة تدعى سجاح كانت قد ادعت النبوة أيضًا في بني تميم، الذين كانت ديارهم على مقربة من بني حنيفة، وكانت مطاعة فيهم، فانضم أتباعها إلى أتباع مسليمة[٢].

ويروى ابن طباطبا[٣] قصة هذا الزواج، ولا بأس من إيراد هذه القصة هنا لطرافتها مع حذف بعض الكلمات الصريحة التي أوردها ابن طباطبا متصلة بالعلاقات الجنسية، قال ابن طباطبا:

---

[١] البلاذري: فتوح البلدان ص ٩٧ – ٩٨.

[٢] المرجع السابق ص ١٠٨، وقد دخلت الإسلام بعد أن قتل مسليمة، انظر كذلك الكامل لابن الأثير ٢: ٢٨٠.

[٣] ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية ص ٥١ – ٥٢.

وظهرت امرأة من العرب اسمها سجاح ادعت أيضًا أنها نبية وأن الوحي ينزل عليها، وتبعها بنو تميم وهم قبيلتها، ثم سارت لقتال مسيلمة وكانت جموعها أكثر من جموعه، فلما علم مسيلمة بمسيرها إليه فكر، وكان داهية ذكيًا، فارسل لها وقال: ينبغي أن نجتمع أنا وأنت في موضع ونتدارس ما نزل علينا من الوحي، فما كان على الحق اتبعه الآخر، فأجابته إلى ذلك، وأمر مسيلمة أن تضرب قبة من أدم (الجلد المدبوغ) ويستكثر فيها من العود والبخور،.. واتفقا في النهاية على أن ما ورد لهما من الوحي يصدر عن معين واحد، وعلى أن تعلن تصديقها له ويعلن تصديقه لها، كما يعلن رغبته في الزواج منها ليقوما معًا بأداء الرسالة، وأعلنا لك للقوم، وقدر مسيلمة المهر لأصهاره، وكان ذلك المهر إعفاءهم -دون الناس- من صلاة العصر، ويقول ابن طباطبا إن كثيرين من بني تميم لا يصلون العصر حتى الآن، فقد توارثوا هذه العادة منذ ذلك الحين، ومنهم من يعلن أنه لا يصلي العصر لأنه مهر فتاة القوم.

وقد أعطت وفاة الرسول فرصة -كما سبق القول- لأتباع مسيلمة ليزداد أملهم في النصر.

ومن الذين ادعوا النبوة أيضًا عبهلة ذو الخمار باليمن، وهو المعروف بالأسود العنسي، وطليحة بن خويلد في بني أسد، وقد بدءا ادعاءهما في حياة الرسول أيضًا، وكان من أتباع هؤلاء الأنبياء المزيفين كثيرون أدركوا ضلال المدعين ولكنهم انضموا إليهم ليقووا بهم ضد قريش التي تريد أن تستأثر بالحكم فيهم، كما انضم لهؤلاء أيضًا كثيرون من المرتدين ليستعينوا بهم في الوقوف في وجه الإسلام.

وهناك مرتدون آخرون لم ينضموا إلى أحد من المتنبئين، ولكنهم اكتفوا بترك الإسلام ومن هؤلاء سكان البحرين[١].

أما مانعو الزكاة فأغلبهم من اليمن واليمامة، وقد منعها بعضهم عنادًا ورأى فيها ضريبة إجبارية لم يرد أن يخضع لها، ومن هؤلاء فيما يبدو مالك بن نويرة سيد بني حنظلة، وقد اتهم أيضًا بأنه يساعد سجاح ويؤيدها[٢]، ولكن أغلب مانعي الزكاة أساءوا فهم الآية الكريمة (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) [٣]، وظنوا أن الرسول وحده – والخطاب في الآية له – وهو الذي يجوزله أن يأخذ الزكاة، ففي ذلك تطهير وتزكية لهم، وقد نسي هؤلاء التفسير الدقيق للآية الكريمة، كما نسوا الآيات الأخرى التي تقرر أن للفقير حقًا في مال الغني، مثل قوله تعالى: (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) [٤].

واستشار أبو بكر الصحابة والمسلمين فيما يفعل أمام هذه المشكلات العظام، فرأى أكثر المسلمين ألا طاقة لهم بحرب العرب أجمعين، كما رأى بعضهم أنه لا داعي لحرب مانعي الزكاة ما داموا ثابتين على إيمانهم، ولكن أبا بكر صاح مقسمًا ليحاربن الجميع حتى يثوب الجميع إلى الحق أو حتى يموت أبو بكر مجاهدًا في سبيل إعلاء كلمة الله، فاستجاب أغلب

---

[١] انظر الحديث المفصل عن هؤلاء في أحمد شلبي: موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية الجزء ٧.

[٢] قتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة هذا، وقصة خالد مع مالك وزواج الأول من زوجة الثاني بعد قتله من الموضوعات التي أفاض المؤرخون المحدثون في شرحها وهناك فيها اتجاهان مختلفان، يمثل الدكتور هيكل أحدهما في كتابه "الفاروق عمر" فيدين خالدًا ويمثل الأستاذ صادق عرجون الاتجاه الثاني في كتابه "خالد بن الوليد" فيدافع عن خالد ويبرئه، وإلى هذا نميل.

[٣] سورة التوبة الآية ١٠٣.

[٤] سورة المعراج الآيتان ٢٤ ، ٢٥.

المسلمين أوكلهم إلى اتجاه أبو بكر[١]، ووضعت قريش أفلاذ أكبادها تحت إمرته وبدأ يعمل، فكون أحد عشر جيشًا يقود كلا منها بطل من أبطال العرب المشاهير، مثل خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، وشرحبيل بن حسنة وغيرهم، وقد هزت هذه الجيوش الجزيرة العربية، وقبل أن يوجهها أبو بكر في اتجاهاتها المرسومة أرسل كتابًا للخارجين أجاب لهم فيه عن الشبهة التي كانت قد خطرت لهم، ودعاهم إلى العودة إلى رحاب الإسلام، وأنذرهم إن استمروا على غيهم، وقد نجحت الكتب مع بعض الناس، وبقي آخرون على ضلالهم، فاتجهت لهم الجيوش، وكانت جولة هذه الجيوش ناجحة مظفرة فلم تلبث أن دكت الأرض حولهم، ومن أهم المعارك التي خاضها المسلمون ضد المتنبئين معركتهم ضد أربعين ألفًا[٢]، من بني حنيفة وأتباعهم التفوا حول مسيلمة، ولما التقى الفريقان سرعان ما سقط الخائن الرجال بن عنفوة ثم شد المسلمون على أعدائهم فتقهقروا، وأراد مسيلمة أن يحتمي بحديقة فسيحة لها سور مرتفع فتراجع لها ودخلها ونادي أصحابه أن فلحقوا به، ولكن المسلمين تسوروها عليهم ودارت بها معركة عنيفة سقط فيها آلاف من الفريقين حتى سميت "حديقة الموت" وقتل مسيلمة على يد وحشي قاتل حمزة، وقيل على يد معاوية، وقيل اشترك في قتله جماعة من المسلمين[٣]، في طليعتهم وحشي الذي رماه بحربة، وعبد الله بن زايد بن عاصم الأنصاري الذي أجهز عليه بسيفه[٤]، وكان قائد جيش المسلمين في هذه المعركة البطل العظيم خالد بن الوليد[٥].

وانهزمت كذلك جيوش الأسود الذي كان يلقب نفسه رحمان اليمن وقتل غيلة في الليلة التي توفي الرسول في صبيحتها[٦]، وكان قد استولى على نجران وصنعاء وحضرموت وعدن والبحرين والإحساء، ولم تطل مدته أكثر من أربعة أشهر.

أما طليحة بن خويلد فقد اتبعه قومه بنو أسد كما اتبعته طئ وغطفان.

وعظم أمره عقب وفاة الرسول "فأرسل له أبو بكر خالد بن الوليد على رأس جيش عظيم، فتخلت عنه طئ وعادت للإسلام وظل معه بنو أسد، ولكن طليحة أنهار أمله أمام خالد ففر إلى الشام واختفى ثم أسلم في عهد عمر[٧]، وحسن إسلامه واشترك في الفتوح.

ومما يذكر أن القراء (حفظه القرآن الكريم) كان لهم دور كبير في هذه الحروب، فقد استطاعوا بصمودهم أن يبرهنوا على عزيمة قوية وعلى بطولة فائقة، ويروى أنهم كانوا حملة اللواء في هذه الحروب، ولما انكشف المسلمون في إحدى مواقع هذه الحرب كان غضب القراء بالغًا وصاحوا: ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذ كل واحد منهم يخط في الأرض خطًا بحيث لا يتجاوزه إلى الوراء، ويقاتل مستميتًا دون أن يتقهقر حتى ينتصر أو يموت.

---

[١] البلارذي: فتوح البلدان ص ١٠٤.

[٢] ابن الأثير – الكامل ٢ : ٢٤٤.

[٣] المرجع السابق ص ٩٨.

[٤] النووي: تهذيب الأسماء: القسم الأول ج ١ ص ٢٣٨.

[٥] لمزيد من التفاصيل راجع أحمد شلبي: موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية الجزء ٧.

[٦] الطبري ج ٣ ص ٢٨٢، وابن الأثير ج ٢ ص ١١٤.

[٧] ابن الأثير: الكامل ج ٢ ص ١٠٥.

ويُنسب للقراء أنهم في هذه الحروب ألفوا كتائب فدائية انتحارية كان شعارها النصر أو الموت، وقد استطاعوا بذلك أن يسحقوا الأعداء في مواقف كثيرة ويحققوا النصر للإسلام والمسلمين.

وعلى كل حال فقد جالت الجيوش الإسلامية جولة في الجزيرة العربية أعادت خلالها الثائر إلى الهدوء، والضال إلى الهداية، وعادت الجيوش إلى المدينة وقد عادت للجزيرة العربية وحدتها وتمسكها بالدين الحنيف بعد أن زالت الشبهات والترهات بالحكمة عند من عرف الحكمة، أو بالسيف عند من دفعته العصبية الضالة إلى السيف، ولم تعرف الحكمة إلى نفسه سبيلاً.

التوسع الإسلامي في عهد أبي بكر:

إن انتفاض الجزيرة العربية جدد الأمل عند الفرس والروم بأن العرب سيقضون على الإسلام، وقدمت الفرس والروم للعرب الثائرين على الحكم الإسلامي كثيرًا من المساعدات وآوت الفارين منهم، ولذلك لم يكد المسلمون يعيدون الجزيرة إلى وحدتها حتى كان الأوان قد آن للزحف نحو الشمال لمواجهة العدوين الكبيرين اللذين يتربصان بالإسلام، ويعملان على القضاء عليه، ومات أبو بكر والمعارك دائرة بين المسلمين من جهة والفرس والروم من جهة أخرى، وظهرت ثمرة هذا العمل في عهد عمر؛ ولذلك سنرجئ الكلام عن هذا التوسع الذي تم في عهد الخليفتين لنتحدث عنه عند الحديث عن الخليفة عمر.

وفاة أبي بكر:

مرض أبو بكر وتوفي بعد أن أمضى في الخلافة عامين وبضعة شهور، وهي مدة وجيزة ولكنها حاسمة في تاريخ الإسلام، لقد واجه أبوبكر فيها أحرج المواقف، ويمكن القول إنه في فترة منها كان يقف وحده[1]، ولكنه بإيمانه ويقينه بسرعان ما ضم المسلمين إلى رأيه، ثم سار بهم يدك صروح الشرك والأوهام، بل سار بهم يحطم قصور كسرى وقيصر، ولا نكاد نجد موقفًا عظيمًا في الصدر الإسلامي إلا واسم أبي بكر بارز فيه، رحم الله أبا بكر، لقد تمثلت فيه كل المعاني الإسلامية الرائعة.

عمر بن الخطاب

١٣– ٢٣ هـ (٦٣٤ – ٦٤٤م)

تعريف به:

هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي من بني عدي الذين كان لهم بين قريش -قبل الإسلام وبعده- شرف ومجد ومكانة عظيمة، وكان عمر يشتغل بالتجارة، وفي الجاهلية كان سفير قومه إذا تأزمت الأمور بينهم وبين الآخرين، واشتهرت عنه قبل إسلامه وبعده شجاعة لا تعرف الخوف وعزيمة لا تعرف التردد.

---

[1] ذلك عند إصراره على محاربة المرتدين والمتنبئين ومانعي الزكاة في حين اتجه باقي المسلمين إلى المسألة قائلين: كيف نحارب الجزيرة العربية كلها.

وكانت الدعوة الإسلامية في مطلعها ضعيفة تحتاج إلى لقوة، ولذلك أثر عن الرسول أنه قال: اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين (عمرو بن هشام (أبو جهل) أو عمر بن الخطاب) وقد استجاب له الله فأسلم عمر في السنة الخامسة للدعوة، وكان إسلامه فتحًا مبينًا، وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: كان إسلام عمر فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي في البيت خوفًا من قريش، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا[1]، وقصة إسلام عمر مشهورة، وقد تحدثنا عنها عند كلامنا عن أثر القرآن في انتشار الإسلام.

توليته الخلافة:

شهد أبو بكر الخلافات التي حدثت عقب وفاة الرسول، والأطماع التي أوشكت أن تفرق كلمة المسلمين، وقبيل وفاة أبي بكر كانت الجيوش الإسلامية تخوض أقسى المعارك التي عرفها التاريخ في ذلك الحين، إذ كانت الحروب دائرة بين المسلمين من جهة وبين الفرس والروم من جهة أخرى، والجيوش في ميدان القتال تحتاج إلى عون متصل من العاصمة، عون بالرأي والسلاح والرجال وغير ذلك، ورأى أبوبكر أنه لو ترك المسلمين بلا خليفة فإنهم قد يختلفون اختلافًا كثيرًا أو قليلاً، واضطراب العاصمة سيؤدي إلى هزيمة كبيرة للجيوش المحاربة، وقد يمتد الخلاف إلى الجيوش نفسها فيؤيد قائد مرشحًا، ويؤيد قائد آخر مرشحًا آخر، فتنقلب الحروب إلى معارك داخلية وهزائم قاتلة، ومن أجل هذا رأي أبو بكر أن يعين خلفه بعد أن يستشير الناس، أو أن يستشير الناس ويعين له من يرضونه، وكان عمر هو مرشح الخليفة ومرشح الناس، ومن غير عمر لهذا المكان وهناك عمر؟ ولذلك كتب أبو بكر وثيقة تعيين عمر بعد الاستشارة واتحاد الكلمة.

التوسع الإسلامي في عهد أبي بكر وعمر:

تحدثنا من قبل عن أسباب تفكير المسلمين في محاربة الفرس والروم، ونريد هنا أن نتبع مراحل هذا التوسع، وقد بدأ النضال بين المسلمين من جانب والغساسنة ومعهم أحلافهم من جانب آخر في غزوة مؤتة التي كان يقودها زيد بن حارثة مولى الرسول، وقد قتل فيها هو واثنان توليا القيادة بعد، ثم جاءت غزوة تبوك ولكن المسلمين لم يتأثروا فيها لقتلاهم بسبب انسحاب جيش الروم وعدم وقوع حرب كما سبق.

فلما تمت انتصارات الإسلام في الجزيرة العربية، ولما كانت مكايد الفرس والروم مستمرة، فقد أعد الرسول جيشًا عظيمًا ولى أسامة بن زيد لقيادته لأبيه ولقتلى المسلمين، ولكن الرسول مات قبل أن يسير هذا الجيش، فسيره أبو بكر[2].

ولكن تسيير أبي بكر لهذا الجيش كان عملاً سياسيًا أكثر منه حربيًا؛ فليس من الطبيعي أن يرسل خليفة المسلمين جيشًا لمحاربة الروم في حين تنتفض عليه أغلبية العرب، ولذلك رأى أبو بكر أن إرسال هذا الجيش سيجعل المتمردين يحسون أن بالمسلمين قوة كبيرة لولاها ما أقدموا على حرب الروم في هذه الظروف، ونجحت سياسة أبي بكر، فإرسال هذا الجيش خوف الروم وخوف الثائرين العرب وحقق هذا الجيش انتصارات طيبة في الغارات السريعة التي شنها على

---

[1] النووي: باب الأسماء القسم الأول ج ٢ ص ٤.

[2] ابن هشام ج ٢ ص ٣٦٥ وابن الأثير ٢ : ١٩٢.

الروم، والتي كانت فاتحة المعارك الطويلة بين المسلمين وبين الفرس والروم، تلك المعارك التي سنوجزها فيما يلي:

الفرس والروم قبل الزحف الإسلامي وعوامل انتصار المسلمين:

سبق أن قلنا إن قبيلتي هوازن وثقيف في حربهما مع المسلمين حشدتا النساء والأموال خلف الجيوش، حتى يعرف المحارب أن هزيمته معناها فناء أسرته وماله، ويفهم النقاد من ذلك أن هؤلاء الجنود لم يكونوا مخلصين في المعارك التي يخوضونها، ولو كانوا مخلصين لحاربوا من أجل العقيدة بشجاعة أكثر من محاربتهم من أجل النساء والأموال، وقد حارب المسلمون من أجل عقيدتهم، فكسبوا انتصارات حاسمة في مختلف الميادين دون أن يكون خلفهم نساء ولا أموال، وفي ضوء ذلك نحب أن نعرف شعور الجندي الفارسي أو الجندي الرومي وهو في هذه المعارك الطاحنة يحارب المسلمين.

لقد مضى على ظهور الإسلام حينذاك حوالي ربع قرن وقد سمعت عنه الشعوب ببلاد الفرس والروم، وسمعوا عما حققه من انتصارات، وسمعوا عن مبادئه السمحة، ولأول مرة يسمعون عن دين سوى بين الملك والسوق، ولأول مرة يسمعون عن حكام فقراء يرقعون الثياب ويخصفون النعال، وبينما كانوا يسمعون عن ذلك ويعرفونه، كانوا يعيشون في حياة بعيدة كل البعد عنه، وفي دولا شاخت وآن لها أن تزول، عظماؤهم أضعفهم التنافس على السلطان وهدهم البذخ وشعوبهم أضعفتها الخلافات الدينية واستبداد الملوك وظلم الحكام، وكان الجندي يدرك أنه يدافع عن شيء لا حق له فيه، يدافع عن وطن يملكه السادة ويستمتع به الملوك، فلماذا يبذل من أجله نفسه؟ ولماذا يريق دمه! ولقد كان الفرس يدركون أن جنودهم يحاربون دون رغبة، حتى اضطر القائد الفارسي في موقعة نهاوند أن يقيد جنوده بالسلاسل حتى لا يفروا، وقد سميت هذه الموقعة "موقعة ذات السلاسل"[١] وسيأتي عنها، وقد فعل الروم مثل ذلك أيضًا.

يروي البلاذري[٢] أن الروم في موقعة اليرموك تسلسلوا لئلا يطمعوا أنفسهم في الهرب.

وانتشر في فارس مبدأ الحق الإلهي المقدس، وذلك يجعل الملوك ظل الله على الأرض، ويبعد الهوة بينهم وبين شعوبهم[٣].

وكانت الفرس والروم في معارك تكاد تكون متصلة، وكان الفرس أو كان الروم ينالون النصر، ولكن الحرب تضني المهزوم والمنتصر.

والإمبراطورية الرومانية كانت واسعة تمتد من الشام فمصر وشمال إفريقية إلى شبه جزيرة إيبيريا، وهي بذلك تشمل عدة دول وعدة أجناس وأباطرة الرومان قساة محتلون، تثور عليهم الدول الخاضعة لهم من حين إلى آخر، فيقسون في تأديبهم، يريقون دماءهم، ويأخذون أموالهم إذا انتصروا عليهم، وغذا لم تثر هذه الدول فمعنى ذلك أن الثورة كامنة، إنها نار تتأجج في صدورهم ضد الاستعمار والاستبداد

والضرائب الفادحة التي كانت تؤخذ على الرؤوس والملابس وأثاث المنازل بل على الأموات.

---

[١] فتوح البلدان ص ٣٠١.

[٢] المرجع السابق ص ١٤١.

[٣] مقدمة ابن خلدون ص ٩٣١.

وكان السكان يضجون تحت حكم الرومان، ولذلك كثيرًا ما رحبوا بحكم المسلمين وانضموا إليهم في الكفاح، يروي البلاذري[1] أن المسلمين بعد أن أخذوا حمص أعد الرومان جيشًا كبيرًا ليستعيدوا به هذه المدينة: ولكن أهل حمص انضموا للمسلمين وقالوا: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كان فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة معكم وأقسموا ألا يدخل عامل هرقل المدينة إلا إذا غلبوا.

وحسبك أن تعرف أن مصر كانت تعرف عند الرومان بمزرعة القمح، حيث يزرع المصريون وتنبت أرض مصر، ويحصد المصريون، ثم يؤخذ منهم نتاجهم دون عدل أو رحمة، وقبل أن يزحف المسلمون على الروم كانت الإمبراطورية قد بدأت تتصدع فقد أغار القوط على أسبانيا وأخذوها وانهار الجناح الغربي، وأوشك الجناح الشرقي أن يتحطم على يد العرب.

وكانت الفرس تستعمر بلاد العراق، وكان الاضطهاد الديني ببلاد الفرس على أشده، وضعف سلطان الساسانيين الذي امتد حوالي أربعة قرون، وآل الحكم إلى يزدجرد الثالث آخر ملوكهم، وكان شابًا في الحادية والعشرين من عمره قليل التجارب، ورث دولة ضعيفة لا يستطيع المسير بها في ركب الحياة.

ويتجه البحث الحديث كما ذكرنا من قبل إلى اعتبار الزحف الإسلامي حركة قامت بها القبائل العربية المتحررة بالجزيرة العربية لتحرير الشعوب العربية التي كانت ترزخ تحت الاحتلال الفارسي أو الروماني.

وفي ضوء هذه الاعتبارات قامت الحرب بين المسلمين وبين الفرس والروم، وآذنت دولة الباطل بالخضوع، وقد كان هجوم المسلمين على الفرس والروم في وقت واحد لونًا من المغامرة العسكرية ساعد في الحصول على النهاية الطيبة، وسنرسم فيما يلي سير الحملات الحربية ونذكر أهم المواقع الحاسمة في إيجاز، وقبل أن نشرع في هذا يجدر بنا أن نشير إلى أن الذي يقرأ كتب الفتوح مثل فتوح البلدان للبلاذري وفتوح الشام للواقدي، وفتوح الشام للأزدي، وفتوح مصر لابن عبد الحكم، يرى اختلافًا كبيرًا في الروايات التي توردها هذه الكتب أو حتى تلك التي يوردها الكتاب الواحد منها، وهذا الاختلاف يتصل بالتواريخ وبتسلسل الفتوح وغيرها، ولن نعني كثيرًا بهذا الاختلاف إذ لا أرى كبير فائدة في معرفة ما إذا كانت دمشق فتحت قبل اليرموك أو بعدها، وأي أجزائها فتح على يد خالد وأيها فتح على يد أبي عبيدة، وأي أجزائها فتح صلحًا وأيها فتح عنوة وهكذا، وهناك بلاد يرد ذكرها على أنها فتحت في عهد عثمان، ثم ترد مرة ثانية على أنها فتحت في عهد معاوية، وترد مرة ثالثة على أنها فتحت في عهد الوليد ولعل ذلك يرجع إلى أن فتحها الأول كان صلحًا على جزية، ثم توقف السكان عن دفع الجزية فأعيد فتحها، أو كان فتح، فث ورة على الفتح، فاستعادة الفتح.

المهم مرة أخرى أن هذا الاختلاف قليل الغناء فيما أرى، ولذلك آثرت أن أكتفى هنا بإيراد الفتوح مسلسلة حسبما استطعت فهمها من التوفيق بين الروايات المختلفة التي وردت في الكتب السابقة وغيرها، مع ملاحظة أن البلاذري كان أكثر هذه الكتب دقة وشمولاً، ولذلك فسنعتمد عليه أكثر من سواه.

العراق وفارس:

---

[1] فتوح البلدان ١ ص ٤٣.

جرت المناوشات الأولى بين العرب والفرس في بلاد العراق على يد المثنى بن حارثة الشيباني وكان ذلك في مطلع عهد أبي بكر وبتكليف من الخليفة[١]، ولكن أبا بكر بعد أن شاهد نجاح المثنى مع قلة ما معه من العدة وقلة من معه من العدد أرسل إليه جيشًا عظيمًا يقوده سيف الله خالد بن الوليد، وكتب أبو بكر للمثنى يأمره بتلقي خالد والسمع والطاعة له[٢] ووصل خالد العراق فأخذت مدنه تصالحه وتخضع وتدفع له الجزية وتعده على أن تكون معه على الفرس، وأهم البلاد التي صالحها خالد أرض الحيرة[٣].

وسار خالد من الحيرة إلى الأنبار فحاصرها، ولكن مقاومتها لم تطل فطلبت الصلح واستسلمت [٤]، وكذلك استسلمت "عين التمر" بعد فترة من القتال والحصار، وقد وجد خالد في عين التمر مجموعة من العرب أسرهم الفرس وأودعوهم معبدًا في هذه المدينة فأطلق خالد سراحهم [٥].

ومن أهم المعارك التي خاضها خالد بفارس موقعة "الأبله" وتسمى موقعة "ذات السلاسل" لأن الفرس ربطوا فيها جنودهم بالسلاسل [٦] حتى لا يفروا من المعركة، ولكن ذلك لم يغنهم شيئًا، فقد فر منهم من وجد حيلة للفرار وسقط الباقون صرعى، وقد ترتب على هذه الموقعة الاستيلاء على ميناء الأبله على الخليج العربي [٧].

وبينما كان خالد في تقدمه ذاك، كانت الحملة على الروم تجتاز مرحلة صعبة، فحول أبو بكر خالد بن الوليد إلى الروم، وبذلك لم يقو جيش المثنى على الوقوف في وجه الفرس فارتد إلى أطراف الجزيرة العربية.

وفي عهد عمر كانت كفة المسلمين قد رجحت على الروم بعد انتصارهم في معركة اليرموك، فاتجه عمر إلى معاودة الزحف على بلاد الفرس، وفيما يلي فكرة سريعة عن أهم المعارك الحربية التي دارت بين المسلمين وبين الفرس في عهد عمر، والتي وضعت حدًا لمقاومة الفرس وأدخلتها إلى الأبد جزءًا من العالم الإسلامي.

يوم الجسر: حدثت هذه الموقعة سنة ١٣ هـ؛ وكان يقود جيش المسلمين فيها أبو عبيد بن عمر الثقفي أبو المختار بن أبي عبيد المشهور، ومعه سليط بن قيس الأنصاري، وكتب عمر للمثنى أن يكون في طاعة أبي عبيد، وكان يقود جيش الفرس قائد عظيم اسمه رستم، وتنسب هذه المعركة إلى جسر عند الحيرة عبره المسلمون والتقوا بجيش الفرس، وانتصر الفرس في هذه المعركة وقتل أبو عبيد وسليط[٨].

يوم مهران أو يوم النخيلة:

---

[١] البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٤٢.

[٢] المرجع السابق ص ٢٤٢.

[٣] المرجع السابق.

[٤] المرجع السابق ص ٤٧٢,

[٥] المرجع السابق ص ٢٤٨.

[٦] ابن الأثير: الكامل ٢ : ٢٩٢.

[٧] ياقوت: معجم البلدان ١: ٨٢.

[٨] البلاذري: ص ٢٥٢.

استمر عمر عامًا بعد يوم الجسر لا يغزو فارس، ولما دخلت سنة ١٥ بدأ يعاود غزوها، فأرسل لها جيشًا يقوده جرير بن عبد الله مع المثنى بن حارثة، وكان يقود جيش الفرس قائد اسمه مهران، وقد ثأر المسلمون في هذه الموقعة لقتلاهم في يوم الجسر، وقتل مهران وكثير من أتباعه[١].

القادسية: حدثت موقعة القادسية في السنة السادسة عشرة، وكان قائد المسلمين فيها سعد بن أبي وقاص وبلغ جيش المسلمين فيها حوالي عشرة آلاف وكان قائد الفرس رستم ذا الحاجب، ويتكون جيشه من مائة وعشرين ألف مقاتل، وقد مات المثنى بن حارثة قبل المعركة، ومن القادة الذين كانوا يساعدون سعد بن أبي وقاص، المغيرة بن شعبة وقيس بن هبيرة وطليحة بن خويلد الذي كان قد ادعى النبوة ثم تاب وأناب، وقبيل المعركة تم اتصال بين المسلمين والفرس رجاء الوصول إلى اتفاق يمنع الحرب، ولكن هذا الاتصال لم يسفر عن نتيجة، فقامت المعركة وهي من المعارك الهامة في تاريخ الحروب بين المسلمين والفرس فر فيها رستم وعشرات الآلاف من جنوده، وغنم المسلمون فيها مغانم كثيرة، وقد استمرت هذه المعركة عدة أيام[٢].

ومن الأحداث الهامة التي وقعت في هذه المعركة أن أبا محجن الثقفي أحد مشاهير الأبطال شرب الخمر في معسكر سعد، فضربه سعد وحبسه، ولما قامت المعركة حزن أبو محجن لأنه لم يشترك فيها، فتقدم "إلى زبراء" وهي أم ولد لسعد وطلب منها أن تطلق سراحه وتعيره فرسًا لسعد ليشهد المعركة، وحلف لها أن يعود إلى سجنه عقب المعركة، فأطلقته وأعطته الفرس.

ورأى المسلمون فارسًا مغوارًا يشق الصفوف ويطعن في العدو يمنة ويسرة فلا تخطئ طعنته، فقال سعد: لولا أن أبا محجن في السجن لظننت أنه هذا هو أبو محجن، وقبيل انتهاء المعركة انسحب أبو محجن وأعاد الفرس إلى مربطه وعاد هو إلى سجنه، وعرف سعد فيما بعد ذلك الخبر، فأتى إلى أبي محجن وأطلق سراحه وقال له: إنك تستحق العفو بعد ما رأيت منك، قال أبو محجن: وأنا والله لا أشرب الخمر أبدًا فقد كانت على وشك أن تحرمني من الجهاد[٣].

المدائن: كانت انتصار المسلمين في القادسية دافعًا لهم أن يستمروا في زحفهم، واتجهوا تقدمهم إلى القلب ليضربوه، إلى العاصمة طيسفون[٤] التي أسماها العرب "المدائن" لكثر ضواحيها حتى بدت للعرب كأنها مدائن لا مدينة واحدة، وتقع المدائن على ضفتي نهر دجلة واستطاع المسلمون أن يستولوا على الجانب الغربي من المدينة فأسرع الفرس وأخذوا السفن للجانب الشرقي كما هدموا الجسور حتى لا يستطيع العرب عبور النهر، ولكن المسلمين سرعان ما عبروا النهر بخيولهم، فاضطرب الفرس وقالوا والله ما هؤلاء إلى جن، وحاقت عليهم الهزيمة وهرب يزدجرد بن شهريار إلى حلوان ومعه وجوه قومه وأسرته وما خف من متاعه.

---

[١] البلاذري: فتوح البلدان ٢٥٢ – ٢٥٤.

[٢] ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٠: ٩،٢ ، ٢٦٥.

[٣] انظر فتوح البلدان للبلاذري ٢٥٥ – ٢٧٩.

[٤] ياقوت: معجم البلدان ٦: ١٣٤.

وسقطت العاصمة الفارسية العريقة في أيدي المسلمين بما تحويه من فن وذخائر، ولا شك أن سقوط العاصمة آذن بالانهيار الكامل لبلاد الفرس كلها، وكان سقوط العاصمة في العام السادس عشر[١].

جلولاء: أعد يزدجرد عدته ليقابل المسلمين، وبعث إلى كل النواحي يطلب العلون فانهالت عليه الإمدادات، وعسكر بمنطقة جلولاء وحفر الخنادق حول معسكره، ولكن المسلمين اقتحموا عليهم خنادقهم، ودارت معركة من أعنف معارك فارس يقول البلاذري عنها[٢] إن المتحاربين استعملوا الرماح حتى تقصفت وتجالدوا بالسيوف حتى انثنت، ولكن المسلمين ثبتوا حتى كتب لهم النصر وفر يزدجرد مرة ثانية من حلوان، وعقب الانتهاء من جلولاء أصبح للمسلمين كل أرض السواد، وكانت هذه الموقعة سنة ١٦ أيضًا تبعًا لرواية البلاذري[٣].

نهاوند: موقعة نهاوند تسمى فتح الفتوح، وقد أورد البلاذري أنها وقعت سنة ١٩، قال البلاذري: ويقال إنها وقعت سنة ٢٠ أو ٢١، ويبدو أن نهاوند كانت آخر محاولة جدية يقوم بها يزدجرد، فقد جمع لها جموعًا يرى بعض المؤرخين أنها وصلت ١٠٠ ألف[٤]، وولى قيادتها قائدًا عظيمًا يسمى الفيرزان وحرص على ألا يهرب المحاربون فقيدهم بالسلاسل[٥]، وقد استمات الفرس في الدفاع والحرب ولكن المسلمين هزموهم، وكان قائد المسلمين في هذه المعركة نعمان بن مقرن المزني الذي ولاه عمر بعد أن عزل سعد بن أبي وقاص الذي لم يرض عمر في بعض تصرفاته بالكوفة[٦]، وقد سقط النعمان في مطلع المعتركة فتولى مكانه حذيفة بن اليمان وتم على على يده النصر[٧].

بعد نهاوند: سار المسلمون بعد نهاوند فاستولوا على الأهواز ثم استولوا على قم وكاشان، ودانت لهم كذلك منطقة أذربيجان وكانت هذه الانتصارات الباهرة سببًا في إضعاف الروح المعنوية عند الفرس، فاستسلم صلحًا عدد كبير منهم، واستسلم آخرون عنوة، ولم يستطيع يزدجرد أن يقابل المسلمين بعد ذلك مقابلة قوية، وظل أمره في نقصان حتى قتل بخراسان سنة ٣١ هـ في عهد عثمان وبموته انتهت دولة(آل ساسان).

بقيت كلمة مهمة عن الفرس، فقد سقطوا في الميدان العسكري، ولكنهم ظلوا يصارعون الإسلام فكريًا فترات طويلة، كما أنهم شنوا على المسلمين حروبًا شعواء بأسماء مختلفة يمكن القول إنها كانت من أهم أسباب ضعف العالم الإسلامي، ولا شك أن بلاد الفرس كانت سبب الانحراف في بعض الاتجاهات الشيعية، وأن التعاليم الفارسية القديمة ومحاولة الثأر للكرامة الفارسية ظهرت في حركات الزنادقة والزنج والقرامطة وسنباذ والمقنع المروزي وبابك الخرمي وغيرهم ولا يوجد نظير لهذه الحركات الهدامة في الشام ومصر والشمال الإفريقي.

الروم

---

[١] فتوح البلدان ٢٦٢ – ٢٦٣ وانظر أيضًا ابن الأثير ٢، ٣٥٤.

[٢] البلاذري: فتوح البلدان ١٦٤.

[٣] المرجع السابق ١٦٣ – ٢٦٤.

[٤] البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٠٥.

[٥] البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٠١.

[٦] ابن سعد ٣/ س ٧٩.

[٧] البلاذري ٣٠٠ – ٣٠١.

كان اهتمام المسلمين بغزو الروم يفوق اهتمامهم بغزو فارس لأن شغب الروم على المسلمين سبق شغب الفرس، ولأن الشام ومصر وفلسطين دول محتلة ليست مخلصة للروم، وأمل المسلمون أن يجدوا من الأهلين بعض المساعدة لطرد هؤلاء المستعمرين القساة، وقد جمع أبو بكر جيوشًا عظيمة وجهها نحو الروم في فيالق أربعة كبيرة يقودها:

١– أبو عبيدة بن الجراح الذي لقبه الرسول بأمين الأمة[١] ويتجه لغزو حمص وله القيادة العامة.

٢– يزيد بن أبي سفيان ويتجه لغزو دمشق.

٣– شرحبيل بن حسنة ويتجه لغزو وادي الأردن.

٤– عمرو بن العاص ويتجه لغزو فلسطين[٢]

وكان تعداد الجيوش التي سيرت إلى الشام اثنى عشر ألفًا، ولكنها زيدت إلى أربعة وعشرين ألفًا[٣].

وقد سارت هذه الجيوش كل في الاتجاه الذي حدد له، ولما علم الروم بخطة العرب قسموا جندهم إلى أربعة أقسام كبيرة ليقاتلوا جيوش المسلمين الزاحفة، وكانت حصون الروم قوية ساعدت على إضعاف تقدم المسلمين، وقد استطاعت جيوش المسلمين أن تحرز نصرًا ملحوظًا كالنصر الباهر الذي ناله عمرو بن العاص في المعارك التي قام بها على حدود فلسطين، وهناك جيوش أخرى لم تستطع أن تحقق نصرًا يذكر أمام الآلاف المحتشدة من جند الروم، وأمام الحصون القوية التي تمطر وابلاً من المقذوفات التي سببت كثيرًا من الخسائر للمسلمين.

وهنا حصل تغيير في خطة المسلمين إذ وجدوا أن جيوش الروم كثيرة العدة والعدد، وأن جيوش المسلمين لن تنال منها ما تريد ما دامت متفرقة إلى فيالق أربعة، وعرف الخليفة أبو بكر ذلك فانتهى الأمر إلى:

أولاً: - تتوحد جيوش المسلمين لمقابلة الروم.

ثانيًا - يتجه خالد بن الوليد من العراق للشام ليساعد جيوش المسلمين ويتولى القيادة العامة[٤].

وبدأت الجيوش تقترب وتتجمع، وبدأ خالد يقوم برحلته التاريخية متخطيًا المفاوز والصحاري، وقد رأى خالد أنه إن اتخذ الطريق العادي من فارس إلى الروم فإن أخباره ستصل إلى الروم، وربما اعترضته جيوشهم وحالت بينه وبين جيوش المسلمين، ولذلك كان عليه أن يقتحم الصعاب، وأن يتخذ طريقًا غير مأهول، وهو بذلك يبعد عن الآبار ومنابع الماء، ويعرض نفسه وجيشه لجازفة لا يقوم بها إلى الأبطال الموهوبون.

---

[١] ابن الأثير الكامل ج ٢ ص ٢٢٠.

[٢] اقرأ تفاصيل اختيار هؤلاء القادة ووصايا أبي بكر لهم في فتوح الشام للواقدي ص ٣ – ١٠ واقرأ كذلك البلاذري: فتوح البلدان ص ١١٦ وتهذيب الأسماء للنووي القسم الثاني ج ١ – ١٨.

[٣] فتوح الشام وفتوح البلدان.

[٤] الواقدي: فتوح الشام ج ١ ص ١٣.

واتخذ خالد عدته لهذا العمل، وحمل معه ما استطاع حمله من الماء، ثم أتى بجمال فعطشها، ولما اشتد بها العطش أطلقها على الماء فملأت منه أكراشها، ثم ربط أفواهها حتى لا تجتر، وسار بجيشه الصغير الذي لم يصل إلى الألف، وكان يعطي الماء لجنوده بقدر، حتى إذا انتهى ما تحمله الإبل من الماء، عمد إلى الإبل التي اكتنز الماء بكروشها فذبح واحدًا في كل مرحلة وأخذ ما في كروشها من ماء فانتفع به، ويروى أن الماء قد نفد ولم يصل الجيش بعد إلى عين ماء، فصاح خالد برائده واسمه رافع بن عمير، ولكن الرائد طمأنهم أنهم على وشك أن يصلوا، ولم تطل عليهم الشقة بعد ذلك حتى نزلوا بمنابع الماء[١]، وفجأة ظهر خالد ببلاد الشام والتقى بجيوش المسلمين واستغرقت رحلته ثمانية عشر يومًا.

وقد دارت بين جيوش المسلمين وجيوش الروم مجموعة كبيرة من المعارك ولكن تسجيل هذه المعارك وتسجيل سير الفتوح هو موضع خلاف كبير بين المؤرخين كما سبق القول عن فتوح فارس، فقد اختلطت بعض الأسماء وبعض الأحداث وسأحاول أن أختار أهم المعارك وأذكرها مسلسلة بقدر فهمي لها.

أجنادين: وقعت موقعة أجنادين[٢] سنة ١٣هـ وكان خالد بن الوليد قائدًا لجيوش المسلمين التي بلغت حكوالي ثلاثين ألفًا، وكان تيودور أخو هرقل قائدًا لجيوش الروم التي أربت على مائة ألف، وكان جيش الروم كثير الأسلحة والعتاد، أما جيش المسلمين فكان قليل الأسلحة اللهم إلا الروح المعنوية القوية والثقة الهائلة في نصر مبين، ودارت رحى الحرب، فخر من جيش الروم أكثر من نصفه، وأسرع الباقون يولون الأدبار، وكانت هزيمتهم صاعقة على هرقل الذي لميتوقع مثل هذه الهزيمة الساحقة، ولذلك ترك حمص وهرب منها إلى أنطاكية[٣].

دمشق: أما المعركة الثانية الحاسمة في بلاد الشام فكانت حول دمشق، وقد أحاط المسلمون بالمدينة الباسمة وبالغوطة الجميلة، وتحصن الروم بالمدينة وأغلقوا أبوابها، ووقف خالد بجنوده على الباب الشرقي، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية، وعمرو بن العاص على باب توما، وشرحبيل على باب الفراديس ويزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير، وقد دارت مناوشات بين المهاجمين والمدافعين، كما دارت اتصالات بين المسلمين وبعض الأساقفة بالمدينة المحاصرة ودخل المسلمون دمشق من ناحيتين: دخلها أبو عبيدة من الباب الشرقي قسرًا ودخلها أبو عبيدة من باب الجابية سلمًا على أصح الروايات[٤] وكان ذلك سنة ١٤هـ.

والذي نميل له أن أمير المسلمين وقت حصار دمشق كان أبا عبيدة، أما خالد فكان عمر قد عزله قبل ذلك في أذيال معركة أجنادين، عقب وفاة أبي بكر وتولية عمر الخلافة، ومما يذكر بالفخر والإعجاب لسيف الله المسلول خالد بن الوليد أنه تلقى خبر عزله برضا وقبول مع أنه كان في أوج النصر، وأنه استمر يحارب في جلد وإخلاص تحت إمرة القائد الجديد، وقد سبق أن وقف أبو عبيدة نفس الموقف الرائع عندما طلب منه أبوبكر أن يسلم القيادة العامة لخالد، إنها في الحقيقة نماذج إسلامية رائعة ستظل ذكراها عاطرة على مر السنين.

---

[١] الواقدي: فتوح البلدان ١: ١٤ وانظر كذلك البلاذري ص ١١٨.

[٢] انظرها في تهذيب الأسماء للنووي ج ١ ص ١٧.

[٣] البلاذري ١٢٠ – ١٢١.

[٤] الواقدي: ص ٤٦ – ٥٠، والبلاذري ١٢٧– ١٣٠.

وقد وضح عمر سبب عزل خالد وعزل المثنى بن حارثة بقوله: إني لم أعزلهما عن ريبة، ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يفتتنوا بهما، ويرى ابن الأثير[١] أن غضب عمر سببه أن خالدًا أيد إسناد الخلافة لعلي بن أبي طالب عقب وفاة الرسول، ويرى بعض المؤرخين أن عزل خالد وتولية أبي عبيدة كان براعة سياسة من عمر، فإن أبا عبيدة كان أكثر قدرة على المسالمة والإدارة من خالد الذي كانت مقدرته أبرز في شئون الحرب وميادين القتال[٢].

اليرموك: وأعد هرقل العدة إلى لقاء فاصل جمع فيه كل قواه، مصممًا على الانتصار على المسلمين أو البأس عند الهزيمة، وقد بلغت جموعه مائتي ألف جندي وتبالغ بعض الروايات العربية فتصل بالرقم إلى مليون أو مليون ونصف، وقاد الجيش جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة والقائد الأرمني هامان، وكان جيش المسلمين حوالي أربعة وعشرين ألفًا يقوده خالد بن الوليد مع أبو عبيدة، ودارت معتركة عنيفة بالقرب من نهر اليرموك، واستعدادًا لهذه المعركة أخلى العرب دمشق وحمص وغيرهما، وتراجعوا لتكون المعركة على حافة الصحراء، إذ إن العرب أقدر على المعارك في مثل هذه البقاع[٣].

وتسلسلت الروم وأتباعهم لئلا يطمعوا أنفسهم في الهرب، وقد دارت الدائرة عليهم وفر منهم حوالي سبعين ألفًا، وتشتت الباقون إلى مختلف النواحي، وكانت نساء المسلمين يخضن المعركة مع الرجال.

ولما بلغ هرقل هزيمة جنده فر من أنطاكية إلى القسطنطينية، ويروى أنه ودع سوريا وداعًا فقال: السلام عليك يا سورية، سلام مودع لا يرجو اللقاء[٤].

تلك هي المواقع الحاسمة التي حدثت في الشام بين المسلمين وبين الروم وخاضتها جيوش المسلمين مجتمعة تحت قيادة واحدة، ويجدر بنا أن نوضح أن الجيوش الإسلامية كانت تفترق بعد كل انتصار فتتجه اتجاهات مختلفة، وكان كل منهما يحزر انتصارات عملية[٥]، ثم تجتمع كل الجيوش الإسلامية مرة أخرى لمقابلة الجيوش الكثيرة التي كان هرقل يعدها كما سبق.

وبعد مواقعة اليرموك انقسم جيش المسلمين قسمين اتجه قسم إلى الشمال بقيادة أبي عبيدة ومعه خالد بن الوليد، واتجه قسم آخر إلى الجنوب بقيادة عمرو بن العاص وشرحبيل، وبقي يزيد بن أبي سفيان في منطقة دمشق -وكان قد أرسل قبل ذلك لها- ليحمي ما حققه المسلمون من انتصارات بها.

وقد استطاع أبو عبيدة وخالد أن يستوليا على حمص وحماة وقنسرين واللاذقية وحلب، واستطاع عمرو بن العاص وشرحبيل أن يستوليا على عكا وحيفا ويافا وغزة وغيرها[٦].

ولم يبق أمام المسلمين إلا بيت المقدس، وقد دافع عنه الروم دفاعًا شديدًا أنزل كثيرًا من الخسائر بجنود المسلمين، ولكن جنود المسلمين صبروا ولعبت السياسة دورها فقد اتصل المسلمون

---

[١] الكامل في التاريخ ٢: ٣٧٦.

[٢] فيليب حتى: تاريخ سوريا ص ١٥.

[٣] المرجع السابق ص ١١.

[٤] الواقدي: فتوح الشام ج ١ ص ٩٦، وما بعدها والبلاذري فتوح البلدان ١٤٠ – ١٤٢.

[٥] البلاذري ص ٢٢.

[٦] انظر تفاصيل فتح هذه المدن في الواقدي ج ١ ص ٦٣، ٦٥، ٨٥٥، وج ٢، ص ٩، ١٦.

بالمسيحيين ببيت المقدس، وكان المسيحيون يعانون المتاعب من حكم الروم، كما كان المسلمون يعظمون بيت المقدس ولا يريدون مواصلة الضحايا من الجانبين، وأحس أرطبون قائد الروم بهذه المناورات تدور حوله فهرب إلى مصر، وطلب المسيحيون الصلح على أن يحضر الخلفة بنفسه لتسلم المدينة ويتعهد لسكانها بالحرية الدينية فكتب عمرو إلى عمر بذلك فحضر وكتب بنفسه كتاب الأمان[١] المسمى "العهدة العمرية".

واتجه عمرو بعد ذلك لمقابلة قسطنطين بن هرقل عند قيسارية، ولكن عوامل الذعر كانت قد استولت على الأمير الشاب فهرب تاركًا جيشه، وسافر إلى القسطنطينية في ظلام الليل، كما هرب أبوه من قبل من أنطاكية إلى القسطنطينية على أثر هزائم الروم في اليرموك.

لقد بذل المسلمون آلاف الضحايا في حروبهم ضد الروم في سوريا وفلسطين، فأصبحت هذه الديار بذلك غالية عليهم، فكم لهم بها من أرواح أزهقت ودماء أريقت.

مصر: ليس بين مصر وفلسطين حدود طبيعية، فإلى أين يقف عمرو بن العاص في زحفه نحو الجنوب؟ وفي مصر كما كان في فلسطين وسوريا جيش الروم، ولن يحس المسلمون بالاستقرار في سوريا وفلسطين وهناك جيش كبير على مقربة منهم يتبع عدوهم الحانق عليهم، ومن هنا كان الزحف إلى مصر طبيعيًا، وكانت مصر تعاني ما عانته سوريا وفلسطين من تعسف الروم وظلمهم وطغيانهم، ثم كانت مصر كالعهد بها دائمًا غنية، درة الشرق، وأرضها خصبة، ونيلها الخالد ينساب بالخير وعلى جانبيه تمتد إلى الرياض والمزارع المثمرة، ولمصر سيرتها المجيدة التي تضرب آلاف السنين في أعماق التاريخ، والاستيلاء على مصر إنما هو ضمان لاستقرار الإسلام في كل هذه البقاع بآسيا وإفريقية التي آذنت بالتحرر من سلطة دولة الروم.

ففتح مصر إذًا كان عملاً طبيعيًا، وبدونه ما كانت جيوش المسلمين بفلسطين تنعم بأمن أو استقرار، ومن هنا لا مجال -فيما أعتقد- لتصديق الروايات التي تثير خلافًا بين الخليفة وبين قائده عمرو بن العاص حول الزحف على مصر[٢]، وما كانت هذه المعارك الضخمة تنشب في جو من التردد كالذي تصوره هذه الروايات: وما كان عمرو بن العاص بمستطيع أن يقف من الخليفة العظيم عمر بن الخطاب هذا الموقف الذي تحاول هذه الروايات أن تثبته، وقد أورد الواقدي ما يقطع هذه الشكوك فقال: أرسل عمر بن الخطاب كتابًا إلى أبي عبيدة يقول فيه "وإذا قرأت كتابي هذا فأمر عمرو بن العاص أن يتوجه إلى مصر بعسكره ..." [٣].

وعلى هذا يبدو أن الرأي كان قد استقر بين الخليفة والقائد على فتح مصر، فسار عمرو مخترقًا صحراء سيناء حتى وصل إلى العريش فاستولى عليها دون مقاومة تذكر، ثم سار حتى وصل الفرما وقد حاصرها بجيشه أكثر من شهر، ولعب المصريون دورًا هامًا في مساعدة المسلمين ضد الروم حتى سقطت الفرما في يد المسلمين سنة ١٩هـ.

وتقدم المسلمون إلى بلبيس، وكان بها جيش كبير يقوده أرطبون الذي فر من بيت المقدس، وقد دار قتال كبير حول بلبيس استمر مدة شهر قضى فيه المسلمون على قوة الروم وتسلموا المدينة، ويقال إنه كان بها ابنة المقوس وهو الحاكم المصري الذي عينه قيصر الروم ليحكم البلاد

---

[١] الواقدي: فتوح للشام ص ١١١، وما بعدها والبلاذري: فتوح البلدان ص ١١١.

[٢] انظر بعض هذه الروايات في ابن عبد الحكم ص ٥٣، وما بعدها وفي البلاذري ص ٢١٤.

[٣] الواقدي: فتوح الشام ج ١ ص ٢٢.

باسمه، ولما استولى عمرو على بليس أكرم ابنة المقوس وأرسلها معززة مكرمة إلى أبيها، وكانت تلك سياسة رشيدة ساعدت على تقوية العلاقة بين العرب والمصريين.

وسار جيش المسلمين إلى أم دنين (المقس)، ودار حولها قتال عنيف لم يستطع المسلمون الفوز فيه، فأرسل عمرو يطلب عونًا من الخليفة فأرسل له الخليفة أربعة آلاف فيهم الزبير وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود، وكتب له بقوله "قد أمددتك بأربعة آلاف فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل" والتقى جيش المسلمين بجيش الروم وكان تعداده عشرين ألفًا يقوده قائد عظيم اسمه "تيودور" وجرت المعركة عند عين شمس وقد هزم فيها جيش الروم هزيمة منكرة بسبب التقسيم الرائع الذي اقترحه عمرو؛ إذ قسم جيشه ثلاثة أقسام كبيرة قابل الروم بقسم منها، وفي أثناء المعركة هجم القسم الثاني من جهة وهجم القسم الثالث من الجهة المقابلة فحوصر جيش الروم واختل نظامه وكثرت الضحايا، وفر منه من فر إلى حصن بابليون.

حصن بابليون: ودخلت سنة ٢٠هـ، وكانت أهم معركة يستعد لها الطرفان هي معركة حصن بابليون: وقد حاصره المسلمون حصارًا طويلاً امتد ستة شهور، ثم بدأت المفاوضات للصلح فأرسل المقوس وفدًا يتحدث باسمه إلى عمرو: فاستبقى عمرو الوفد يومين ليتعرفوا على أحوال المسلمين، ثم طلب منهم أن ينقلوا للمقوس أن يختار بين:

١– الإسلام وبذلك يكون لهم ما للمسلمين وعليهما على المسلمين.

٢– الجزية نظير الحماية ونظير الاستمتاع بمرافق الدولة من شرطة وقضاء وغيرهما.

٣– الحرب.

وعاد رسل المقوقس إليه لا بهذه الثلاثة فقط، بل بوصف حبب الإسلام إلى المصريين، قالوا: رأينا قومًا الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا تهمة، جلوسهم على التراب، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف كبيرهم من وضعيهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم.

ورأى المقوقس ضرورة الصلح مع هؤلاء، فعقده على الجزية، فهي أقل كثيرًا مما يأخذه الروم من المصريين، ولم يوافق هرقل على هذا الصلح ولكن المقوقس أمضاه.

الإسكندرية: لم يبق أمام المسلمين بعد حصن بابليون من المواقع المهمة بمصر إلا الإسكندرية وكانت عاصمة الديار المصرية، وقد سار إليها المسلمون وفتحوا في الطريق إليها ما قابلهم من حصون، وكانت الإسكندرية منيعة متصلة بالبحر، ويأتي إليها المدد من القسطنطينية عن طريق البحر، وبها أكبر حامية للروم بمصر، وقد كانت هذه الظروف سببًا في طول إقامة المسلمين حول الإسكندرية حتى ضعف الأمل في فتحها، وقد أحس الخليفة عمر بذلك فكتب لعمرو كتابًا شديدًا يلومه فيه، ويلوم المسلمين على ترددهم، ويذكرهم أنهم إن لم يفتحوا الإسكندرية فإن حياتهم معرضة لخطر هجوم قوي من الروم يقضي عليهم بعد أن تضعف روحهم المعنوية، ولما تسلم عمرو الكتاب قرأه على المسلمين، فعقدوا العزم على العمل بإصرار وأمل، وقاموا بحملة قوية على العاصمة أضعفت أمامهم قوى الروم، وتمكنوا من التسلل إلى داخل الأسوار، وأعملوا القتل والذعر في نفوس الجنود فهرب هؤلاء إلى سفنهم بالبحر، وأسر منهم عدد كبير، وتقدم المقوقس مرة أخرى فأجرى الصلح مع المسلمين سنة ٢١هـ على شروط أهمها:

١– الجزية. ٢– حرية العبادة.

٣– أن ترحل حامية الروم وأن يبقى مع المسلمين رهينة منهم حتى لا يهاجموا مصر مرة أخرى[١].

وأصبحت مصر تابعة للخلافة الإسلامية.

الغالبون والمغلوبون:

هل كان الفتح الإسلامي انتصارًا للعرب وهزيمة للسوريين والمصريين؟

لعل أدق إجابة هي تلك التي يذكرها الدكتور فيليب حتى في كتابه "تاريخ العرب"[٢]، وهي: "كان السوريون والمصريون يعتبرون العرب الفاتحين قومًا من بني جنسهم يربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام السابقين الذين كانوا من الأجانب الغاصبين، فالفتوحات الإسلامية من هذه الوجهة هي عند التحقيق انقلاب اجتماعي سياسي استرد به الشرق الأدنى مجده السامي الغاير، فقد جاء الإسلام مهيبًا بالشرق إلى النهوض من كبوته بعد ألف سنة اجتاحته فيها سطوة الغريب، فاستطاع الشرق بالإسلام أن يسترجع ماضيه لا في ميدان السياسة فحسب بل في ميدان الثقافة أيضًا حيث تسنى له أن يعيد قيادته الفكرية".

ويمكن القول إن الفرس والعراقيين والمصريين والسوريين رأوا في الإسلام متنفسًا وسماحة أنقذتهم، من الطغيان والإكراه والاستغلال التي عاشوا تحت ضغطها مدة طويلة، لقد ضمن الإسلام لهم حرية الأديان وأعفاهم من الأعمال العسكرية نظير دفع جزيرة ضئيلة إل تمن شاء أن يدخل صفوف المدافعين عن البلاد فله أن يدخل ويعفى من الجزية مع بقائه على دينه، وترك المسلمون الأرض للمصريين والسوريين والعراقيين على أن يدفعوا خراجها وهو أقل بكثير مما كان يأخذه الأكاسرة والقياصرة الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ملاكًا للأرض ومن عليها من البشر، وأمن المسلمون الأهلين على أموالهم ونسائهم وأولادهم، ورأى الأهلون في المسلمون المساواة التي كانوا لا يحلمون بها، وقام المسلمون بكثير من الإصلاحات التي تتصل بالقضاء والشرطة والطرق والري والهندسة والجسور، وكان القانون الإسلامي يسري على المسلمين أما غير المسلمين فقد ترك الفصل في شئونهم القانون المدني الذي كان معمولاً به قبل الفتح، ووضع أمر تنفيذه في يد رؤسائهم الدينيين، وهذا هو منشأ استقلال الطوائف الدينية بشئونها المالية، ذلك النظام الذي ظل سائدًا في البلاد الإسلامية إلى وقت انهيار الدولة العثمانية، والذي لا يزال معمولاً به في الشئون المالية في معظم ممالك الشرق الأوسط التي لم يوحد فيها القضاء يجعله مدنيًا بحتًا لا دخل فيه للشريعة[٣].

وفي الوقت نفسه قام الدعاة والفقهاء يتحدثون عن الإسلام وأخلاقه ومبادئه فلا عجب أن أقبل أهل هذه البلاد على الإسلام يعتنقونه ويدينون به، فأخذ الإسلام ينتشر رويدًا رويدًا، وأخذت اللغة العربية أيضًا تنتشر، ومما ساعد على انتشار نزوح كثيرين من العرب الرحل من البادية

---

[١] الواقدي: فتوح مصر ج ٢ ص ٤٥ وما بعدها.

[٢] ج ١ ص ١٩٤، ١٩٨.

[٣] Kirt: A Short History of the Middle East p. 29

وانخراطهم في غمار حياة الاستقرار بالمدن الغنية المفتوحة[١] حتى كان رجال الكنيسة القبطية في القرن العاشر يضعون كتاباتهم باللغة العربية لكي يفهمها أتباعهم[٢].

عمر باني الدولة الإسلامية:

كانت مهمة الرسول العظمى هي تبليغ الرسالة، وتعليم المسلمين ما فيه خير دينهم ودنياهم، وقد قام الرسول صلوات الله عليه بتبليغ الرسالة خير قيام، وكذلك علم الناس ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، ووضع للمسلمين أسس حياة سامية، وحل كل المشكلات التي بدت لهم في عهده.

ولكن الإسلام لم يتجاوز جزيرة العرب في حياة الرسول، وحياة العرب بطبيعتها سهلة بسيطة، فلما امتد الإسلام إلى الشام ومصر والفرس، واتصل الإسلام بحضارات هذه البلاد، قابل الإسلام ظروفًا جديدة، وظهرت مشكلات لم يكن للمسلمين به عهد، ولم تتضح هذه المشكلات بطبيعة الحال في عهد أبي بكر، فقد كان عهده قصيرًا ومات رضي الله عنه والنصر لم يكتمل في الحروب الدائرة بين المسلمين وبين الفرس والروم، بل إنه قد مات والحروب مع هؤلاء في مطلعها، ومن ثم فعبء المشكلات الجديدة وقع على عاتق الخليفة العظيم عمر بن الخطاب.

وكان عمر ملهمًا، فوفق أجمل توفيق في الاستجابة للحياة الجديدة وفي بناء الدولة الإسلامية، فهو الذي دون الدواوين[٣]، وأنشأ بيت المال، وصك النقود، وكون جيشًا محترفًا لحماية الحدود، ونظم المرتبات، وعين الولاة والقضاة، ورتب البريد، وأنشأ نظام الحسبة، وثبت الهجرة لتكون مبدأ للتاريخ عند المسلمين، بحيث لا يترك التأريخ بها إلى أي حادث آخر قد يجيء.

ولم يكتف عمر باقتراح ما دعت له الضرورة من نظم، بل عدل فيما وضع من قبل عندما ظهرت ضرورة للتعديل، فهو الذي قرر أن تبقى الأرض المفتوحة في أيدي أصحابها واقترح لذلك نظام الخراج، وكان المفروض أن يستولي المحاربون على ما فتحوه عنوة، وهو الذي أعاد النظر في إعطاء المؤلفة قلوبهم، ووضع شروطًا لمن يستحق هذا العطاء، وغير ذلك من الأشياء[٤].

لقد ملأ محمد الدنيا نورًا بدين الإسلام، وأوشك هذا النور أن يخبو بعد وفاته في خضم الأحداث العاتية، فحفظته همة أبي بكر، ثم جاء عمر فزين البناء الشامخ وأمده بأروع النظم وأحسنها، ولا زال العالم الإسلامي يعيش حتى اليوم وأعظم النور الذي يستمتع به مصدره الرسول الكريم وصاحباه العظيمان.

---

[١] يرى الدكتور فيليب حتى (تاريخ العرب ١: ١٠ – ١٤) أن الجزيرة العربية هي مهد الساميين وأن هذه الهجرة التي أشرنا إليها هي آخر هجرات الجنس السامي إلى الهلال الخصيب ومصر وشمال إفريقية، وقبل هذه الهجرة حصلت موجات من الهجرات من الجزيرة السربية حيث اختلط المهاجرون الساميون بالعناصر الأصلية بالبلاد التي هاجروا إليها، وقد بدأت هذه الهجرات قبل الميلاد بعدة آلاف من السنين وتكررت كلما ضاقت الجزيرة العربية بسكانها، وقد كان الفراعنة القدماء نتيجة الامتزاج بين الساميين والحاميين، وكان البابليون نتيجة امتزاج الساميين بالسومريين، وكان الفينيقيون نتجة الامتزاج بين الساميين والسكان الأصليين بساحل الشام هذا ويرجح من جهة أخرى أن هجرات كبيرة جاءت إلى الجزيرة العربية من أواسط إفريقية عبر باب المندب.

[٢] تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٧٧ والكامل للمبرد ج ٢ ص ٤٨٨.

[٣] Kirt: A Short History of the Middle East p. 37.

[٤] انظر كتاب الاقتصاد في التفكير الإسلامي للدكتور أحمد شلبي.

كلمة عن البريد:

ذكرنا آنفًا أن من أبرز أعمال عمر أنه رتب البريد، ونريد أن نعطي هنا مزيدًا من التفصيل عن هذا الموضوع.

والبريد اسم لمسافة محددة هي اثنا عشر ميلاً، ثم أطلق اللفظ على من يحمل الرسائل ويسير بها هذه المسافة ليسلمها إلى آخر يسير بها مسافة أخرى مماثلة وهكذا، ثم أطلق اللفظ أخيرًا على الرسائل نفسها، وقد عرف البريد عند المسلمين منذ اتساع الدولة الإسلامية في مطلع عهد الخلفاء الراشدين، واشتهر أمر البريد في خلافة عمر بن الخطاب، بسبب اتساع الدولة وضرورة الصلة بين الخليفة وبين قواده وعماله عن طريق البريد، ولم يكن البريد في عهد عمر خاصًا بأعمال الحكومة، بل إن عمر كان يأمر مناديًا ينادي في الناس بأن بريد المسلمين يريد أن يخرج إلى ناحية كذا فمن كانت له حاجة فليكتب، وكان عمر نفسه يتولى الكتابة أحيانًا لمن لا يعرفون الكتابة ويريدون أن يكتبوا لذويهم المجاهدين[1].

وعلى هذا كان يريد المسلمين يشمل رسائل من الخليفة إلى عماله وإلى رؤساء جند المسلمين، كما كان يحمل الرسائل من الناس إلى ذويهم بالميدان.

وفي عهد معاوية رُتب البريد ترتيبًا أدق، وأصبحت له مناهج وطرق ومواعيد منتظمة، ومحطات محددة، وفي عهد الدولة العباسية بلغت محطات البريد نحو ألف محطة تربط العاصمة بمختلف النواحي، وعين لكل محطة رئيس لملاحظة سير السعاة والخيالة وحالة المحطات، وكان جميع هؤلاء الرؤساء يقدمون تقريراتهم عن كل ما يحدث في الخطوط إلى إدارة البريد العامة بالعاصمة التي كانت تعرض الأمر على الخليفة دون تأخير، وأصبح البريد يخدم أغراض الخلافة بوجه خاص، وكان الخليفة يعين عامل البريد من أقرب المتصلين به، كما كان عامل البريد يدخل على الخليفة دون حجاب.

وقد استعمل العرب في أول الأمر الإبل لنقل البريد، ثم استبدلوا بها البغال ثم الخيل لسرعتها، وكانت الخيول تقف في كل محطة مستعدة لتلقي الرسائل من المحطة السابقة، وتوصيلها للمحطة التالية وهكذا، وكانت شبكة البريد تغطي المملكة الإسلامية كلها، وتوثق الصلات بين أجزائها.

عين عمر:

يحس كثير من الغربيين بالدهشة إذ استطاع عمر أن يسيطر على العالم الإسلامي مع اتساعه في عهد المواصلات البدائية، والإجابة سهلة، فقد كان عمر يهتم اهتمامًا كبيرًا باختيار ولاته، ويراقبهم بوسائل مختلفة بعد الاختيار، حتى ليمكن القول بأن عين عمر كانت في كل مكان.

مقتل عمر:

قتل عمر بن الخطاب في مؤامرة دبرها بعض أعداء الإسلام من الفرس واليهود ونفذها أبو لؤلؤة، وهو مولى فارسي أسر في نهاوند وأصبح ملكًا للمغيرة بن شعبة، ومن الواضح أن عمر أزال ملك الفرس وقضى على سلطانهم، ولهذا كانت الطبقة العليا من الفرس هي وأتباعها تحقد على عمر وتتمنى الخلاص منه، وقد تسلل القاتل إلى المسجد وعمر يبدأ في صلاة الفجر ولم ينتشر الضوء بعد، فطعن الخليفة بخنجر عدة طعنات إحداها تحت سرته فخرقت أمعاءه، وصاح

---

[1] انظر كتاب الاقتصاد في التفكير الإسلامي للدكتور أحمد شلبي.

عمر، فأقبل المسلمون يقبضون على القاتل، فانهال عليهم طعنًا حتى قتل وجرح عددًا منهم، ثم استطاعوا القبض عليه فطعن نفسه وانتحر.

ومات الخليفة العظيم بعد ذلك ببضعة أيام تاركًا أعظم الذكريات، ومخلفًا سيرة من أعظم السير التي يرويها التاريخ.

وكاد سر الجريمة ينطوي بموت القاتل، ولكن شعاعًا من الضوء ظهر فأوضح المؤامرة، فقد ذكر عبد الرحمن بن أبي بكر أنه رأى في اليوم السابق لطعن عمر ثلاثة يتهامسون هم الهرمزان وهو سيد من سادة الفرس، فقد سلطانه ومكانته وأصبح يعيش بين عامة الناس بعد أفقد الأمل في استرجاع نفوذه، وجفينة وكان نصرانيًا من أهل الحيرة يعلم الكتابة بالمدينة وأبو لؤلؤة، ويقول عبد الرحمن إن المتآمرين فوجئوا به فارتبكوا وسقط منهم خنجر له رأسان، ولما رأى عبد الرحمن الخنجر الذي طُعن به عمر قرر أنه نفس الخنجر الذي رآه أمس، وكان ذلك سببًا في أن عبيد الله بن عمر حمل سيفه بعد موت أبيه وقتل الهرمزان وجفينة وابنة صغيرة لأبي لؤلؤة[1].

وسيأتي فيما بعد شرح موقف المسلمين من عبيد الله الذي حملته الحماسة أو قل الرعونة للفتك بالناس، فالقصاص – على فرض ثبوت الجريمة – يتم بحكم القضاء وبأمر الخليفة.

عثمان بن عفان

٢٣ – ٣٥هـ (٦٤٤ – ٦٥٧)

تعريف به:

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، ولد بعد ميلاد الرسول بخمس سنين، ودخل الإسلام على يد أبي بكر الصديق، وكان من كبار الأثرياء قبل الإسلام وبعده، وكان سخيًا جدًّا بذل المال لخدمة الإسلام، ففي جيش العسرة أمد المسلمين بمئات الإبل بأقتابها وعدتها، وعدد من الخيول، وألف دينار كما سبق القول، وفي مناسبات أخرى كثيرة كان يعطي ماله بدون حساب لخدمة الإسلام ومساعدة المسلمين.

وعثمان من المبشرين بالجنة، وقد أثر عن الرسول قوله: لكل نبي رفيق ورفيقي في الجنة عثمان، ولقوة صلته بالرسول زوجه الرسول من ابنته رقيقة فلما ماتت في أثناء غزوة بدر زوجه الرسول بابنته الثانية أم كلثوم وقد بقيت معه حتى ماتت في السنة التاسعة للهجرة، ولذلك يسمى "ذا النورين" وقد أثر عن الرسول أنه قال له بعد موت أم كلثوم: لو أن لنا ثالثة لزوجناك.

وقد مر بنا على أن عثمان كان سفير الرسول لقريش وقت الحديبية، وهذا يدل على علو مكانته، وكانت سفارته ناجحة.

توليته الخلافة:

عندما طعن عمر لم يكن في نيته أن يولي خلفًا له، فالظروف التي دعت أبا بكر أن يعين خلفًا له قد زالت إذ انتصرت جيوش المسلمين واستقرت الأحوال، ولكن المسلمين خافوا الفرقة بعد

---

[1] تاريخ الطبري ٣: ٢: ٣.

موت الخليفة فعرضوا على عمر أن يعين خلفه، وقد أثر عنه قوله، إن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني (يقصد أبا بكر)، وإن ترك فقد ترك من هو خير مني (يقصد الرسول صلوات الله عليه) ويبدو لنا من دراسة هذه الفترة أن عمر كان مترددًا، فهو لا يريد أن يتحمل مسئوليات الناس بعد موته، ولا يريد في الوقت نفسه للمسلمين الفرقة بعده، ولذلك نجده يقترح طريقًا وسطًا بين التعيين وعدم التعيين، فيعين الستة المبشرين بالجنة، وهم خيرة المسلمين ولن يكون الخليفة بطبيعة الحال إلا منهم، ويطلب من هؤلاء الستة أن يختاروا من بينهم الحليفة بعد استشارة المسلمين، وهؤلاء الستة هم:

عثمان – علي بن أبي طالب – طلحة بن عبيد الله – الزبير بن العوام – سعد بن أبي وقاص – عبد الرحمن بن عوف.

وضم عمر إليهم ابنه عبد الله ليكون له رأي في الاختيار على ألا يختار للخلافة، وحدد عمر ثلاثة أيام تنتهي المشاورة خلالها.

ومات عمر واجتمع هؤلاء للمشاورة، فاقترح عبد الرحمن بن عوف أن يخرج أحدهم نفسه ويتولى الذي يخرج مشاورة الناس واختيار الخليفة من بين الخمسة الآخرين، فقبلوا ذلك المبدأ، ثم عرض عليهم استعداده ليكون هو ذلك الشخص فقبلوا، وعاهدوه على ذلك، وعاهدهم على الحق والعدل، واستشار عبد الرحمن الخاصة والعامة وستشار المرشحين، فوجد أن الإجماع يكاد يكون منعقدًا على عثمان أو علي، فانحصرت الخلافة فيهما، فاختار عثمان لكبر سنه وسهولة طبعه[١].

وأول قضية بحثها عثمان هي قضية عبيد الله بن عمر الذي قتل الهرمزان وجفينة وابنة صغيرة لأبي لؤلؤة كما سبق، وقد اختلف رأي المسلمين في هذه القضية، فقال بعضهم بوجوب قتل عبيد الله، ورأى آخرون أن من الصعب قتل عمر أمس وقتل ابنه اليوم، وتخلص عثمان من هذه المشكلة بأن حكم بالدية لأهل القتلى وتحمل الدية في ماله، وقيل إن عثمان حكم بالقصاص ولكن أهل القتلى عفوا عن عبيد الله واكتفوا بالدية[٢].

سياسة عثمان:

إن الدارس لتاريخ عثمان رضي الله عنه يرى أن سياسته في الحكم كانت تتجه للين والعظة ولا تتجه للحسم والعزم والتخويف، وهو بهذا كان يختلف عن أبي بكر وعمر، ويمكن أن نلحظ علامات السياسة التي اتبعها عثمان من خطابه الذي بدأ به خلافته، قال رضي الله عنه للناس: "إنكم في دار الزوال، لا في دار البقاء، وفي بقية أعمار (أي تقدمت بكم الأعمار) فبادروا بخير ما تقدرون عليه، وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم هذه الحياة، واعتبروا بمن مضى، أين الذين عمروا الأرض ونالوا منها؟ ألم يأتوا إلى نهاية؟ لا تغفلوا عن الواجب فإنه لا يغفل عنكم. ارموا الدنيا واطلبوا الآخرة".

التوسعة واليسر على الناس:

---

[١] ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤، ص ٣٠٣ واقرأ التفاصيل الدقيقة في كتاب "السياسة في التفكير الإسلامي" للدكتور أحمد شلبي.

[٢] انظر تفاصيل هذه القصة في تهذيب الأسماء للنووي القسم الأول ج ١ ص ٣١٥ – ٣١٦.

وكما اتجه عثمان في سياسته إلى الرفق واللين اتجه كذلك للتوسعة على المسلمين، فقد زاد في الأعطيات، وأطلق للمسلمين حرية التمتع بالنعم الحلال ليشكروا الله على ما رزقهم من نعم، وأباح للصحابة أن ينتشروا في البلاد رجاء أن يدعوا إلى الله، وأن يستفيدوا من الاتصالات بالحضارات الأخرى، وكان عمر رضي الله عنه قد منع الصحابة من مغادرة المدينة.

نسخة عدة صور من القرآن:

يروى أن حذيفة بن اليمان عاد إلى المدينة في عهد عثمان بعد أن كان يشترك في الفتوحات الإسلامية بعدة بلاد، وقد فَزَع حذيفة عندما رأى اختلافات الناس هنا وهناك في قراءة القرآن، فجاء إلى عثمان وقال له: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في كتاب الله كما اختلف اليهود والنصارى.

فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر يطلب أن ترسل إليه المصحف الذي كان قد جمع في عهد أبي بكر: لكتابة عدة نسخ منه للأقطار المختلفة، على أن يعيد الأصل إلى حفصة بعد ذلك.

وتسلم عثمان المصحف من حفصة، وجمع مجموعة من القراء هم زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وطلب منهم أن يكتبوا عدة نسخ من هذا المصحف ولما تم ذلك أرسل عثمان نسخة إلى كل من البصرة والكوفة والشام ومكة، وخصص نسخة لأهل المدينة، كما حصل هو نفسه على نسخة.

وعثمان بذلك قد خدم الذكر الحكيم أجل خدمة، وجمع الناس على قراءة واحدة هي ما ورد في هذا المصحف الشريف، وأمرهم بحرق ما سواه من صحف أو كتابات.

لمحة عن صفات عثمان

إن الدارس لحياة عثمان قبل الإسلام وبعده، وقبل أن يتولى الخلافة وبعد أن تولاها يجد صورة زاهية لمسلم اجتمعت فيه أسمى الصفات وأرقى السجايا، وسنورد فيما يلي خلاصة بصفات عثمان رضي الله عنه.

قمة في الطهر والتعفف:

وأول ما نذكره أن عثمان لم يشرب خمرًا في الجاهلية، وكان يقول قبل الإسلام: إنها تذهب العقل، والعقل أسمى ما منحه الله للإنسان، وعلى الإنسان أن يسمو به، لا أن يصارعه، وفي الجاهلية كذلك لم تجذبه أغاني الشباب ولا حلقات اللهو، ثم إن عثمان كان يتعفف عن أن يرى عورة.

حب الناس له:

ومن أطرف ما يروي عن حب الناس لعثمان لما تجمع فيه من صفات الخير أن المرأة العربية في عصره كانت تغني لطفلها أغنية تحمل تقدير الناس له وثناءهم عليه، ومن الكلمات المأثورة لهذه الأغاني ما يلي:

أحبك الرحمن.... كحب قريش لعثمان.

الحركات العسكرية في عهد عثمان:

١ــ تتلخص الحركات العسكرية في عهد عثمان في ناحيتين:

القضاء على التمرد والثورات التي قامت في بعض النواحي التي دخلها الإسلام في عهد عمر.

٢– استمرار التوسع الإسلامي في الميادين المختلفة التي انتهى عندها التوسع الإسلامي في عهد عمر.

وسنتكلم فيما يلي كلمة موجزة عن كل من هاتين الناحيتين:

١– القضاء على التمرد والثورات: بعد موت عمر بن الخطاب تمردت بعض الولايات على الحكم الإسلامي وقام بهذا التمرد عناصر توالي عهد ما قبل الفتح، أو قامت بها قوى الاحتلال التي كان لها السلطان قبل الزحف الإسلامي، وبرزت أهم الانتفاضات في خراسان والإسكندرية، وقد قام بثورة خراسان أنصار الحكم السابق، وأما الإسكندرية فقد هاجمها الروم بجيش كثيف يقوده بطل أرمني كبير اسمه مانويل، وقد استطاع عثمان أن يقضي على الثورتين قضاء حاسمًا، إذ أرسل لكل جيشًا كبير العدد والعدة، فأعاد البلاد إلى الطاعة، وقضى على الثائرين أو المهاجمين.

٢– التوسع الإسلامي: شمل التوسع الإسلامي تقريبًا كل الميادين التي كانت الجيوش الإسلامية قد وصلت إليها في عهد عمر، وزاد التوسع من الناحية البحرية، إذ أصبح للمسلمين بحرية في عهد عثمان، وعلى ذلك فقد انضم إلى الدولة الإسلامية برقة وطرابلس غرب مصر[١]، وانضم لها جزء من بلاد النوبة[٢] في الجنوب، وانضمت لها بلاد أرمينية[٣]، وأجزاء من طبرستان وهي المنطقة الجبلية جنوبي قزوين[٤]، وتخطت جيوش المسلمين نهر جيحون ودخلت بلاد ما رواء النهر في الدولة الإسلامية، فاستولى المسلمون على بلخ وهراة وكابول وغزنة من بلاد الأتراك[٥].

وعن طريق البحرية الإسلامية دخلت قبرص إطار الدولة الإسلامية، وقد قام بغزوها معاوية بن أبي سفيان سنة ٢٨هـ[٦]، ومن أهم المواقع البحرية موقعة ذات السواري أو ذات الصواري، وقد حدثت سنة ٣١هـ في البحر الأبيض المتوسط بالقرب من الإسكندرية بين جيش الروم يقوده قسطنطين وبين عبد الله بن أبي سرح والي مصر، وسميت "ذات السواري" نسبة إلى سواري البواخر التي اشتركت فيها، ويقال إنه اشترك فيها ألف سفينة منها مائتان للمسلمين والباقي للروم، وقد كتب المسلون النصر في هذه الموقعة[٧].

نهاية عثمان ودراسة الفتنة التي أدت إلى قتله:

إن دراسة الفتنة التي ادت إلى قتل عثمان عمل واسع، خصه كثير من الباحثين بدراسات مستقلة، وسنحاول هنا إيجاز الموضوع في غير إهمال:

---

[١] البلاذري: فتوح البلدان ص ٣١٥ – ٢٢٨.

[٢] البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٣٨ – ٢٣٩.

[٣] انظر فتوح أرمينية في البلاذري ص ١٩٧ وما بعدها.

[٤] المرجع السابق ص ٢٣٠.

[٥] المرجع السابق ص ٣٩٨.

[٦] المرجع السابق ص ١٥٧ – ١٥٨.

[٧] النووي: تهذيب الأسماء: القسم الأول ج ١، ص ٣٧٠.

من الواضح أن بني أمية كانوا في مطلع الإسلام أعداء هذا الدين، وهم الذين قادوا الجيوش عدة مرات للقضاء عليه، ثم استسلم بنو أمية ودخلوا الإسلام عند فتح مكة، ولما مات الرسول صلى الله عليه وسلم لم يطمع بنو أمية في الخلافة لقرب عهدهم بالإسلام ولموقفهم العدائي منه مدة طويلة، ولكن الأحداث التي مر بها الإسلام خلال خلافة أبي بكر وعمر أتاحت الفرصة لبني أمية ليعرضوا ما فاتهم، فلمعت أسماء قادة مغاوير منهم في حروب الردة والمتنبئين، وفي الحروب ضد الفرس والروم، ومن هؤلاء يزيد بن أبي سفيان ومعاوية، وهند أم معاوية التي كانت تخوض مع الرجال موقعة اليرموك[1] وبهذا استعاد بنو أمية مكانتهم.

وعندما مات عمر كانت هناك أسرتان كبيرتان تطمعان في هذه الخلافة، هما أسرة بني هاشم واسرة بني أمية، وكان بنو هاشم أقدم طمعًا في الخلافة من بني أمية، فقد كانوا يرونها حقا لهم عقب وفاة الرسول، ولكن المسلمين لم يستجيبوا له حينذاك إذ رأت أغلبيتهم أن الخلافة لو أسندت إلى هاشمي لأصبح من المتعذر إخراجها من بني هاشم.

وانتهت المشورة بعد موت عمر كما قدمنا إلى واحد من اثنين: عثمان وعلي، أو بعبارة أخرى إلى بني أمية أو بني هاشم، وهنا أوشحت أن ترجح كفة بني هاشم لكن عاملين كبيرين ظهرا فرجحا كفة بني أمية، وهذان العاملان هما:

أولاً: أن الأمل في إمكان إخراج الخلافة من بني أمية كان أقوى من الأمل في إخراجها من بني هاشم.

ثانيًا: شدة عمر وصرامته جعلت الناس يرغبون عن علي حتى لا تمتد الشدة والصرامة، ومالوا إلى عثمان حيث الدعة واليسر والتسامح.

وأسند الأمر إلى عثمان، وإذا سرنا مع عثمان في خلافته فإننا نقرر أن عثمان تولي في ظروف يمكن تلخيصها في أن الناس كانوا فريقين، أحدهما: لا يرضى عن عثمان ولا يزكيه، والفريق الثاني: يؤيده لا تقديرًا له بل طمعًا فيه، ومن هنا يبدو الوضع الحرج الذي وضع فيه عثمان من أول الأمر.

ثم إن عثمان كان قد أتم السبعين من عمره عندما تولى الخلافة، وتلك سن تؤذن بالزوال.

وجاء عثمان بعد عمر أو قل جاء اليسر بعد الصرامة، والتردد بعد العزيمة القوية، فانفلت المكبوت، وانطلق السجين، وأقدم الخائف.

وكان من اجتهاد عمر أنه منع كبار الصحابة من مغادرة المدينة إلا بإذن ولأجل محدود، فلما تولى عثمان لم ير ما رآه عمر أو ضعف عن أن ينفذه، فخرجوا وكان خروجهم مطلع تشتت أدركه عمر ببصيرته النافذة، فإن كل واحد من كبار الصحابة سافر إلى جهة واتخذ له مستقرًّا فيها، وراح يتحدث عن مواقفه مع الرسول، وكفاحه من أجل الإسلام، والتف حوله معجبون كثيرون، كما التف حوله أيضًا الطامعون، وتفرقت الأمة، وأصبح كل واحد من هؤلاء يمثل ملكًا له مظاهر العظمة وكثير من الأتباع.

وبدأ الغنى يظهر في العالم الإسلامي في أخريات عهد عمر، والغنى وسيلة للبذخ والشيطان، إن لم تكن هناك رقابة شديدة وتوجيه رشيد، وبموت عمر ضعفت الرقابة وقل التوجيه، فظهرت الآثام وانتشرت الشرور بين بعض الناس.

---

[1] البلاذري: فتوح البلدان ص ٩٤١.

وبدأ الخليفة نفسه يعمل اشياء لم يعملها سابقوه، أشياء رآها بعض المسلمين أخطاء ورآها عثمان صوابًا أو ضرورة، وكانت هذه الأعمال هي الشرارة التي انطلقت منها الفتنة العارمة، وأحب قبل أن أذكر هذه الأعمال أن أعيد أن عثمان لم يقم بها ارتجالاً أو استهانة، وإنما قام بها عن فلسفة وفكر واجتهاد هداه إلى أن من حقه أن يقوم بما قام به، وهذا -فيما نرى- لا يلحق به ذنبًا إن رأى بعض الناس ان طبيعة ما قام به عثمان مما يستدعي الذنوب.

وفلسفة عثمان هذه يمكن أن نجعلها ذات شقين، فشق منها يتصل بسياسته في ناحية الحكم، وشق يتصل بسياسته في الناحية الاقتصادية.

أما فلسفة عثمان فيما يتعلق بالحكم فيمكن تلخيصها في أن عثمان كانت سنه متقدمة عندما تولى الخلافة كما سبق القول، وهو لذلك كان أكثر من أبي بكر وعمر حاجة لمن يساعده في حمل أعباء الحكم، ثم إن عثمان من أسرة كبيرة كما قلنا آنفًا، ولكثيري من أفراد أسرته مكانة مرموقة في الحياة العربية والإسلامية، وكان منهم قادة وأمراء من قبل عهد عثمان.

ومرور الزمن وظهور الشيخوخة في عثمان زادت حاجته إلى من يركن إليه، ورأى عثمان أن يعتمد في العاصمة وخارجها على أقاربه، فهم موضع ثقته، وهم أحرص على إعانته والإخلاص له، ثم إن كفاءتهم لا ينكرها أحد، ومكانة بني أمية بين العرب ليست موضع شك، ولذلك ولاهم عثمان واستكثر منهم، فالكوفة كانت للمغيرة بن شعبة فنقل ولايتها إلى سعيد بن العاص، وكانت حمص إلى عمير بن سعد فضمها إلى معاوية والي دمشق، ومصر كانت لعمرو بن العاص فنقلت إلى عبد الله بن أبي سرح أخي عثمان من الرضاعة، وهكذا.

على أن هؤلاء الولاة الجدد في الحقيقة غير مطعون في كفاءتهم كما دافع بذلك عثمان عن نفسه، ولكني أحس على كل حال أن هؤلاء الولاة لم يعودوا يخافون الخليفة كما كان ولاة عمر يخافونه، وبخاصة إذا كان الوالي من بني أمية وفي دار الخلافة مروان بن الحكم وهو من بني أمية أيضًا! وكان عثمان قد اتخذه مشيره ومدبره وأعطاه خاتمه.

تلك هي فلسفة عثمان في ناحية الحكم، ميل لتولية أقاربه لثقته فيهم، ولأمنه جانبهم، واطمئنانه إلى مساعدتهم.

أما فلسفة عثمان فيما يتعلق بالاقتصاد فيمكن تلخيصها في أن عثمان كان من قبل غنيًا جدًّا وسمحًا جدًّا، كان يعيش في رخاء، وكان مبسوط اليد، لا يعرف البخل طريقه إليه، وكان يملك ما يوسع به على نفسه وما يعطيه للآخرين، ثم أفنى ماله كله في الإنفاق والعطاء وفي سبيل الله، ولكنه وجد أمامه بيت المال فأعطى منه أقاربه وسائليه، وأسرف أحيانًا – كما تروي بعض الروايات – في الإنفاق وفي العطاء، ونسي أنه في هذه المرة ينفق ويعطي مما لا يملك، وعطائه لذويه أكثر مما تعوده المسلمون.

على أن عثمان عندما أعطى المسلمين في غزوة تبوك أو في غيرهما كان مانحًا ولم يكن مقرضًا فهل له الحق أن يسترد من بيت المال بدل ما منحه لإعلاء كلمة الله؟ ويجيب عثمان بأنه لا يأخذ بدلاً وإنما يأخذ حاجته نظير تفرغه لخلافة المسلمين.

وبدأت الثورات همسًا، ثم ارتفع الهمس، وأحس الخليفة أن الفتنة بدأت تظهر، ولكن الخليفة أصر على ألا يقسو على الثائرين واتسع لهم حلمه وحياؤه، وفي ظل هذين الخلقين نمت الفتنة غير خائفة من بطش الخليفة أو من انتقامه، وكان عثمان يثور أحيانًا ولكنها ثورة الشفوق لا تلبث أن تموت، وهي تضر في فورتها وتضر في هدوئها.

وكان علي كلما اشتكى الناس إليه أمر عثمان، أرسل ابنه الحسن إليه، فلما أكثر عليّ عليه قال له عثمان: إن أباك يرى أن أحدًا لا يعلم ما يعلم، ونحن أعلم بما نفعل فكف عنا، فلم يبعث على ابنه في شيء بعد ذلك[1].

وسارت الأمور في السنوات الست الأولى من خلافة عثمان مدفوعة بالقوة التي بذلها ابن الخطاب، وظل الضوء الذي أشعله عمر ينير للناس، ولكن الخليفة الجديدة لم يمد المصباح بالزيت، فلما أوشك الزيت أن يجف بدأ الظلام يدخل، وبدأت الدولة تهتز، وليس معنى هذا أن أعمال عثمان التي سببت حنق الناس وغضبهم لم تظهر إلا بعد ست سنوات من حكمه، لا، فقد ظهرت منذ اللحظات الأولى، ولكنها كانت أشبه بالمرض يدب في الجسم السليم فيقاومه الجسم، ولا يبدو عليه الضر ويظل المرض يشتد ما دام المريض لا يجد علاجًا حتى تضعف الصحة وينهار المريض، وهكذا جاءت السنوات الست الثانية، وقد بدأت الدولة تهتز وأخذت المشكلة تستعصي، وتقدم الناصحون للخليفة الشيخ يطلبون منه الاعتزال والراحة ولكن الخليفة صاح بهم قائلاً: كيف أخلع لباسًا ألبسنيه الله تعالى؟ وهي كلمة حمالة أوجه، أضرت بالفقه السياسي الإسلامي كثيرا، لأن الأخذ بها على ظاهرها يجعلها نصا لا يسوغ خلع الخليفة، والفهم لها - وهو ما نميل إليه- أن اختيار الأمة له هو من باب أن أمة محمد لا تجتمع على ضلالة، ومن ثم فتوليته للخلافة جاء من باب أن اجماع الأمة هو من قدر الله، فإذا أجمعت الأمة على خلعه، صار خلعه أيضا من قدر الله.

واشتعلت الثورة ضد عثمان، وبدأ منظموها في الكوفة والبصرة ومصر يعلنون ما كانوا من قبل يضمرون، وظهر مع الثائرين أعلام من الصحابة أنكروا بعض تصرفات عثمان، فأسرع ابن سبأ[2] وهو الزعيم الحقيقي للثورة فاجتذبهم أو اجتذب آراءهم إليه، لتقوى بهم حجته، وترجح كفته، ومن هؤلاء الصحابة أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر وعبدالله بن مسعود.

---

[1] ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٢٠٨.

[2] اتبعنا المراجع الشهيرة في حديثنا عن عبد الله بن سبأ وعن تصوير الدور الذي قام به لتجميع الشيعة في جماعة، بعد أن كانوا أفرادًا، وفي إدخال كثير من الانحرافات والضلالات على مذهبهم متحينًا الفرص المختلفة لذلك،

ولقد اطلعت حديثًا على كتاب "عبد الله بن سبأ" للأستاذ مرتضى العسكري عميد كلية أصول الدين بالعراق، وفيه يذكر المؤلف أن عبد الله بن سبأ أسطورة خلقها وضاع اسمه سيف بن عمر (توفي بعد السبعين والمائة للهجرة) وذكر المؤلف مواقف متعددة كانت الرواية فيها عن سيف مختلفة عن الرواية عن سواه.

بقي أن نورد سؤالاً مهمًا هو، من الذي أدخل الانحرافات إلى المذهب الشيعي الذي تعرف في أصوله السليمة بعدًا عما نراه فيه من انحرافات وترهات.

في اعتقادي أن قوى كثيرة دفعت نفسها إلى صفوف آل البيت وشيعتهم ووضعوا فيهم سمومهم، وطالما كشف أهل البيت نواياهم فصدوهم، ولكن طالما استطاع هؤلاء بطريق أو بآخر أن يلقوا شحنة السم التي اتوا يحملونها.

ولهذا فأنا أقر هنا الضلالة التي بدأت هذا الشوط كانت على يد عبد الله بن سبأ أو شخص ما أطلق عليه هذا الاسم، وأن مريدين كثيرين أخذوا عنه هذا الضلال، وساووا فيه أزمنة طويلة وأشواطًا واسعة، فالاسم لا يهمنا ولكن يهمنا أن شخصًا قام بالدور الذي نسب إلى عبد الله بن سبأ وأن أشخاصًا قاموا بالأدوار التي تنسب للسبئية ولأعداء الشيعة، وأعداء الإسلام الذين أسميناهم (مدعي التشيع).

وعبد الله بن سبأ هو الشخص الذي نقل الثورة من الكلام إلى العمل ولم يكن ابن سبأ مخلصًا في حركته، فقد كان يهوديًا ادعى أنه دخل الإسلام ولم يكن يضمر للإسلام ولا للمسلمين خيرًا، فانتهز هذه الفرصة ليشعل الفتنة وينزل بالعالم الإسلامي نارًا ظلت متأججة عشرات السنين.

من الممكن أن يخطئ شخص أو يزل، ولكن لإصلاح الخطأ طرقًا كثيرة عندما تحسن النية، وابن سبأ كان أبعد ما كون عن حسن النية، فقد طاب له أن يجد ما عده هو وأصحاب أخطاء لعثمان ليجعلها سببًا لهوة ينزلق فيها المسلمون.

ونجح ابن سبأ في الخطة التي وضعها: ونجده -ليضمن النجاح- يقوم بالدعوة لعلي، فينشر مذهب الوصاية، أي أن عليًا وصى محمد كما أن لكل نبي وصيًا، وأن عليًا خاتم الأوصياء كما كان محمد خاتم الأنبياء، وأيد رأيه بأحاديث وضعها، كما أشاع نظرية الحق الإلهي، وهي نظرية فارسية عبرت مع الفرس إلى اليمن مواطن ابن سبأ، إذ كان الفرس يحتلون اليمن قبل أن يدخلها الإسلام، ومغزي هذه النظرية أن عليًا هو صاحب الحق الأول في الخلافة.

وأثار ابن سبأ الشبهات، وجمع حوله أنصاره، كما جمع الساخطين على عثمان، وزحف الثائرون إلى المدينة من الكوفة والبصرة حيث كانت مبادئ ابن سبأ قد وجدت مرعى خصبًا بين البسطاء من أتباع علي، وزحف ثائرو مصر كذلك حيث كان ابن سبأ يعيش في ذلك الوقت، وحيث وجد الوسيلة لإثارة المصريين ضد عبد الله بن أبي سرح والي عثمان وأخيه من الرضاعة، ويبدو أن تخطيطًا دقيقًا دفع هؤلاء، وأولئك ليسيروا في نفس الوقت ثائرين من بلدان مختلفة إلى المدينة.

وفي المدينة التقت هذه الجموع الساخطة، ولكن عليًا تصدى لهم، وشرح لهمأن أي اعتداء على الخليفة هو إضعاف للإسلام وتفرقه للمسلمين كما أن عثمان دافع عن نفسه دفاعًا مقبولاً، وظهرت الآمال بأن الأحوال ستصلح، فقفل الثائرون راجعين.

وأدرك ابن سبأ أنه هزم، وأن الفرصة التي عمل لها عدة سنوات أوشكت أن تضيع، ولذلك أعمل الحيلة ودبر أمره، فيروى أن الثائرين حال عودتهم رأوا رجلاً أسود يمشي على بعد منهم وأنه يحاول أن يختفي عنهم، فشكوا في أمره، فلحقوا به وقبضوا عليه وفتشوه فوجدوا معه خطابًا عليه خاتم عثمان، وفي الخطاب أمر لوالي مصر أن يقتل هؤلاء الثائرين ويقتل معهم محمد بن أبي بكر[1] الذي كان من زعمائهم ويمثل بجثث الجميع، وهكذا أصبحت المسألة ونظر الثائرين دفاعًا عن النفس لأنهم أدركوا أن دماءهم مباحة، فعادوا أدراجهم إلى المدينة، وواجهوا عثمان بالأمر، فأقسم عثمان إنه لم يكتب الكتاب، ولا أمر به، وليس له به علم، فطلبوا منه أن يسلمهم حامل خاتمهم أو يقتص منه، فأبى، وقال إن حامل الخاتم لا يعمل هذا أبدًا، وأن أبناء السوء قلدوا خاتمه وزوروا عليه هذا الخطاب.

ويبدو أنه من المحقق أن هذا الخطاب حيلة دبرها ابن سبأ ليعيد إلى ثورته الحياة بعد أن أوشكت أن تموت.

وقد وضح لنا ابن عبد ربه مسألة الاختلاق ووضع الكتب والرسائل بأسماء الآخرين، ويكف لعب ذلك دورًا هامًا في إشعال هذه الثورة، ونحن ننقل عبارة ابن عبد ربه بنصها، فهي تلقى

---

[1] يقول بروكلمان أن محمدًا هذا هو ابن أبي حذيفة وينسب إلى أبي بكر بالتبني (تاريخ الشعوب الإسلامية ١، ١٧٥) وقد كان محمد هذا من أشياع علي لأنه تربى في بيته إذ تزوج علي بأمه بعد موت أبي بكر.

ضوءًا ساطعًا على موضوع كثر فيه التخبط وتعددت الآراء قال: لما قدموا القواد قالوا لعلي: قم معنا إلى هذا الرجل، قال: لا والله لا أقوم معكم، قالوا: فلم كتبت إلينا؟ قال: والله ما كتبت إليكم كتابًا قط، فنظر القوم بعضهم إلى بعض، وخرج علي من المدينة.

واستنكرت عائشة قتل عثمان فقال لها مروان: هذا عملك، كتبت للناس تأمرينهم بالخروج عليه، فقالت: والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسواد في بياض حتى جلست في مجلسي هذا فكانوا يرون أنه كتب على لسان علي وعلى لسانها: كما كتب أيضًا على لسان عثمان مع الأسود إلى عامر مصر، فكان اختلاق هذه الكتب كلها سببًا في الفتنة[١].

وعلى كل حال فإن اختلاق هذا الخطاب لم يكتشف في ذلك الحين، وظن القوم أنه من عمل عثمان أو من عمل مروان، وأن حياتهم أصبحت مهددة: فلم يعد هناك مجال للنقاش، ولم يعد في طاقة علي بن أبي طالب وأمثاله أن يقوموا بأي دور للوساطة، ولم يعد الثائرون مستعدين لأية تسوية لا يكون فيها دم الخليفة أو اعتزاله، وأحاط الثائرون ببيت عثمان وحاصروا الخليفة ونتوقف الآن عن السير مع هذا الأحداث لنسأل:

ما موقف كبار المسلمين من الدفاع عن عثمان؟ وما موقف بني أمية من ذلك؟

يروي لنا التاريخ أن بعض كبار المسلمين هجروا المدينة في الفتنة، وأن بعضهم اعتزل الفتنة خوفًا منها ولزم داره، ولكن كثيرين من شباب المسلمين وقفوا بباب عثمان يحرسونه ويذودون عنه، وكان في مقدمة هؤلاء الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير.

أما بنو أمية فإن موقفهم يحيط به بعض الغموض، لقد كان معاوية يدرك ما سوف ينزل بابن عمه الخليفة، فعرض معاوية على عثمان أن يذهب معه للشام فامتنع وأثر أن يبقى حيث عاش ومات الرسول وصاحباه، فعرض عليه أن يرسل له حرسًا فأبى، وقال: لا أريد أن يشاركوا أهل المدينة زادهم وطعامهم، ثم تأزمت الأمور بعد ذلك ولكن معاوية لم يسرع لنجدة الخليفة، وقُتل عثمان قبل أن تصل المدينة القوة الصغيرة التي أرسلها معاوية فعادت أدراجها من منتصف الطريق[٢]: ويروى أن عامر بن وائلة الصحابي دخل على معاوية إبان خلافته فقال له معايوة، ألست من قتلة عثمان: فقال عامر: لا ولكني ممن حضره فلم ينصره، ثم سأل عامر معاوية، وما منعك أنت من نصره ومعك أهل الشام؟ فأجاب معاوية: أليس طلبي بدمه نصرة له؟ فضحك عامر وقال: أنت وعثمان كما قال الشاعر:

لا أليفنك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادا[٣]

على أن عثمان استطاع أن يرسل إلى الحجاج في موسم الحج الذي عقد وهو محاصر يطلب عونهم، فتحركات شهامة الكثيرين للدفاع عن الخليفة، واتجهوا إلى المدينة، وفي نفس الوقت كان جند الشام قد بدءوا الزحف للمدينة لإرغام المحاصرين على فك الحصار، فأدرك الثائرون أن الفرصة أوشكت أن تفلت من أيديهم، فتسور بضعة منهم للدار بعد أن استمر حصارها اثنين وعشرين يومًا، وهجم الذين تسوروا الدار على الخليفة وهو يقرأ القرآن، وضربه الغافقي بحديدة

---

[١] العقد الفريد ج ٤ ص ٣٩٢ – ٣٩٣.

[٢] المرجع السابق، ص ٢٩٨ وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ج ٤ حـ ١٣٢.

[٣] السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٠٠.

كانت في يده، وضربه آخر بالسيف، ولما حاولت زوجته أن تدافع عنه قطعت أصابعها وهي تتلقى عنه الضربات.

وخر الشيخ فكان مصرعه بابًا لفتنة شعواء دفع المسلمون عنها آلافًا من أرواح الشباب الذين لا ذنب لهم ولا جريرة.

ولعل من المناسب أن نذكر أن القتلة الحقيقيين كانوا قلائل عرف منهم الغافقي ولم يعرف الآخرون، وقد فر الغافقي بعد ذلك ولم يعثر له على أثر، وأما الآخرون فلم تعرف شخصياتهم، ولهذا أسند قتل عثمان إلى الثائرين والمحاصرين مما وسع الهوة وسبب ألوانًا من النكبات[1].

علي بن أبي طالب

٣٥ – ٤٠هـ (٦٥٦ – ٦٦١م)

تعريف به:

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة، وهي البنت الوحيدة من نسل الرسول التي أعقبت وعن طريقها وجدت ذرية سيدنا رسول الله حتى العهد الحاضر.

وقد سبق لنا أن قلنا إن أبا طالب كفل محمدًا بعد موت جده عبد المطلب، فلما كبر محمد أراد أن يسدد هذا الدين لعمه، فأخذ عليًا ورباه في بيته، وبخاصة أن أبا طالب كان كثير الأولاد، وأن مكة أصابها جدب، فمست الضائقة حياة أبي طالب.

ولما بعث محمد كان عليّ صبيًّا فآمن به، ولذلك يقال إن عليًا أول من آمن من الصبيان، وبات علي في فراش الرسول ليلة الهجرة مع علمه بأن الموت يطوف حول هذا الفراش، ويوشك أن ينزل بمن ينام فيه.

وقد رضع علي آداب الإسلام منذ الصبا، وكان في الفصاحة بالغًا الغاية، ولعله كان الراوية الأول لأحاديث الرسول: وكان في العلم سباقًا لا يشق له غبار، أما شجاعته فكانت مضرب الأمثال، وقد رأيناه في الطليعة دائمًا في جمع غزوات الرسول، ولا تكاد تخلو غزوة من علي مصارعًا ومبارزًا غير هياب للموت، ولا مقيمًا للخوف وزنًا، وطالما كسب بسيفه النصر للمسلمين، ومن الواضح أن بطولة علي والدماء التي سفكها مدافعًا عن الإسلام ورادًّا عنه مهاجميه، أورثته كثيرًا من الأعداء، فقد كان هناك جراح في قلوب الكثيرين من الطعنات القاتلة التي وجهها علي إلى أبطال منهم أو إلى ذويهم تقدموا مزهوين ببطولتهم، معارضين للإسلام، فلاقوا مصرعهم على يد علي كرم الله وجهه.

وفي ذلك المعنى يقول زيد بن علي زين العابدين إمام الشيعة الزيدية ما يلي:

كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه أفضل الصحابة؛ إلا أن الخلافة فوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها، وقاعدة دينية راعوها، من تسكين ثائرة الفتنة، وتطييب قلوب العامة، فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريبًا، وسيف أمير المؤمنين علي من دماء المشركين من

---

[1] دوايت دونالدش: عقيدة الشيعة ص ٤١.

قريش وغيرهم لم يجف بعد، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي، فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد، فكانت المصلحة أن يكون القائم بهذا الشأن في ذلك الوقت غيره[1].

هذا مذهب الفرقة الزيدية من الشيعة، أما أهل السنة والجماعة -مذهبنا- فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجح إيمان أبي بكر على إيمان أمة محمد بأسرها، واختاره لصحبته في هجرته، وكان أبو بكر يحمل الدعوة ويتحمل الأذى مع رسول الله ويعتق رقاب المؤمنين وعلي بن أبي طالب صبيٌّ في أمان ببيت رسول الله، واختاره رسول الله عليه الصلاة والسلام ليخلفه في الصلاة في مرض وفاته، وصدق عمر بن الخطاب عندما أرد البعض أن يقدمه للخلافة فقال ما كنت لأتقدم على قوم فيهم أبو بكر، وقد أثبتت الأحداث في خلافته أنه كان أقوى صحابة رسول الله (بما فيهم علي بن أبي طالب نفسه) في مواجهة اصطراب القلوب والعقول أمام الشدائد التي واجهتهم، بدءا من خبر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مواجهة مانعي الزكاة، والحفاظ على هيبة الدين و الدولة.

كما أن علي بن أبي طالب كان ممن استشارهم الصديق في مرض وفاته في استخلاف عمر، فوافق دون تحفظ، فكيف يأتي من يقول أنه كان يرى في نفسه أنه احق بها منه، وهو نفسه لم يرَ ذلك في هذا الموقف.

أخلاق علي: زهده، ووفاؤه، وعدله، وسماحته، وصفاء نفسه، تجعله ثالث ثلاثة أخذوا عن الرسول العلم والخلق والروح، فكان أبو بكر وعمر وعليّ مشاعل ينبعث ضوؤها في كل اتجاه.

البيعة لعلي:

يمكننا من الدراسة السابقة أن نستنبط أن عليًّا لم يكن مرغوبًا فيه، فقد كان علي غرة بني هاشم، وكان يطالب بالخلافة باسم القرابة من الرسول، ومعنى هذا أن إسناد الخلافة إليه يعني أن تظل الخلافة في بنيه، وهذا مبدأ لا يقره الإسلام، ولا تقبل العرب، ولا يرتضيه الطامعون، وكان لعلي -كما قلنا آنفًا- أعداء كثيرون يكتمون العداوة أو يظهرونها، لأنه الذي قتل بسيفه زهرات الشباب في الغزوات المتعددة، ثم كان حكم علي معناه العودة إلى حكم عمر في صلابته وحزمه، وقد وجد كثير من الناس الراحة في سهولة عثمان فكيف لهم بالعودة إلى الدقة والصرامة والحساب؟ وكان هناك كثيرون أثروا بالباطل، وحصلوا ظلمًا على نفوذ كبير، ومعنى حكم عليّ ضياع ثروتهم وفقدان سلطانهم لهذه الاعتبارات وغيرها لم يكن علي مرغوبًا فيه.

ولكن هل كان هناك حينذاك غير عليّ مستحق للخلافة مع وجود أبي الحسن؟

لقد كان علي على وشك أن ينالها بعد عمر فكيف يمكن أن يحرمها بعد عثمان؟ وإذا كان السن قد لعبت دورها في تأخير تولية علي، فقد أصبح الآن في العقد السادس بل قد تخطى نصفه فلم يعد هناك طعن في مسألة السن.

ومن هنا كانت بيعة علي بيعة قامت بها الجماهير، فهؤلاء الذين فتكوا بعثمان ومعهم من انضم إليهم هرعوا إلى علي يبايعونه، وقد أدرك علي أن سيل الناس إليه سيل شعبي، فصاح فيهم: إن هذا الأمر ليس لكم، إنه لأهل بدر، أين طلحة والزبير وسعد، ولم يكن أحد من هؤلاء الخاصة

---

[1] الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ١٢٨.

يستطيع أن يواجه العاصفة فيمتنع عن بيعه على ذلك الوقت، فبايع هؤلاء راضين أو كارهين[١] وتبعهم كثير من المهاجرين والأنصار وتلاهم عامة الناس، ولم تكن البيعة إجماعيه بطبيعة الحال وكان بنو أمية قادة الممتنعين.

سياسة علي:

سياسة الإنسان جزء منه ومرآة لأخلاقه، وعلي مجبول على الصراحة، لا يعرف في الحق لومة لائم، فكانت سياسته صدى لهذه الأخلاق، فقد قادر علي عقب بيعته فأصدر أمرين في منتهى الصرامة، وهذان الأمران هما:

١– عزل ولاة عثمان، وقد أرسل علي ولاة بدلهم، ولكن أكثر ولاته عادوا إليه ولم يستطيعوا أن يدخلوا الولايات التي حددها لهم[٢].

٢– استرداد القطائع التي أقطعها عثمان لأقاربه من بيت المال مما يرى عليّ مجافاته للحق، وكذلك استرداد الهبات الكبيرة التي منحها عثمان كذلك من بيت المال.

ولم يسمع علي لنصح أتباعه وأقاربه الذين أشاروا عليه أن يؤجل هذا التصرف ريثما تستقر له الأمور [٣]، إذ توقعوا أن تصرفه هذا سينتج تمرد بني أمية، ويجعل معاوية يهب في وجهه يناضله ويحاربه.

ويوشك المؤرخون والمستشرقون أن يجمعوا على لوم علي على هذا العمل، وهم جميعًا تقريبًا يصرحون أن التوفيق أخطأ عليًّا فيه، وأن ذلك لم يكن من الحكمة، والذي أعتقده أن ذلك الحكم على عليّ مبالغ فيه، وأنه من الأقوال التي تشاع فيأخذها الناس دون دراسة وبغير تمحيص، وللتدليل على ذلك نسأل الأسئلة التالية:

١– هل كان من الممكن أن يحتج عليّ على الولاة الظالمين وأن يطلب من عثمان عزلهم، حتى إذا تولى هو الخلافة تركهم؟

٢– وهل كان من الممكن أن يثور على القطائع التي أعطيت بغير حق واضح لأقارب الخليفة حتى إذا تولى هو الخلافة أقرها؟

٣– وهل كان التمرد الذي عاناه على ناشئًا عن عزل الولاة واسترداد القطائع؟ وإذا كان كذلك فلما ثار عليه طلحة والزبير واشتركا في حرب الجمل؟

٤– وهل يتخيل المؤرخون أن معاوية كان سيبايع عليًّا ويسير في ركابه لو لم يعزل؟

٥– وأخيرًا هل يمكن أن نطلب من عليّ أن يكون شخصًا آخر غير عليّ، إن مطالبة عليّ بترك والي يعتقد أنه ظالم، أو الإغضاء عن مال يرى أنه أخذ من بيت مال المسلمين بدون حق هو بمثابة أن نطلب من الأسد أن يصبح هرًا وهيهات أن يكون ذلك.

لعل من الأفضل للمؤرخين أن يقولوا إن ذلك الوقت لم يكن الوقت الملائم لعلي ليصبح خليفة، وكان من الخير للمسلمين أن يتولى الخلافة في ذلك الوقت شخص آخر غير علي[١]، شخص

---

[١] انظر الطبري ج ٣ ص ٤٥٦ وما بعدها.

[٢] تاريخ الطبري ٢: ٤٦٢ – ٤٦٣.

[٣] تاريخ الطبري ٣ : ٤٥٩ وما بعدها.

يستطيع أن يدور وأن يداهن، شخص لم يشترك في الأحداث السابقة أو اشترك فيها بنصيب ضئيل، ولكن يجب ألا ننسى أن أية محاولة لتولية شخص غير عليّ حينذاك كان لا بد من فشلها، فتولية علي كانت قد أصبحت أمرًا طبيعيًا كما سبق القول.

والخلاصة أن تولية علي كانت طبيعية، وأن سلوكه كان طبيعيًّا، وأن التمرد الذي واجهه كان طبيعيًا وكان نتيجة لسير الأحداث، وكان صراعًا على السلطة، وإن اتخذ من أسبابه قتل عثمان، أو المطالبة بثأره، أو عزل الولاة، أو استرداد ما سلب من بيت المال ويقول محمد بن سيرين: ما علمت أن عليًا اتهم في دم عثمان حتى بويع، فلما بويع اتهمه الناس[٢].

وقد تمخض هذا التمرد الذي عاناه علي عن موقعتين حربيتين كبيرتين هما موقعة الجمل وموقعة صفين، وسنتكلم عن كل منهما فيما يلي:

موقعة الجمل:

أخذت هذه الموقعة اسمها من الجمل الذي كانت تركبه عائشة رضي الله عنها زوجة الرسول وبنت أبي بكر الصديق، وخروج عائشة إلى المعركة لتحارب عليًّا كان حدثًا غير عادي، ومن ثم ارتبطت هذه الموقعة بعائشة وبجملها، وإن كان دور عائشة في الحقيقة ضئيلاً جدًّا في هذه المعركة.

وتحليل موقف عائشة يحتاج إلى شيء من الفراغ لن نضن به، فقد كانت هناك عوامل تحث عائشة على عدم الاشتراك في هذه المعمعة، وهناك عوامل أخرى كانت تدفع عائشة إلى الاشتراك فيها، وقبل أن نتكلم عن هذه العوامل وتلك نذكر أن عائشة -كأغلب المسلمين- كانت ثائرة على عثمان، وكانت هي وطلحة من أشد الناس انتقادًا له، ولما حوصر عثمان تركت عائشة المدينة وذهبت إلى مكة، فلما قتل عثمان خرجت من مكة تقصد المدينة، فلما عرفت أن البيعة تمت لعلي غضبت[٣] وقالت: والله لا يكون هذا الأمر أبدًا، قتل عثمان مظلومًا، والله لأطالبن بدمه، وعادت إلى مكة وقدم عليها بمكة طلحة والزبير، وقد استأذنا عليها بحجة أنهما يريدان العمرة[٤] كما قدم يعلي بن أمية عامل عثمان على اليمن ومعه ما كان في بيت مال اليمن من الأموال، وقدم كذلك عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير، والتف حول عائشة بطبيعة الحال بنو أمية الذين كانوا بالحجاز وحثت عائشة الجميع على المطالبة بدم عثمان، وخرجت ومعها أتباعها تريد البصرة لتستعين بسكانها فيما أقدمت عليه[٥].

هل كان حزن عائشة على عثمان هو الذي دفعها إلى ذلك العمل؟ الحقيقة لا، فقد كانت هناك دوافع أبعد غورا، نذكر أهمها فيما يلي:

١ــ كانت هناك وحشة بين علي وعائشة عبرت عنها عائشة بقولها:

---

[١] تاريخ الطبري ٣: ٤٥٩ .

[٢] ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٣٠٥.

[٣] ابن طباطبا: الفخري ٦٠.

[٤] الطبري ٣: ٤٦٥ وقد أذن لهما علي مع أنه لم يكن يخفى عليه عرضهما، وقد روى أن قال لهما؛ والله ما العمرة تريدان.

[٥] المرجع السابق ص ٤٦٩ – ٤٧٠.

"إنه والله ما كان بيني وبين علي إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها" [١]، ولعل بعضها يرجع إلى موقف علي من عائشة في حادث الإفك[٢].

٢– وردت روايات تقول إن علي لم يرض خلافة أبي بكر وامتنع عن مبايعته زمنًا، فلماذا تسرع عائشة لمبايعة علي أو لماذا تتركه يهنأ بهذه الخلافة من أول يوم؟

٣– العامل الأكبر والمهم هو عبد الله بن الزبير؛ فهو ابن أختها أسماء، وإذ لم يكن لعائشة أولاد فقد أخذته من أختها وربته في بيتها وصار كأنه ابن لها حتى كانت تسمى أم عبد الله، وكان عبد الله طموحًا يطمع في الخلافة، ويؤيد ذلك ما روي أن عليًا ذكر الزبير بقول الرسول صلى الله عليه وسلم له: ستقاتل عليًا وأنت له ظالم، فتذكر الزبير ذلك وعزم على أن يدع الحرب، وأعلن عزمه، فجاءه ابنه عبد الله وحمسه بقوله: لعلك خشيت رايات ابن أبي طالب وعلمت أنها تحملها فتية أمجاد وأن تحتها الموت الأحمر، فجبنت [٣].

هذه هي العوامل التي دفعت عائشة لتشترك في قيادة الثائرين علي عليّ أما العوامل التي كانت تعقوها عن الخروج فهي:

١– شهدت عائشة بكاء الآلاف يوم خرجت منم مكة لهذه الرحلة المشؤومة، حتى سمي ذلك اليوم يوم النحيب، ولكن ذلك لم يمنعها من الخروج.

٢– تلقت عائشة خطابًا طويلاً من أم سلمة تعظها وتذكرها أن خروجها للحرب هتك للحجاب الذي ضربه عليها الرسول[٤].

٣– أهم من هذا كله الآية الكريمة (وقرن في بيوتكن) [٥]، التي لم يغب عن عائشة مغزاها.

ولكن دفع عبد الله بن الزبير كان أقوى من كل شيء، ووصلت عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة، وانضم إليها خلق كثير، كان فيهم مروان بن الحكم وبعض بني أمية، وأيدها بعض أهل

---

[١] المرجع السابق ص ٥٤٧.

[٢] حديث الإفك حديث معروف تعمدت عدم ذكره في هذا الكتاب تأدبًا بأدب القرآن الكريم الذي حدثنا على عدم الخوض فيه، قال تعالى: (ولولا إذا سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا) [النور: ١٦ي ورأيي أن رمي عائشة بالزنا كبيرة بشعة، وليس في تاريخ العرب ما يجعلهم هكذا يستسهلون رمي الحرائر بالعهر، وإنما المسألة كانت من الأشواك التي توضع حول الرسول والتي قصد بها عرقلة الدعوة، وقد لعب المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبي دورًا كبيرًا في ترويج هذه الفرية، كما ذكرنا من قبل عند الكلام عن "الرسول والمنافقون" ولكن آيات القرآن الكريم نزلت فقضت على ألسنة السوء قال تعالى: (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولىكبره منهم له عذاب عظيم) [اقرأ سورة النور الآية ١١ وما بعدها) ولم يشترك علي قط في اتهام عائشة ولكنه لم يدافع عنها مما أغضب عائشة عليه (البخاري وزاد المعاد ٢؛ ١١٣ – ١١٥ وابن هشام ٢: ٢٢٠ – ٢٢٢)

[٣] تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥١٥، ٥١٩.

[٤] انظر كتاب أم سلمة لعائشة ورد عائشة عليها في العقد الفريد ج ٤ ص ٣١٦ – ٣١٧ والإمامة والسياسة ج ١ ص ٥٥.

[٥] سورة الأحزاب الآية ٣٣.

البصرة وعارضها آخرون، ووقعت مناوشات بين الطرفين قتل فيها بضع مئات وبخاصة من معارضي عائشة[١]، ثم قدم علي بجيشه الكبير، وفيه كثيرون من السبئين ومن الذين اشتركوا في الثورة على عثمان، وحاول علي أن يثني عائشة وأصحابها عن قصدهم، ويذكر الذين بايعوه منهم ببيعتهم، وأوشكت هذه السفارات أن تنجح وأن يكفى الله المؤمنين شر القتال[٢]، ولكن السبئين الذي اشعلوا الثورةعلى عثمان وحرضوا على قتله أدركوا أن الصلح بين الطائفتين سيكون على حساب رقابهم، فعقدوا العزم على بدء الحرب، مدركين أن الحرب وحدها هي التي يمكن أن تحميهم من المقصلة، وهكذا بدئوا المعركة في غفلة من علي وأجابهم أتباع عائشة، والتحم الفريقان[٣].

أنه يؤخذ على عليّ أن سلطانه على جيشه لم يكن تامًّا، ولم يكن شاملاً، بل ربما أخذ عليه أنه اصطحب معه هؤلاء الشياطين من السبئيين واستعان بهم، ولكن هل كان يستطيع عليّ غير ذلك؟ ومن معه غير هؤلاء بعد أن اعتزله طلحة والزبير وعائشة، ووقف عن بيعته عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص، واستعد لحربة معاوية وبنو أمية بالشام، كل ذلك يجعل بعض الباحثين يلومون عليًا لقبوله الخلافة في ذلك الوقت، وكان ابنه الحسن من أول من لامه على ذلك، ولكن ألم يبايعه طلحة والزبير؟ وألم يجتمع عليه وجوه الناس بعد عثمان؟ وهل كان هناك من يجرؤ على التقدم لها حينذاك وأبو الحسن هناك كما قلنا؟

وكانت معركة عنيفة فر منها الزبير لا جبنًا ولا خوفًا من الموت، ولكن لعدم إيمانه بأنه على حق فيما أقدم عليه، وعند عودته مر بماء لبني تميم، فرآه الأحنف بن قيس فقال: جمع الزبير هذين العسكرين ثم ولى وتركهما، فثار عمرو بن جرموز لذلك، وكان في مجلس الأحنف، فلحق بالزبير خفية حتى جلس هذا تحت شجرة ليستريح ثم اضطجع وغفا، فقتله عمرو وهو نائم[٤]. أما طلحة فيروى أن مروان بن الحكم عندما رآه في مطلع المعركة قال: لا أنتظر بعد اليوم بثأري في عثمان، فانتزع له سهما فقتله[٥]. أما عبد الله بن الزبير فقد ضربه الأشتر أحد قادة علي الأشداء حتى سقط، ولكن لم يجهز عليه وبقي في خندق فلم يشترك في معركة بعد ذلك واعتبر ذلك منه فرارا. وبعد أن اختفى هؤلاء القادة بالموت أو الفرار ظلت المعركة تدور بدون قائد أو تحت قيادة عائشة شكليا، وسقط الآلاف في حماية الجمل وحماية أم المؤمنين أو في الهجوم على عائشة وعلى جملها كما قلنا، ثم عقر الجمل وانتهت المعركة بنجاح علي، ولكنه أكرم عائشة وأعادها إلى مكة معززة مكرمة.

بجدر بي أن أبين رأيي بوضوح في هذا الصراع، وفي مسئولية الذين قاموا به، وطوائف المسلمين تختلف اختلافًا بينًا في تحديد المسئول، ومن طوائف المسلمين من سكت عن الخوض في هذا الموضوع، أما السكوت فليس من المصلحة في شيء؛ لأن هذه كانت أول معركة -كما قلنا- تدور بين جيشين مسلمين، ويقف فيها المسلم يواجه المسلم، ويكد ليريق دمه، ويفخر بانتصاره في إراقة دماء إخوته المسلمين، ولم تكن هذه آخر المعارك بين المسلمين، بل تلاها عشرات أو مئات مثلها، ولا نزال حتى اليوم نرى في كثير من الأحيان جيشًا مسلمًا مهاجمًا أو

---

[١] تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٠٣.

[٢] المرجع السابق ونفس الصفحة.

[٣] تاريخ الطبري ٣، ص ٥٣٨ ومنهاج السنة لابن تيميةج ٥ ص ١٨٥ وج ٣ ص ٢٢٥ و ٢٤١.

[٤] العقد الفريد ج ٤ ص ٣٢٣.

[٥] المرجع السابق ٣٢١.

مستعد للهجوم على جيش مسلم آخر، فليس من المصلحة في شيء أن نسكت، بل لا بد أن نبين المسئولية ونلقيها على من يستحقها رجاء أن يرتدع الطامعون بعد ذلك، فلا يضعوا أنفسهم في هذا الموضع الشائك، فيستحقوا لعنات الناس، وعذاب الله، وقسوة التاريخ.

وأما الاختلاف في إثبات المسئولية فمرجعه -عندي- سببان:

أولاً: أن أغلب الباحثين لا يدرسون هذه المشكلة دراسة موضوعية، بل يتأثرون بأشخاصها فيدفعهم تأثرهم إلى هذا الجانب أو ذاك دون عمق وبدون إعمال فكر.

ثانيًا: أن شيوخ الفرق الإسلامية أنفسهم متأثرون بمكانتهم في هذه الفرق، فيغلب أن يتبع الواحد منهم رأي الفرقة التي هو منها ولا يشذ عنها:

فأهل السنة تراهم أسهل حكمًا عدلوا الصحابة جميعا وتولوهم واعتقدوا نجاتهم، وقليلا ما يحاولون أن يحكموا على هذا أو ذاك بالخطأ، وأحيانًا أخرى يذكرون أن الأمر التبس عليهم فيلزمون أنفهسم السكوت، والحقيقة أنه لم يلتبس وإنما أوشك أن يتضح وأن يقودهم إلى حكم قاس على المذنب، وهم لا يطيقون أن يصرحوا بإدانة المذنب من هؤلاء، فيؤثرون أن يغمضوا عيونهم.

وأما الشيعة فإنهم بدون حاجة إلى دراسة، وبادئ ذي بدء يلقون كل المسئولية على عائشة وأصحابها، ولكنهم لا يأخذون للنتيجة سبلها بل يصلون لها دون عناء، ومثل الشيعة الخوارج في هذا الموضوع ومنهم من لا يكتفون بتأثيم أصحاب عائشة بل يقولون بتكفيرهم.

والمعتزلة وهم زعماء الحركة العقلية في التفكير الإسلامي يتأثرون أيضًا، ولذلك نرى زعماءهم الأفذاذ أمثال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبي هذيل العلاف يقولون إن فريقا من الفريقين مخطئ خطأ يفسق به، ولكن أي الفريقين ذلك؟ لا يعينون[1]، وربما جاز لي أن أصفهم بأنهم يستطيعون التعيين ولكنهم لا يريدون.

هل نستطيع أن ننظر إلى هذه المسألة نظرة موضوعية بصرف النظر عن أشخاصها، بل مع كامل التقدير والإجلال لماضي كل من هؤلاء الأشخاص. أرجو هذا، وقبل كل شيء نحب أن نستبعد الكفر، فليس لإنسان أن يكفر من قال "لا إله إلا الله محمد رسول الله" معتقدًا لها، وزعماء هذه المعتركة من هذا الجانب أو ذاك من خيرة من قالها مؤمنًا بها، وقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: طلحة والزبير جاراي في الجنة، وسئل علي عن أصحاب الجمل: أمشركون هم؟ قال: من الشرك فروا قيل: فمنافقون هم؟ قال: إن المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل: فما هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا[2]، فالذي نتكلم عنه هنا هو المسئولية تجاه هذه الحرب الضروس التي أكلت كثيرين من المسلمين، ولنعد لتحديد المسئولية فنسأل سؤالاً مهمًّا هو: هل كانت هذه الحروب حرب مبادئ؟ وهل حقيقة ثارت عائشة لدم عثمان؟ وثار طلحة والزبير لذلك؟

لو كانت الحال كذلك لهان الأمر، ولما عدا اجتهادًا أخطأ فيه المجتهد، ولكن يبدو أن هذه الحرب لم تكن حرب مبادئ ولم تكن من أجل دم عثمان وقد سئل مروان بن الحكم -وكان في جيش عائشة- إلى أين تسيرون. فأجاب: لقتل قتلة عثمان، فقال السائل: فاقتلوا قادة جيشكم فهم قتلة

---

[1] الشهرستاني: الملل والنحل ٢٥ – ٢٦.

[2] ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٣٣٠.

عثمان، وقد ترك الزبير المعركة كما قلنا لأنه لم يكن يعتقد أنه على حق، ولم يكن يدافع عن عقيدة، وضرب مروان طلحة بسهم فأرداه، ولم تنج إلا عائشة.

نجت لأنها أم المؤمنين، وقد ظلت -كما يقول المؤرخون- طول عمرها حزينة تتمنى لو كانت ماتت قبل معركة الجمل بعشرين عامًا[1]، ويروى أنها لما مرضت مرض الموت قيل لها: تدفنين مع رسول الله! قالت: لا، إني أحدثت بعده حدثًا، فادفنوني مع إخوتي بالبقيع[2].

إن هذه المعركة كانت لأطماع شخصية، وكانت تنفيسًا عن كراهية شخصية، والأطماع الشخصية تتمثل في عبد الله بن الزبير، والكراهية الشخصية تتمثل في عائشة، أما عبد الله فقد حمل أكبر قسط من المسئولية لأنه دفع خالته لتحقيق أحلامه، وأما الكراهية الشخصية فقد كانت تتمثل في عائشة فإنها لم تكن على وفاق مع علي ويبوء طلحة والزبير بقسط من المسئولية لأنهما اشتركا في دفع الناس إلى هذا الأتون.

وخطأ علي ينحصر -كما قلنا سابقًا- في أنه لم يكن له سلطان كامل على جيشه، فكان هو يسعى للصلح، وبين أتباعه من بعد المؤامرات لإشعال النار، ولو كان له سلطان كامل على جيشه لكان من الممكن ألا تقوم الحرب.

وهناك شيء آخر نحب أن نبرزه عند الحديث عن القتلى، وهو أن التاريخ يروي أن الآلاف الذين سقطوا في هذه المعركة سقطوا باسم النخوة والمروءة مدافعين عن أم المؤمنين وجملها، فأم المؤمنين وجملها كلفا المسلمين آلاف الأنفس من المدافعين والمهاجمين، فلما خر الجمل وقفت المعركة.

رباه! إن تكن قد غفرت للمخطئين في هذه المعركة فألهم المسلمين التوفيق حتى لا يقف مسلم مرة أخرى يقتل أخاه، ويجد الفخر في إزهاق أرواح إخوته المسلمين.

موقعية صفين:

حدثت موقعة صفين بين علي ومعاوية، وقبل الحديث عنها يجدر بنا أن نستعرض لحالة القوى العسكرية والإمدادات الحربية في العالم الإسلامي قبل بدء المعركة.

كان علي وأتباعه يعتقدون أن معركتهم الأولى والأخيرة يجب أن تكون ضد الأمويين الذين يقودهم معاوية بن أبي سفيان مؤيدًا بأهل الشام، فمعاوية هو ابن عم عثمان، وهو زعيم بني أمية، وله جاء عريض بين جنده وأتباعه بالشام، ولم يكن طلحة والزبير -بعد بيعتهما لعلي- محسوبين من الأعداء الألداء، وكذلك لم يظن ظان أن الحماسة والكراهية بين عائشة وعلي ستدفع بأم المؤمنين أن تقود الجيوش وتخوض معارك الحرب، وعلى هذا فاستعداد علي اتجه لمقاومة معاوية من أول الأمر، ولكن الأحداث تطورت ورأى علي أنه لا بد من الاطمئنان إلى ظهره قبل أن يفرغ لأهل الشام، فخاض معركة الجمل.

ما نتيجة معركة الجمل؟

نتيجتها الساذجة أن عليًا انتصر، ولكن نتائجها الحقيقية كانت أعمق من ذلك، لقد خر من جيش علي عدة آلاف يقدرها المؤرخون بخمسة آلاف أو أكثر[1]، فضعف بذلك جيش علي، وخر من

---

[1] تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٤١.

[2] العقد الفريد ج ٤ ص ٣٣١.

أهل مكة والمدينة والبصرة ممن تبعوا عائشة وأصحابها عدد أكبر من ذلك، وخلف هؤلاء القتلى جراحًا تثير الحقد على علي، ثم إن جيوش علي كانت حديثة الصلة به فليس له عليها يد، وليس معه مال يغدق على الأبطال وينعم على الشجعان، وإن كان معه مال فليس علي بالذي يعطي من مال الله في غير وجهه، وعلى هذا كان مع علي أشتات من الناس أكلت منهم الحروب وليس هناك ما يداوي جراحهم.

وفي الجانب الآخر من العالم الإسلامي كان يقف معاوية متخذًا من دمشق عاصمة لإمارته التي تولاها منذ عهد عمر بن الخطاب، وقد أضاف إلى إمارته التي تولاها منذ عهد عمر بلدانا أخرى ضمها إليه عثمان، وهكذا امتدت السنون بابن أبي سفيان في الشام وهو سياسي ضليع، يعرف الوسيلة إلى قلوب الناس عن طريق الدهاء أو العطاء، والشام بلاد غنية فتية لم يعرف سكانها منذ دخلوا الإسلام أو دخل الإسلام بلادهم حكمًا أزهى ولا أطول من حكم معاوية، وانضم حول معاوية بعض من أدهى الدهاة في الجزيرة العربية وعلى رأسهم عمرو بن العاص، كما تجمع حول بنو أمية أو أكثرهم وكثير غيرهم من بطون العرب وقبائلها، وكان لدى معاوية جيش لا يعرف غيره ولا يطيع سواه، وزاد نفوذ معاوية إبان حكم عثمان فأصبح في الواقع الحاكم الأعلى والمرجع النهائي لكل الأمور، وبينما كان علي يخوض معركة الجمل ويفقد من جيشه عناصر صالحة، كان معاوية يقوي جيشه ويدعمه، ويفرق على أتباعه المال ويثيرهم ضد قتلة عثمان، وينصب لهم على المنبر قميص الخليفة ملوثًا بدمه، وقد علقت به أصابع زوجته التي قطعها الثائرون وهي تتلقى عن زوجها الضربات، ويتخذ من ذلك أساسًا لفيض من الكراهية ينميه ضد علي الذي أتهم بأنه كان يحمي القتلة ويستعين بهم، وكان أهل الشام -كما لا يزالون دائمًا- يحملون فكرة هامة هي أن إسناد الخلافة إلى علي معناه ثبوت الأمر لبني هاشم، وكانوا يرون كما يرى أغلب المسلمين وجميع الباحثين أن الخلافة من حق المسلمين كافة لا يختص بها بنو هاشم، كما أن حياتهم قد طالت وطابت في ظل معاوية، فلماذا لا يحرصون عليه، ويشدون أزره، لتدوم لهم هذه الحياة؟

في مثل هذا الجو زحف علي لمقابلة جيوش معاوية، والتقى الجيشان في موضع سهل على الفرات يقال له صفين، والحق يقال إن عليًّا كان كالعهد به دائمًا يميل إلى السلم والموادعة، فقد تغلب أول الأمر أتباع معاوية على الماء ومنعوا عنه أتباع علي، فناهضهم علي حتى أجلاهم عن الماء ثم لم يمنعهم عنه[٢]، وكتب علي عدة كتب وأرسل عدة رسل لدعوة معاوية إلى البيعة وإلى الاتفاق ولكن هل كان سهلاً على معاوية أن يترك ملكًا شامخًا ويستجيب لدعوة علي؟

والتقى الجيشان ووقعت المعارك عدة أيام، وكان من أبرز أنصار علي، القائد العظيم مالك الأشتر واستطاع علي ببطولته الشخصية وبحماسة بعض أتباعه أن يكون جيشه قوة غالبة كسبت له النصر، ومما ضمن لعلي النصر في هذه الموقعة إيمانه العظيم بالقضاء والقدر، وأخذه من هذه العقيدة قوة له ولأصحابه، يروى ابن عبد ربه[٣] أن عليًّا كان يخرج كل يوم بصفين حتى يقف بين الجيشين ويقول:

أي يومَيَّ من الموت أفر ********** يوم لا يقدر أو يوم قدر

---

[١] من أهم المراجع التي نوصي بقراءتها في هذا الموضوع كتاب "وقعة صفين" لنصر ابن مزاحم الذي حققه الأستاذ عبد السلام هارون.

[٢] تايخ الطبري ج ٣ ص ٥٦٦.

[٣] العقد الفريد ج ١ ص ١٢٣.

يوم لا يقدر لا أرهبه ********** ومن المقدور لا ينجي الحذر

ولما أدرك معاوية هزيمة جيشه صاح بعمرو بن العاص: هل مخبأتك يا ابن العاص فقد هلكنا، فهتف عمرو بجنده: من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه، فرفعوا المصاحف وقالوا: كتاب الله بيننا وبينكم، وكأنما صادف هذا الهتاف هوى في نفوس أتباع علي الذين كانت الحرب قد أرهقتهم، فاستجاب أكثرهم، وحاول علي أن يحثهم على مواصلة الحرب حتى ينالوا النصر الكامل ولكنهم لم يستجيبوا له وأرغموه على إعلان إيقافها، ففعل[١] ويروى أن بعض أتباع علي ثاروا في وجهه قائلين: القوم يدعوننا لكتاب الله وأنت تدعونا للسيف، وهددوه بأنهم سيقاتلونه إن لم يتوقف عن قتال المسلمين[٢].

هل كان مع أهل الشام مصاحف يرفعونها والحرب دائرة؟ ربما، ولكن ابن قتيبة يروي رواية أقرب إلى المنطق من تلك الرواية الشائعة التي أوردناها آنفًا، يقول ابن قتيبة: إن الهزيمة ظهرت في جيش معاوية وبدأ الوهن، فقام علي في ليلة من الليالي يتوعد أهل الشام ويذكر أنه سيخوض المعركة بنفسه غدًا ليصل إلى نهاية حاسمة يجني بها ثمار ما أحرزه جيشه من انتصارات، فلما بلغ معاوية قول علي هذا استشار عمرو بن العاص فقال له عمر: إن رجالك لا يقومون لرجاله، ولا أقوم أنا ولا أنت له، فأنت تقاتله على أمر ويقاتلك على غيره، وأنت تريد البقاء وعلي يريد الفناء، وليس يخاف أهل الشام من علي ما يخافه منك أهل العراق، فادعهم إلى كتاب الله فإنك تقضي منه حاجتك قبل أن ينشب مخلبه فيك، فأمر معاوية أهل الشام أن ينادوا في سواد الليل نداء فيه صراخ واستغاثة يقولون: يا أبا الحسن من لذريتنا من الروم إن قتلنا؟ الله الله البقيا، كتاب الله بيننا وبينكم، وأصبحوا وقد رفعوا المصاحف على الرماح وقلدوها أعناق الخيل[٣].

وجاءت الهزيمة إلى علي من هذا الطريق، وإن المؤرخ ليستعرض حياة علي العسكرية فيجده قد انتصر في المعارك التي خاضها كلها، انتصر في موقعة الجمل، وفي موقعة صفين، وفي مواقعه ضد الخوارج، ولكنه كان يهزم في مواقف الدهاء؛ لأنه فيما أعتقد لم يؤثر الدنيا على الدين، ولأن أتباعه أشتات كما وصفنا آنفًا، ليس له عليهم يد قوية، ولعل ذلك ليس من أخطائه بل من فعل الظروف التي لم يخلقها علي، وقد وضح معاوية أسباب انتصاره علي علي بقوله: أعنتُ على علي بأربع: كنت رجلاً أكتم سري وكان رجلاً يظهره، وكنت في أطوع جند وأصلحه وكان في أخبث جند وأعصاه، وتركته وأصحاب الجمل وقلت: إن ظفروا به كانوا أهون علي منه وإن ظفر بهم اعتددت بها عليه في دينه، وكنت أحب إلى قريش منه، فيالك من جامع إلي ومفرق عنه، وعون لي وعون عليه[٤].

التحكيم:

وهكذا توقفت الحرب بين علي ومعاوية واتجه الأمر إلى التحكيم واتفق الرأي على أن يولي أهل العراق حكمًا، وأن يولي أهل الشام حكمًا، وأن يجتمع الرجلان ليبحثا أسباب الخلاف رجاء الوصول إلى حل، وقد ارتضى أهل الشام عمرو بن العاص بإجماع منهم، واختلف أتباع علي،

---

[١] تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٤ وما بعدها.

[٢] الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ١٥٠.

[٣] الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٢٠

[٤] المبرد: الكامل ج ٢ ص ٦٩٩ – ٧٠٠.

وقدم أغلبهم أبا موسى الأشعري على غير رغبة من علي، واجتمع الحكمان في شهر رمضان سنة ٣٧ هـ ولم يكن هناك تكافؤ في هذا التحكيم فعمرو بن العاص أستاذ الدهاء في الجزيرة العربية، وأبو موسى فيه طيبة ويسر: وعمرو يربط مصيره بمصير معاوية وليس كذلك أبو موسى، وخلف عمرو قوة موحدة إن كانت قد هزمت في المعركة فإن الهزيمة لم تتم، وقد أصلح أصحابه أحوالهم واستعدوا من جديد، وخلف أبى موسى أشتات مفترقة والكلمة مختلفة الرأي.

وفي الاجتماع دار نقاش طويل يرويه الطبري[١] والمسعودي[٢] وقد لعب فيه دهاء عمرو دورًا كبيرًا وانتهى فيه إلى أن عثمان قتل مظلومًا وأن من قتل مظلومًا فإن لوليه سلطانًا، وأن معاوية هو أولى الناس بالمطالبة بدم عثمان، ثم تحول النقاش إلى اقتراح عزل علي ومعاوية وترك الأمر للمسلمين أمرهم من يشاءون، وقدم أبو موسى الاقتراح فوافق عليه عمرو، وقدم أبو موسى فأعلن الاقتراح وتبعه عمرو فأعلن موافقته على عزل علي وأعلن تثبيته لمعاوية[٣].

على أن الناقدين المحققين في العصر الحاضر يميلون إلى الاعتقاد بأن الذي جرى فعلاً، هو أن الحكمين خلعا كلا الزعيمين، وهذه مؤداه أن عليًّا وحده هو الذي خلع إذ لم يكن معاوية خليفة بعد[٤].

وعلى أي حال فإن خبر التحكيم على هذا الوضع يقبله بعض المؤرخين ويرده بعضهم، وليس هذا الخبر بكبير الأهمية عندي لأنه لم تُرد به قط نتيجة مرضية، وإنما لجأ إليه معاوية لينجو من هزيمة بدأت تظهر، وقد نجا فعلاً من الهزيمة وهب أن عمرًا قرر فعلاً عزل معاوية فهل كان عزل معاوية موضوعًا يستطيعه عمرو بن العاص أو أبو موسى الأشعري؟ وهناك تفصيلات مهمة لها صلة بهذا الموضوع أوردناها عند الحديث عن الخوارج في الجزء الثاني من هذه الموسوعة[٥].

بعد التحكيم:

كانت نتيجة التحكيم في صالح معاوية لان علي عزل، وتم تثبيت معاوية، ولكن لأن الانقسام بعد التحكيم قد ظهر واضحًا في جيش علي، وبدأ الخوارج يثورون علي علي ويعتزلونه لأنه قبل التحكيم[٦]، والعجيب أنه كان بين الخوارج كثيرون ممن أرغموا عليًا على قبول التحكيم؛ وكانوا وكانوا يعترفون بذلك ويقولون لعلي: أخطأنا فلماذا تتبعنا في خطئنا، وأنت الخليفة يجب أن تكون أبعد نظرًا وأعمق رأيًا، ولم يكتف الخوارج باعتزال علي، بل أخذوا يرتكبون الآثام ويعتدون على الناس في العراق، وحاول علي أن يرشدهم للحق بمختلف الطرق فلم يستطع، ولم يجد بدًّا من محاربتهم، وكان كلما انتصر على جيش منهم ظهر جيش آخر، وبدأ كبار الصحابة كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر يذهبون إلى الشام وينضمون إلى معاوية لثبوت أمره ولتوفر الاستقرار عنده، واستطاع معاوية بدهائه أن يضم مصر إليه بعد معركة قادرها عمروبن العاص، وتبعًا لما يرويه المؤرخون فإن الطريقة التي اتبعها معاوية حتى ضم مصر إليه كانت

---

[١] انظر تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٤٩ وما بعدها.

[٢] انظر مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤ وما بعدها.

[٣] ابن طباطبا، الفخري ص ٦٦.

[٤] فيليب حتى: تاريخ سوريا ص ٣٣.

[٥] ص ٢١٤ وما بعدها.

[٦] تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٦ وما بعدها.

لونًا من ألوان دهائه وحذقه السياسي، ولا شك أنها تحسب -إن صحت- هن غفلات أمير المؤمنين، فقد روى المؤرخون أن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري كان واليًا على مصر من قبل علي بن أبي طالب، وكان ضابطًا لها، ولم يستطع معاوية أن يأتيه من أية ناحية من نواحيه، فأعمل الحيلة، وانتهى إلى أن أشاع أن قيسًا من أنصاره وأنه يعاونه سرًا وجازت الحيلة على عليّ وبخاصة أنه كان بمصر جماعة من أنصار عثمان ولكن قيسًا وادعهم، وهم وادعوه، وهدأت البلاد، ففهم علي من موادعة قيس لهم أن حقيقة على اتصال بمعاوية وأنه يميل إلى أنصار عثمان، فعزله، وعين بدله محمد بن أبي بكر، ولم يكن محمد في كياسة قيس، فاشتبك في حرب مع أنصار عثمان، وزفت جيوش معاوية بقيادة عمرو بن العاص ومعه معاوية بن خديج ألد أعداء محمد بن أبي بكر، وانضم جيش عمرو لأعداء محمد، وكان النصر لعمرو، وقتل محمد بن أبي بكر[1]، وهكذا كان أمر علي في نقصان، في حين كان أمر معاوية في ازدياد متصل.

نهاية علي:

لم يستقر الأمر لعلي يومواحد طيلة مدة خلافته، وكان يرقع خرقًا فتظهر له ألوان أخرى من البلى، ويظهر الثوب متهلهلاً، ومن هنا يبدو النصيب والحفظ فيما يعرض من أمور، وبينما كان علي يعد العدة لحملة جديدة على معاوية كانت هناك مؤامرة ثلاثية تدبر للقضاء على علي ومعاوية وعمرو بن العاص، ومدبرو هذه المؤامرة هم ثلاثة من الخوارج اتفقوا على التخلص من الزعماء الثلاثة في ليلة واحدة، فاتجه عبد الرحمن بن ملجم لقتل علي بالكوفة، واتجه البرك بن عبد الله التميمي إلى الشام لقتل معاوية، واتجه عمرو بن بكر التميمي إلى مصر لقتل عمرو بن العاص، وقد نجح ابن ملجم من بين هؤلاء الثلاثة، فطعن عليًّا بسيفه طعنة قاتلة وهو ينادي للصلاة، وأمسك به المصلون، فلما مات علي قتل ابن ملجم فيه، أما البرك فقد طعن معاوية طعنة غير قاتلة، وأما عمرو بن بكر فقد جلس يرقب عمرًا بن العاص ليخرج لصلاة الفجر، ولكن هذا لم يخرج لمرض ألم به، وأناب عنه خارجة بن حبيب السهمي ليصلي بالناس فطعن عمرو بن بكر خارجة وهو يحسبه عمرًا بن العاص[2].

وانتهى بذلك علي صاحب أفصح لسان، وأقوم حسام، وأعمق عرفان، بين أتباع الرسول صلوات الله عليه، وانتهى بعلي عهد الخلفاء الراشدين.

مقاتل عمر وعثمان وعلي:

---

[1] تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٥١ – ٥٥٤ وتنسب المراجع التاريخية لمعاوية قصصًا مماثلة لهذه القصة، استطاع بها معاوية أن يقضي على ألد خصومه، فيروي المبرد أن أحد بطارقة الروم كان شديد الكيد بالإسلام، شديد الرغبة في الإيقاع بالمسلمين كلما سنحت له فرصة، فعرف معاوية ذلك، فسأل أي الطرق في أرض المسلمين يحبها هذا الطريق، فلما عرف ما يحبه البطريق أهداه له، وتكررت هداياه للبطريق حتى عرف ما بين معاوية والبطريق من صلة، وظل البطريق مستمرًا في الكيد للمسلمين حتى لا يظن أحد أن قبوله هدايا المسلمين ربط بينه وبينهم، ثم إن معاوية كتب لهذا البطريق رسالة جعلها في وضع كأنها سر من الأسرار، وأبدى معاوية في هذه الرسالة رضاه عن سلوك البطريق في تظاهره بالكيد للمسلمين، وأكد له على ثقته فيه وفي رسالته الأخيرة التي رسم فيها ما بعده من ثورة على الإمبراطور وطلب معاوية من حامل رسالته أن يتعرض لأن يظهر الكتاب بطريقة خفية، وضبط الكتاب وصلب البطريق، ونجحت مكيدة معاوية (انظر الكامل للمبرد ج – ص٤٥٥).

[2] ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية ص ٧٢ – ٧٣.

إن بين مقتل عمر وعثمان وعليّ رباطًا قويًا، ومن هنا فإني أوثر أن أتكلم عن مقاتلهم في مكان واحد.

وسأتكلم هنا بالفكر الجديد الذي أملته عليّ دراسة في كتاب: "حركات فارسية لضرب الإسلام والمسلمين عبر العصور" فالدراسات التي وضحها هذا الكتاب – معتمدة على أدق المصادر – تؤكد أن حركات نبتت في بلاد فارس فور انتصار المسلمين على الفرس في المعارك العسكرية، فلقد كان سقوط فارس بسرعة عملاً مذهلاً، أبرز انهيار هذه الدولة التي كانت قد استنفدت قوتها سبب فساد مجتمعها الذي عششت فيه المانوية والمزدكية والطبقية التي وصلت إلى اعتبار الملوك آلهة لهم حقوق إلهية مقدسة.

وفي هذا الجو كان اليهود الذين استوطنوا فارس منذ أن أطلقهم "قورش" من سجن بابل، ينشرون الفوضى الأخلاقية، ويعملون على أن يكسبوا الأموال بأي طريق.

وانتصر المسلمون انتصارًا سريعًا على جيوش الفرس الجرارة، واستولوا على الأماكن الشاسعة التي كان الفرس قد مدوا سلطانهم لها، ووقف الفرس حيارى لا يستطيعون مقابلة القوة بالقوة، فلجئوا إلى المؤامرات والثورات، وكان عدوهم الأول هو عمر بن الخطاب الذي أعد الجيوش لاقتحام فارس وأعد الخطط التي تكفل النصر.

هل يقيمون بثورة في عهد عمر كالثورات التي قاموا بها في عهد عثمان وعليّ، وكالثورات العسكرية والفكرية التي قامت بها جماعات منهم فيما بعد كالقرامطة والزنادقة والباطنية وغيرهم؟

نعم لم يكن من الممكن أن تقوم فتنة أو ثورة في عهد عمر، فقد كان معروفًا بالعزم والحسم، وأنه يضرب بقوة كل من يحاول أن يحدث أية فتنة أو يوحي بأية ثورة في عهده.

وعلى هذا كان الطريق لقتل عمر هو أن تدبر مؤامرة سرية في الظلام، يقوم بها مجموعة من الفرس الحانقين، وفي مقدمتهم أبو لؤلؤة الذي كان من أشد الفرس تعصبًا لقومه، وكان كلما مر به صبي فارسي مسح رأسه بيديه وقال: أكل كبدي عمر، واشترك أبي لؤلؤة والهرمزان وهو سيد من سادة الفرس فقد سلطانه، وجفينة وهو فارسي حانق، في التدبير لهذه الجريمة وإعداد السلاح لها كما سنرى بعد قليل، ونفذها أبو لؤلؤة.

وهكذا قتل عمر بهذه المؤامرة السرية.

وجاء دور عثمان وعلي، والخليفتان بعيدان كل البعد عن نهج عمر، فعثمان يكره الدم ويميل للين والدعة حتى في الظروف التي تستوجب الحسم والقوة، وقد أشار المغيرة بن شعبة عليه أن يقتل المتمردين، فقال: لا والله لا أكون أول من يخلف الرسول في أمته بسفك الدماء، وما أحب أن ألقى الله وفي عنقي قطرة دم لأحد.

وعرض عليه معاوية أن يحرسه بجيش من أهل الشام فقال: لا، إنهم سيشاركون أهل المدينة طعامهم، وسيزحمون المدينة على المهاجرين والأنصار.

وعليَّ رضي الله عنه من هذا النوع، فقد ظهر له أن الأشعث بن قيس منافق وأنه معه في الظاهر، ولكنه على صلة بأعدائه، ومع هذا رفض أن يقتله، وكان يقول لولاته: إياكم وسفك الدماء فإن أول ما يسأل عنه المرء عند ربه ما سفك من دماء.

وهكذا قامت الثورات الفارسية متخذه هذا الطريق أو ذاك متعللة بسبب أو بآخر، فاشتدت الثورات وهي آمنة في عهد عثمان حتى راح ضحية لها، واستمرت في عهد علي حتى قضت عليه يد نسبها المؤرخون للخوارج، ولكنها في الحق مدفوعة بدافع فارسي كان يرمي للفتك بزعماء العصر: علي ومعاوية وعمرو بن العاص ولكن الله سلم الأخيرين.

ذلك هو المعنى الذي أريد أن أوضحه، مؤامرة فارسية تؤيدها الأصابع اليهودية قتلت عمر، ثم ثورات خطط لها الفرس واليهود وقادوها ووجهوها وخدعوا بعض الأبرياء فجذبوهم لها، فقتلت عثمان وعليًّا غيرهما في عهد علي، ثم انطلقت المؤامرات الفارسية على نطاق واسع باسم الشعوبية والباطنية والزنادقة والحرمية والقرامطة والدرزية والبابية والبهائية، فقتلت الملايين من المسلمين ولا تزال تقتل وتضرب، حتى اليوم بصيحة الخميني.

تلك هي الأسباب الحقيقية لمقاتل الخلفاء الثلاثة، أما الدراسات التقليدية فسبق عرض حديثها عن عمر، وكذلك حديثها عن عثمان وعلي رحمهم الله واقتص من أعدائهم.

علي في الميزان:

تحدثنا في مطلع الكلام عن علي، عن الصفات النادرة التي امتاز بها كرم الله وجهه على أنداده، وكذلك تحدثنا عن مواقفه الخالدة مدافعًا عن الإسلام واردًا عنه أعداءه، وكذلك تحدثنا عن سابقته وفضله وعلمه وفصاحته، والحديث عن علي في هذا المجال طويل، وربما كان من الحديث المعاد، فلن تستطيع هذه العجالة أن تلم بما له من فضل، وأنتحوي ما امتاز به من مكانة سامية في شتى النواحي.

ولاستكمال البحث نورد هنا بعض ما أخذ عليه، ومما أخذ عليه عدم استشارته شيوخ عصره في الأمور، وإهماله لمشورتهم إن تقدموا بها، ولما عاتبه طلحة والزبير في ذلك قال لهما: أي شيء جهلته حتى أستشير فيه؟

وفي قضية عبيد الله بن عمر وقتله الهرمزان (وقد سبق إيرادها) نجد عليًّا يريد أن يعيد محاكمته وقتله مع أن عثمان قضى فيها منذ اثني عشر عامًا وتحمل مسئوليتها ولذلك نجد عبيد الله يهرب إلى الشام ويصير من القادة في جيش معاوية[1].

وكان علي كثير التشكيك في عماله، وربما تأثر بالشك فاتهمهم، ولم يسلم من ذلك عبد الله بن العباس مما جعله يترك البصرة مقر ولايته ويعتزل بمكة.

ويقول أستاذنا الخضري: إن من أكبر الأسباب في عدم استقامة الأمر لعلي يرجع إلى عقيدته في نفسه، وثقته المتناهية بما يراه، واستغنائه عن رأي الأشياخ من قريش، وشدته عليهم، ويقارن أستاذنا الخضري بين عمر وعلي في الشدة فيقول: إن عمر كان يشتد والأمة كلها معه ولكن عليًا كان يشتد ومعظم الأمة عليه[2].

---

[1] النووي: تهذيب الأسماء القسم الأول ج ١ ص ٣١.

[2] تاريخ الأمم الإسلامية ج ٢ ص ٨٤.

خلافة الحسن بن علي (عام ٤٠ هجرية)

بايع أهل الكوفة الحسن بن علي بن أبي طالب بعد مقتل ابيه، واحتشد تحت إمرته ما كان تحت يد أبيه من الجند، وخضعت له الولايات الشرقية، ومن اليوم الأول لخلافته أراد أن يحقق نبوءة جده صلى الله عليه وسلم فيه، بأنه سيكون سبب في الإصلاح بين أمتين كبيرتين من أمة الإسلام، ولهذا شرط في بيعته أن يخضع من يبايعه له يسالم من سالمه ويحارب من حاربه، وسارت المساعي بالصلح بينه وبين معاوية، وحاولت عصابة الفتنة أن تقتله قبل أن تؤتي هذه المفاوضات تمرتها، ولكنه غادر الكوفة مع بعض جنده إلى المدائن، واستمرت المفاوضات بين الطرفين، واجتمع كل من الحسن و معاوية في النخيلة، ونجحت المفاوضات في عقد الاتفاق التالي:

(تنص المصادر السنية والشيعية على نفس أسباب الصلح، ونفس شروط وثيقة الصلح، وقد ذكر ابن حجر الهيثمي صورة كتاب الصلح بين الحسن ومعاوية على النحو الآتي):

بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

هَذَا مَا صَالح عَلَيْهِ الْحسن بن عَليّ رَضِي الله عَنْهُمَا مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَان صَالحه على:

أَن يسلم إِلَيْهِ ولَايَة الْمُسلمين على أَن يعْمل فيهم بِكِتَاب الله تَعَالَى وَسنة رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وسيرة الْخُلَفَاء الرَّاشِدين المهديين.

وَلَيْسَ لمعاوية بن أبي سُفْيَان أَن يعْهَد إِلَى أحد من بعده عهدا بل يكون الْأَمر من بعده شُورَى بَين الْمُسلمين.

وعَلى أَن النَّاس آمنون حَيْثُ كَانُوا من أَرض الله تَعَالَى فِي شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم.

وعَلى أَن أَصْحَاب عَليّ وشيعته آمنون على أنفسهم وَأَمْوَالهمْ وَنِسَائِهِمْ وَأَوْلَادهمْ حَيْثُ كَانُوا.

وعَلى مُعَاوِيَة بن ابي سُفْيَان بذلك عهد الله وميثاقه وَأَن لَا يَبْتَغِي لِلْحسنِ بن عَليّ وَلَا لِأَخِيهِ الْحُسَيْن وَلَا لأحد من أهل بَيت رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم غائلة سرا وَلَا جَهرا وَلَا يخيف أحدا مِنْهُم فِي أفق من الْآفَاق.

أشهد عَلَيْهِ فلَان وَفُلَان بن فلَان وَكفى بِاللَّه شَهِيدًا. ([1])

وتم إطلاق عام الجماعة على عام ٤٠ هجرية، لأنه العام الذي شهد اجتماع أمة الإسلام تحت خليفة واحد، وانتهى الانقسام بين الأمة بهذا الصلح، وكان هذا بعد ستة أشهر من خلافة الحسن، وبهذا انتقلت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، وبذلك صار معاوية هو الخليفة السادس، ومات الحسن حوالي عام ٥٠ هجرية، وحمل معاوية الناس على مبايعة ابنه يزيد بالقوة، ولهذا كان معاوية آخر الخلفاء وأول الملوك، وانتهى بذلك عهد الخلافة الراشدة.

والحمد لله في البدء والختام.

---

[1]) ابن حجر الهيتمي. (المتوفى في سنة ٩٧٤هـ); تحقيق: عبد الرحمن بن عبد الله التركي - كامل محمد الخراط (١٤١٧هـ/١٩٩٧). الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، الجزء الثاني. (على موقع المكتبة الشاملة) (الطبعة الأولى). بيروت-لبنان: مؤسسة الرسالة. صفحة ٣٩٩.

هذا الكتاب

يتعرض هذا الكتاب لثلاثة عناصر :

أولا : قصص الأنبياء من شعيب عليه السلام لنهاية قصة موسى وهارون عليهما السلام، ومن خلال ذلك نتعرض لطرف من أحوال بني إسرائيل مع أنبيائهم، لنتعرف على أحوال الأنبياء وما كابدوه في دعوة الناس للتوحيد، ومنها نتعلم ما يجب أن يكون عليه الداعية من صبر .

ثانيا: دلائل وخصائص وشمائل رسولنا عليه الصلاة والسلام؛ فنتعرض لبعض دلائل وخصائص نبوة رسولنا صلى الله عليه وسلم، كما نتعرض لصفاته وأحواله مع الناس؛ فهو قدوتنا، فنتعلم منه كيف يكون السلوك مع أهل البيت، وخارج البيت مع الناس بكافة أحوالهم، وكيف يكون سلوكنا هو الأصل في دعوتنا للعالمين.

ثالثا: لمحة عامة عن تاريخ الخلفاء الراشدين، وفيها نتعرض لملامح الحكم الإسلامي الرشيد، وعملية بناء الدولة الإسلامية بمؤسساتها، وأبرز الأخطار التي تعرضت لها في هذه المرحلة المبكرة من التاريخ الإسلامي.

التعريف بالمؤلف

دكتوراه التاريخ الحديث والمعاصر كلية الآداب جامعة عين شمس بالقاهرة، عضو لجنة إحياء تراث الفكر الإسلامي المعاصر – مكتبة الإسكندرية (مصر)، ليسانس الشريعة من كلية الشريعة والقانون – جامعة الأزهر ، الدبلوم العالي في الدراسات الإسلامية - معهد الدراسات الإسلامية - القاهرة، دبلوم عالٍ في التربية - كلية التربية - جامعة الإسكندرية، ليسانس تاريخ - كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، نائب رئيس الموقع ومدير العلاقات الخارجية بموقع ببليواسلام - الموقع الأكاديمي لشبكة إسلام أون لاين.نت، مدير مشروع بانوراما التاريخ الإسلامي في مركز دراسات العالم التركي

Caulfield Cres., Mississauga, ON L5M 6J7 - Canada 3054
Tel . : +1 (647)633-3491
E-mail : info@ayaatacademy.ca
ميساساجا - أونتاريو - كندا
www.ayaatacademy.ca

أكاديمية آيات
Ayaat Academy